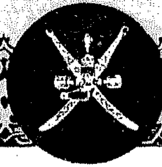


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

حاشية الترتيب

كتاب الترتيب للعلامة

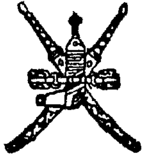
أبي يعقوب يوسف ابراهيم الوارجلاني

محشي بحاشية العلامة
أبي عبد الله محمد بن عمر

الجزء السابع

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة



حاشية الترتيب

كتاب الترتيب للعلامة
أبي يعقوب يوسف ابراهيم الوارجلاني

محشي بحاشية العلامة
أبي عبد الله محمد بن عمر

الجزء السابع

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

كتــــــــــــــــاب

الحجة على من قال إن أهل الكبائر ليسوا بكافرين

قال الـربيـع بن حبيـب قال جـابر بن زيد يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا يدخل الجنة مخنث ولا ديوث ولا فحلة النساء ولا الركاضة قيل وما الركاضة يا رسول الله قال التي لا تقار) .

قوله (لا يدخل الجنة مخنث . . الخ) وجه الدليل منه أن من لم يدخل الجنة كان من أهل النار ومن كان من أهل النار فهو كافر لقوله تعالى (النار وعدها الله الذين كفروا) فعلم منه أنه لا يدخل النار إلا كافر . ولذلك قال الشيخ أبو نصر رحمه الله :

ثلاثــة أسـماء معــان تجاورت
كبــير وكـفــر والـعقــاب بمقــر ن .

وروي في الجامع الصغير من كتب قومنا في هذا عدة أحاديث منها : (لا يدخـل الجنـة إلا رحيم) ، ومنهـا (لا يدخـل الجنة قاطع رحم) ، منها (لا يدخـل الجنـة خب ولا بخيـل ولا منـان) والخب بالفتـح الخداع الذي يسعى بين الناس بالفساد .

ومنهـا (لا يدخـل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) ، ومنها (لا يدخل

الجنة صاحب مكس) ، ومنها (لا يدخل الجنة سيىء المملكة) وتأولها الشارح على قاعدة مذهبهم الفاسد من أنه محمول على المستحل ليكون مشركا لأن الكفر عندهم هو الشرك ، أولا يدخل الجنة مع السابقين إليها ، أولا يدخلها حتى يعاقب إلا أن يغفر الله له . ولولا التأويل لأشركوا . والله أعلم .

قوله (مخنث ولا ديوث) المخنث هو الذي يشبه النساء في حركاته وكلامه وتعطفه .

قال في الصحاح : وخنثت الشيء أي عطفته فتعطف ومنه سمي المخنث ، وتخنث في كلامه .

والخنث ـ بكسر النون ـ المسترخي المنثنى وفي المثل (أخنث من دلال) ؟ الخ .

وروي فيه في الجامع حديثا لفظه (لعن الله المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء) .

قال العلقمي : وتمامه كما في البخاري وقال (أخرجوهم من بيوتكم) قال فأخرج النبي ﷺ فلانا وأخرج عمر فلانا .

قال : قوله (والمخنثين) بكسر النون وبفتحها من أشبه خلقة النساء في حركاته وكلامه وغير ذلك فإن كان من أصل الخلقة لم يكن عليه لوم

وعليـه أن يتكلف إزالـة ذلـك وإن كان بقصـد منـه وتكلف له فهـو المذموم ويطلق عليه اسم المخنث سواء فعل الفاحشة أو لم يفعل .

قال ابن حبيب : المخنث هو المـؤنث من الـرجـال وان لم تعـرف منه الفاحشة مأخوذ من التكسر في المشي وغيره .

(والديوث) قال في الصحاح هو القندع وهو الذي لا غيرة له .

وأحفظ أنه ورد في الحديث (لعن الله من لا يغار) فعلى هذا لا يخص الديوث بالذي يعرف العيب في أهله فيسكت والله أعلم .

قوله (ولا فحلة النساء) الظاهر أن المراد بها المتشبهة بالرجال .

وروي فيهـا في الجـامـع حديثـا لفظـه (لعن الله الرجل من النساء) فضبطها الشارح بضم الجيم ثم قال : قال في النهاية المتشبهة بالرجال وقال في الحديث المتقدم قوله (والمترجلات من النساء) زاد أبو داود إلى أن قال :

فقلت له ما المترجلات من النساء قال المتشبهات بالرجل .

قال وفي البخاري لعن النبي ﷺ المتشبهين .

قال في الفتح قال الطبري : المعنى أنه لا يجوز للرجال التشبه بالنساء في اللباس والزينة التي تختص بالنساء ولا العكس .

قلت وكذا في الكلام والمشي فأما هيئة اللباس فتختلف باختلاف عادة كل بلد فرب قوم لا يختلف زي رجالهم من نسائهم في اللبس لكن تمتاز بالاحتجاب والاستتار .

وأما ذم التشبيه بالكلام والمشي فمختص بمن تعمد ذلك . وأما من كان أصل خلقته فإنه يؤمر بتكلف تركه والإدمان على ذلك بالتدريج فإن لم يفعل وتمادى دخله الذم ولا سيما إن بدا منه ما يدل على الرضى به . وأخذ هذا واضح من لفظ المتشبهين .

وأما إطلاق من أطلق كالنووي أن المخنث الخلقي لا يتجه عليه اللوم فمحمول على ما إذا لم يقدر على ترك التثنى والتكسر في المشي والكلام بعد تعاطيه المعالجة لترك ذلك وإلا متى كان ترك ذلك ممكنا ولو بالتدريج فتركه لغير عذر لحقه اللوم إلى أن قال :

وقال ابن التين : إن المراد باللعن في هذا الحديث من تشبه من الرجال بالنساء في الزي ومن تشبه من النساء بالرجال كذلك فأما من انتهى في التشبيه بالنساء من الرجال إلى أن يؤتى في دبره وبالرجال من النساء إلى أن تتعاطى السحق بغيرها من النساء فإن لهذين الصنفين من الذم والعقوبة أشد ممن لم يصل إلى ذلك .

وإنما أمر بإخراج من تعاطى ذلك من البيوت لئلا يفضي الأمر بالمتشبه إلى تعاطي ذلك الأمر ـ الممكَّنُ .

وقال ابن أبي جمرة ما ، ملخصه : ظاهر اللفظ الزجر عن التشبيه في كل شيء ، لكن عرف من الأدلة الأخرى أن المراد التشبيه في الزي وبعض الصفات والحركات ونحوهما إلا التشبيه في أمور الخير إلى أن قال :

والحكمة في لعن من تشبه ، اخراجه الشيء عن الصفة التي وضعها عليه أحكم الحكماء . وقد أشار إلى ذلك في لعن الواصلات بقوله المغيِّرات خلق الله .

قوله وما الركاضة يا رسول الله ؟ (قال التي لا تغار) كأن المراد لا تغار على نفسها فلا تبالي من نظر الرجال إليها وتمكنهم منها أوعلى زوجها فلا تبالي من نظره إلى النساء واجتماعه بهن مثلا . والله أعلم .

ولم يذكر في الصحاح هذا المعنى في مادة ركض لكن من حفظ حجة على من لم يحفظ . والله أعلم .

وقال رسول الله ﷺ (اقتلوا الحيات صغارها وكبارها فإنا ما سالمناهن مذ حاربناهن فمن تركهن خشية الثأر فقد كفر) .

قوله (اقتلوا الحيات صغارها وكبارها . . الخ) لفظه في الجامع الصغير (اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف ثأرهن فليس مني) .

ورواية أخرى (اقتلوا الحيات اقتلوا ذا الطفيتين والأبتر فإنهما يطمسان البصير ويستسقطان الحبل) .

وفي البخاري رواية أخرى قال عبد الله هو ابن عمر فبينما أنا أطارد حية لأقتلها فناداني أبو لبابة لا تقتلها فقلت إن رسول الله ﷺ قد أمر بقتل الحيات قال إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت وهن العوامر . . الخ .

وروي في البخاري عن ابن عباس أنه قال : الثعبان الحية الذكر منها .

يقال الحيات أجناس الجان والأفاعي والأساود .

قال العلقمي : الجان هو الرقيق من الحيات وقيل هي الحية الصغيرة .

أقول ذكروا في قوله عز وجل في عصا موسى (كأنها جان) . (فإذا هي حية تسعى) . (فإذا هي ثعبان مبين) . فهي جان أي حية صغيرة في أول الحال ثم عظمت فصارت حية ثم عظمت فصارت ثعبانا مبينا .

قال ابن حجر : قيل اختلف وصفها باختلاف أحوالها فكانت كالحية في سعيها وكالجان في حركتها وكالثعبان في ابتلاعها .

والأفاعي جمع أفعى وهي الأنثى من الحيات والذكر منها أُفعوان بضم الهمزة والعين وكنية الأفعوان أبو حيان وأبو يحيى لأنه يعيش ألف سنة وهو الشجاع الأسود الذي يواثب الانسان .

ومن صفة الأفعى إذا فُقئت عينها عادت ولا تغمض حدقتها البتة .

والأساود جمع أسود قال أبو عبيد : هي حية فيها سواد وهي أخبث الحيات ، ويقال له أسود سالخ لأنه يسلخ جلده كل عام .

وفي سنن أبي داود والنسائي عن ابن عمر : مرفوعا (أعوذ بالله من أسد وأسود) وقيل هي حية رقشاء رصفة العنق عريضة الرأس وربما كانت ذوات قرنين والهاء في الحية للوحدة كدجاجة وقد عدَّ لها ابن خالويه في كتاب (ليس) نحو سبعين اسما .

وقوله (اقتلوا ذا الطفيتين) قال ابن حجر : تثنية طفية ـ بضم الطاء المهملة وسكون الفاء ـ وهي خوصة المقل والطفي خوص المقل شبه به الخط الذي على ظهر الحية .

وقال ابن عبد البر : يقال إن ذا الطفيتين جنس من الحيات يكون على ظهره خطان أبيضان .

قال : والأبتر هو مقطوع الذنب ، زاد النضر بن شميل أنه أزرق اللون لا تنظر إليه حامل إلا ألقت .

وقيل الأبتر الحية القصيرة الذنب .

قال الداودي : هو الأفعى التي تكون قدر شبر أو أكثر قليلا الخ .

قال في قوله (فإنهما يطمسان البصر) أى يمحوان نوره .

وقال في قوله (ويسقطان الحبل) هو بفتح الموحدة الجنين إلى أن قال في قوله (طارد) أى اتبع واطلب .

قال في قوله فناداني أبو لبابة بضم اللام وبموحدتين صحابي مشهور اسمه بشير إلى أن قال في قوله (إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت) أى اللاتي يوجدن في البيوث .

وظاهره التعميم في جميع البيوت . وعن مالك تخصيصه لبيوت أهل المدينة .

وقيل تختص ببيوت المدن دون غيرها .

وعلى كل قول فتقتل في البراري والصحاري من غير إنذار .

وروي الترمذي عن المبارك : أنها الحية التي تكون كأنها فضة ولا تلتوي في مشيها .

وقال في قوله (وهي العواء) وكلام الزهري أدرج في الخبر إلى أن قال :

قال أهل اللغة : (عمّار البيوت) سكانها من الجن وتسميتهن عوامر

لطـول اللبث في البيـوت مأخـوذ من العمر وهو طول البقاء . وإنما نهى عن قتلها لأن الجن تتمثل بها ، ومن ثم أمر بقتل ذي الطفيتين والأبتر لأن الجن لا تتمثل بهما . . الخ .

قال ابن حجر : وعند مسلم من حديث أبي سعيد مرفوعا (إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئا فخرجوا عليه ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه) .

واختلف في المراد بالثلاث فقيل ثلاث مرات وقيل ثلاثة أيام .

ومعنى قوله (خرجوا عليهن) أن يقال أنتن في ضيق وحرج إن لبثت عندنا أو ظهرت لنا أو عدت إلينا .

قال العلقمي : في المراد بالثلاث والجمهور على الثاني ويدل له خبر مسلم عن أبي سعيـد أن فتى دخـل بيتـه فإذا بحيـة عظيمـة مطـويـة على الفـراش فأهـوى إليهـا بالـرمـح فانتظمهـا به ثم خرج به فركـزه في الـدار فاضطـربت وخـر الفتى ميتـا فما ندري كان أيهـما أسرع موتا الحية أم الفتى فجئنـا إلى النبي ﷺ وأخـبرنـاه بذلك فقال (استغفروا لصاحبكم) ثم قال (إن بالمـدينـة جنـا قد أسلمـوا فإذا رأيتم منهم شيئا فأذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان) .

قال قولـه (خـرجوا عليهن) معناه أن يقال لهن (انت في ضيق وحرج إن لبثت عنـدنـا أو ظهـرت لنـا أو عدت إلينـا إنا نسألك بعهد نوح وبعهد سليمان بن داود أن لا تبدو لنا ولا تبدونا الخ) .

فذكر الخلاف هل هذا عام في كل بلد أو خاص ببيوت المدينة ثم قال : وعند الحنفية ينبغي أن لا تقتل الحية البيضاء لأنها من الجن .

وقال الطحاوي لا بأس بقتل الجميع بعد الانذار الخ . فذكر أن النبي ﷺ قال : (إن الله يحب البصير الناقد عند مجيء الشبهات والعقل الكامل عند نزول الشهوات ويحب السماحة ولو على تمرات ويحب الشجاعة ولو على قتل حية . . الخ) .

فذكر الخلاف في الأمر بقتل الحيات هل هو للاستحباب وللإرشاد ثم قال نعم ما كان منها محقق الضرر وجب دفعه . وفيه نظر وسيأتي تحقيقه في خمس من الفواسق .

أقول : وظاهر رواية المصنف رحمه الله أن الأمر للوجوب إذا ذكرتهن خوف الثأر .

وظاهره أيضا العموم في كل حية في أي موضع كانت من غير إنذار . فإن صحت رواية البخاري وغيره قيِّد بها بعد الانذار في البيوت وهو الأحوط . والله أعلم .

قوله (فإنا ما سالمناهن منذ حاربناهن) السلم بفتح السين وكسرها الصلح ، والحرب العداوة ، ما صالحناهن منذ عاديناهن .

والظاهر أن المراد بالمحاربة التي بيننا وبين الحيات العداوة التي بينها

وبين آدم وحواء عليهما السلام لأنها هي التي أدخلت إبليس إلى الجنة حتى صدر منه ما صدر وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) لأن الخطاب لآدم وحواء وإبليس والحية .

قولـه (فمن تركهن خشيـة الثأر فقـد كفـر) الـرواية في الجامع (فمن خاف ثأرهن فليس منـا) قال العلقمي : ثأرهن بالمثلثـة وسكـون الهمزة أى من خاف إذا قتلهن أن يطلب بثأرهن ويقتل بقتلهن .

ويحتمـــل أن يقـال من خاف إذا هاش على الحيـات وأراد قتلهـا أن تطلبه وترتفع عليه لتلدغه بسمها فيموت من لدغها .

ثم قال في قوله (فليس منا) أى ليس عاملا بسنتنا ولا مقتديا بنا .

وقـال ﷺ (من خرج من بيتـه فرأى ما يكـرهه فرجع تطيرا من أجله رجع كافرا) .

قولـه (فـرجع تطيرا من أجله) قال ابن حجر : الطيرة بكسر المهملة وفتـح التحتـانيـة وقـد تسكن وهي التشـاؤم بالشيء إلى آخـر ما تقدم عن العلقمي في قولـه (ومن تطـير فلا يرجـع) قال ابن حجر وأصل التطير أنهم كانـوا في الجـاهليـة يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم فإن رآى الطير طار عن يمينـه تيمن به واستمـر وإن طار يسرة تشاءم به ورجع . وربما كان أحدهم يهيج الطير لتطير فيعتمدها فجاء الشرع بالنهي عن ذلك .

وكانوا يسمونه السانح بمهملة ثم نون ثم حاء والبارح بموحدة وآخره مهملة فالسانح ما والاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك ، والبارح بالعكس وكانوا يتيمنون بالسانح ويتشائمون بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا أن ينحرف إليه .

وليس في شيء من سنوح الطير وبروحه ما يقتضى ما اعتقدوه وإنما هو تكلف بتعاطى ما لا أصل له إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله .

وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويمتدح بتركه الخ فذكر الشعراء في ذلك أبياتا منها :

الزجر والطير والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أفعال

(ومنها)

وما عاجلات الطير تدني من الفتى نجاحا ولا عن غيبهن قصور

(ومنها)

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

إلى أن قال : وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ويصيح معهم غالبا لتزيين الشيطان ذلك وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين .

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه من حديث أنس رفعه (لا طيرة والطيرة على من تطير) إلى أن قال عن النبي ﷺ (ثلاثة لا يسلم منهن

أحد الطيرة والظن والحسد) فذكر المخرج منها كما تقدم . ثم قال عن أبي هريرة رفعه (إذا تطيرتم فامضوا وعلي فتوكلوا) ، ثم قال : عن أبي الدرداء رفعه (لن ينال الدرجات العلى من تكهن أواستقسم أورجع من سفر تطيرا) إلى أن قال : عن ابن مسعود رفعه (الطيرة شرك وما منا إلا . . ولكن الله يذهبه بالتوكل) .

وقوله (وما منا إلا) من كلام ابن مسعود أدرجه في الخبر إلى أن قال : وإنما جعل ذلك شركا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعا أويدفع ضررا فكأنهم أشركوه مع الله تعالى .

وقوله (ولكن الله يذهبه بالتوكل) إشارة إلى أن من وقع له ذلك فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة فإنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك .

وأخرج البيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن عمر موقوفا (من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك) .

وقال ﷺ : (إذا قال رجل لرجل أنت عدوى فقد كفر أحدهما) .

قوله (وإذا قال رجل لرجل أنت عدوى فقد كفر أحدهما) لفظه في البخاري بعد ذكر الإسناد أن رسول الله ﷺ قال : (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما) .

وفي روايـة أخـرى عن أبي ذر أنـه : سمع النبي ﷺ يقول (لا يرمي رجل رجلا بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك) .

قال ابن حجر : وهذا يقتضي أن من قال لآخر أنت فاسق أو قال له أنت كافر فإن كان ليس كما قال كان هو المستحق للوصف المذكور ، وأنه إذا كان كما قال لم يرجع عليـه شيء لكونه صدق فيما قال ، ولكن لا يلزم من كونـه لا يصـير بذلـك فاسقـا ولا كافرا أن لا يكون آثما في صورة قوله (أنت فاسق) بل في هذه الصورة تفصيل :

إن قصـد نصحـه أو نصـح غيره ببيـان حاله جاز ، وان قصد تعييره وشهـرتـه بذلـك ومحض أذاه لم يجز لأنه مأمور بالستر عليه وتعليمه وموعظته بالحسنى فمهما أمكنه ذلك بالرفق لا يجوز له أن يفعله بالعنف لأنه قد يكون سببـا لإغـرائـه وإصـراره على ذلـك الفعل كما في طبع كثير من الناس من الأنفة لا سيما إن كان الآمر دون المأمور في المنزلة . . الخ .

ثم لما كان الكفـر عنـدهم خاصـا بالشـرك اختـار في تأويـل هذه الأحاديث المصرحة بكفر الموحد فقال قال النووي : اختلف في تأويل هذا الرجوع :

فقيـل : رجـع عليـه الكفـر إن كان مسـتحـلا وهذا بعيد من سياق الخبر . وقيل محمول على الخوارج لأنهم يكفرون المؤمنين .

هكــذا نقله عيــاض عن مالـك وهـو ضعيف لأن الصحيـح عنـد الأكثرين أن الخوارج لا يكفرون ببدعتهم إلى أن قال :

والتحقيق أن الحـديث سيق لزجـر المسلم عن أن يقـول ذلك لأخيه المسلم . وذلك قبل وجود فرقة الخوارج وغيرهم .

وقيـل معنـاه رجعت عليـه نقيصتـه لأخيه ومعصية تكفيره ، وهذا لا بأس به وقد يخشى عليه أن يئول به ذلك إلى الكفر إلى أن قال :

وقال القرطبي : حيث جاء الكفر في لسان الشرع فهو جحد المعلوم من دين الإسـلام بالضـرورة الشـرعيـة . وقد ورد الكفر في الشرع بمعنى جحد النعم وترك شكر المنعم والقيام بحقه كما تقدم تقريره في كتاب الإيمان في باب (كفر دون كفر) في حديث أبي سعيد (يكفرن الاحسان ويكفرن العشير) .

قال : قوله (باء بها أحدهما) أي رجع بإثمها ولازم ذلك .

وأصل البوء اللزوم ومنه (أبوء بنعمتك) أي ألزمها نفسي وأقرّ بها

قال والهـاء في قولـه بها راجـع إلى التكفـيرة الواحدة التى هي قلَّ ما يدل عليها لفظ كافر ويحتمـل أن يعود إلى الكلمة .

والحـاصـل أن المقـول له إن كان كافرا كفرا شرعيا فقد صدق القائل وذهب بها المقول وإن لم يكن رجعت للقائل معرة ذلك القول وإثمه .

هكذا اقتصر على هذا التأويل في (رجع) وهو من أعدل الأجوبة .

وقد أخرج أبو داود عن أبي الدرداء بسند جيد رفعه (إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتأخذ يمنة ويسرة فإن لم تجد مساغا رجعت إلى الذي لعن فإن كان أهلا وإلا رجعت إلى قائلها . . الخ) .

وقال ﷺ (يقول ربنا تبارك وتعالى أنا برىء ممن تطير وتكهن أو تكهن له أو تسحر أو تسحر له) .

قوله (أنا برىء ممن تطير وتكهن أو تكهن له) قد تقدم الكلام على التطير والكهانة بما فيه كفاية .

قوله (تسحر أو تسحر له) هكذا فيما رأيته من النسخ بالتاء وليس بمناسب هنا لأنه إنما يكون للصائم ومنه الحديث (تسحروا فإن في السحور البركة) والمناسب إنما هو سحر أو سحر له . يعني -والله أعلم- أنه برىء ممن فعل السحر وممن فعل لأجله بأن يكون طالبا له والله أعلم .

ولم أر هذا الحديث في البخاري وإنما ذكره غيره وهو حديث كيفية سحره ﷺ ولفظه عن عائشة قالت : سحر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله حتى كان ذات يوم دعى ودعى ثم قال : أشعرت أن الله أفتلنى فيما فيه شفاى أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب

قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم أي مسحور قال : فيما ذا ؟ قال : في مشط ومشاقه وجف طلعة ذكر قال : فأين هو؟ قال : في بير ذروان فخرج إليها النبي ﷺ ثم رجع فقال : لعائشة حين رجع نخلها كأنه رءوس الشياطين فقلت : استخرجته فقال : لا أما أنا فقد شفاني الله وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرا ، ثم دفنت البئر .

وكتب عليه الشارح ما يطول ذكره وسأذكر منه شيئا .

وأما حديث المصنف فرواه في الجامع الصغير ولفظه (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له) ولم يكتب عليه شارحه شيئا .

قال ابن حجر : في شرح حديث البخاري قال : الراغب وغيره السحر يطلق على معان :

أحدها : ما لطف ودق ومنه سحرت الصبي خدعته واستملته فكل من استمال شيئا فقد سحره ، ومنه اطلاق السحر على سحر العيون لاستمالتها النفوس ، ومنه قول الأطباء (الطبيعة ساحرة) ومنه قوله تعالى (بل نحن قوم مسحورون) أي مصرفون عن المعرفة . ومنه حديث (إن من البيان لسحرا) وسيأتي قريبا في باب مفرد .

الثاني : ما يقع بخداع وتخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ

من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وقوله تعالى (سحروا أعين الناس) ومن هناك سموا موسى ساحرا ، وقد يستعين في ذلك بما يكون فيه خاصية كالحجر الذي يجلب الحديد المسمى المغناطيس .

الثالث : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) .

الرابع : ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانيتها بزعمهم .

قال ابن حزم : ومنه ما يوجد من الطلسمات كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب في وقت كون القمر في العقرب فينفع إمساكه من لدغة العقرب ، وكالمشاهد ببعض بلاد المغرب وهي سرقسطه بأنه لا يدخلها ثعبان قط إلا إن كان بغير إرادته .

وقد يجمع بعضهم بين الأمرين بزعمهم إلى أن قال : ثم السحر يطلق ويراد به الآلة التي يسحر بها ، ويطلق ويراد به فعل الساحر ، والآلة تارة تكون معنى من المعاني فقط كالرقاء والنفث في العقد ، وتارة تكون بالمحسوسات كتصوير صورة على صورة المسحور ، وتارة يجمع بين الأمرين بالحسى والمعنى وهو أبلغ .

واختلف في السحر فقيل : هو تخييل ولا حقيقة له وهذا اختيار أبى جعفر الاستر باذي من الشافعية وأبي بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري وطائفة .

قال النووي : والصحيح أنه حقيقة وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة .

لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا ؟ فمن قال إنه تخييل منع ذلك فقط ومن قال له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعا من الأمراض أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيوانا مثلا وعكسه ؟

فالذي عليه الجمهور هو الأول وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني .

فإن كان بالقدرة الالهية فمسلم وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف فإن كثيرا ممن يدعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه .

ونقل الخطابي أن قوما أنكروا السحر مطلقا وكأنه عنى القائلين بأنه تخييل فقط وإلا فهى مكابرة .

قال المازرى : جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة .

ونفي بعضهم حقيته وأضاف أن ما يقع منه إلى خيالات باطلة وهو

مردود لورود النقل بإثبات السحر ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو مزج بين قوي على ترتيب مخصوص .

ونظير ذلك ما يقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعا .

وقيل لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى في قوله تعالى (يفرقون به بين المرء وزوجه) لكون المقام مقام تهويل فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره .

قال : والآية ليست نصا في منع الزيادة ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك .

ثم قال : والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة ، أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد . والكرامة لا تحتاج إلى ذلك بل إنما تقع غالبا اتفاقا . وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدي .

ونقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق وأن الكرامة لا تظهر على فاسق إلى أن قال :

وينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه فإن كان متمسكا بالشريعة مجتنبا للموبقات فالذي يظهر على يده من الخوارق كرامة وإلا فهو سحر لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين .

وقال القرطبي : السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس . ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأقواه وأكثره تخيلات بغير حقيقة ، وابهامات بغير ثبوت فيعظم عند من لا يعرف ذلك كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون (وجاءوا بسحر عظيم) مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالا وعصيا ثم قال :

والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرا في القلوب ، كالحب والبغض والقاء الخير والشر ، وفي الأبدان بالألم والسقم وإنما المنكر أن الجماد ينقلب حيوانا وعكسه بسحر الساحر ونحو ذلك. . الخ .فتكلم على قوله تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين) الآية بما يطول ذكره إلى أن قال :

وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر أي شرك ومتعلمه كافر وهو واضح في بعض أنواعه التي قدمتها وهو التعبد للشياطين أو الكواكب .

وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة فلا يكفر من تعلمها أصلا .

قال النووي : عمل السحر حرام . وهو من الكبائر بالاجماع . وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات ومنه ما يكون كفرا . ومنه ما لا يكون كفرا بل معصية كبيرة . فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلا فلا .

وأما تعلمه وتعليمه فحرام ، فإن كان فيه ما يقتضي الكفر كفر واستتيب منه ولا يقتل فإن تاب قبلت توبته . وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر .

وعن مالك : الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق .

قال عياض ويقول مالك : قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين . إلى أن قال :

وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأحد أمرين إما لتمييز ما فيه كفر من غيره وإما لإزالته عمن وقع فيه :

أما الأول : فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا يستلزم منعا كمن يعرف عبادة أهل الأوثان ـ إلى أن قال ـ بخلاف تعاطيه والعمل به .

وأما الثاني : فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلا والاجاز للمعنى المذكور إلى أن قال :

وفي ايراد المصنف يعنى البخاري هذه الآية إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون

الناس السحر) فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر .

وكذا قوله في الآية على لسان الملكين (إنما نحن فتنة فلا تكفر) فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفرا . وهذا كله واضح على ما قررته من العمل ببعض أنواعه .

وقد زعم بعضهم أن السحر لا يصح إلا بذلك وعلى هذا فتسمية ما عدا ذلك سحرا مجاز كإطلاق السحر على القول البليغ إلى أن قال في قوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل ، ولا حجة له منها لأن هذه وردت في قصة سحرة فرعون وكان سحرهم كذلك ، ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل .

قال أبو بكر الرازي في الأحكام : أخبر الله تعالى أن الذي ظنه موسى من أنها تسعى لم يكن سعيا وإنما كان تخييلا ، وذلك أن عصيهم كانت مجوفة قد ملئت زئبقا ، وكذلك الحبال كانت من أدم محشوة زئبقا وقد حفروا قبل ذلك أسرابا وجعلوا لها إزاجا وملئوها نارا فلما طرحت على ذلك الموضع وحمى الزئبق حركها لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير فلما أثقلته كثافة الحبال والعصى صار يتحرك بحركته فظن من ورائها أنها تسعى .

ثم قال بعد ذلك بكلام طويل يتعلق بشرح حديث سحر النبي ﷺ

ما نصـه : تكميـل : قال ابن القيم من أنفـع الأدويـة وأقوى ما يؤخذ من النشرة مقاومة السحر الذي هو من تأثير الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من الـذكـر والـدعاء والقراءة . فالقلب إذا كان ممتلئا من الله معمورا بذكره وله ورد من الـذكـر والتـوجه لا يخل به كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له .

قال : وسلطـان تأثـير السحـر هو في القلوب الضعيفة وهذا غالبا ما يؤثر في النساء والصبيان والجهال لأن الأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها انتهى ملخصا .

ويعكـر عليـه حديث البـاب وجواز السحر على النبي ﷺ مع عظم مقامه وصدق توجهه وملازمة ورده ، ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذي ذكره محمول على الغالب وأن ما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك والله أعلم .

وقـال ﷺ (من أتي رجـلا شهـوة من دون النسـاء أو أتى النسـاء في أعجازهن فقد كفر) .

قوله (من أتي رجلا شهوة من دون النساء أو أتي النساء في أعجازهن فقـد كفـر) لم أظفر بلفظ هذا الحديث في البخاري ولا في الجامع وإنما روى حديثا آخر لفظه (من أتي كاهنا فصدقه بما يقول أو أتي امرأة حائضا أو أتي امرأة في دبرها فقد بريء مما أنزل على محمد) .

قال العلقمي : والمراد بالمنزل الكتاب والسنة أي من ارتكب الكهانة فقد برىء من دين محمد ﷺ وما أنزل عليه إلى أن قال : وقال في النهاية من أتي حائضا فقد كفر أى كفر النعمة .

أقول : وكذلك المراد بالكفر في جميع ما رواه المصنف رحمه الله وليس المراد به كفر الشرك ما لم يكن الفاعل مستحلا كما هو معلوم .

وقال ﷺ (من ادعى غير أبيه أوتولى غير مواليه فالجنة عليه حرام ، وعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل) قال الربيع : يعني فريضة ولا نافلة .

قوله : (من ادعى غير أبيه أوتولى غير مواليه . . الخ) لفظه في الجامع (من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة وفي لفظ آخر (من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام) .

وفي البخاري من حديث فيه طول (ومن والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل وذمة المسلمين واحدة . . الخ) .

وفيه حديث آخر عن سعد قال : سمعت النبي ﷺ يقول (من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام) فذكرته لأبى بكرة فقال : وأنا سمعته أذناى ووعاه قلبى من رسول الله ﷺ .

وفيـه حديث آخـر عن أبى ذر رضي الله عليـه أنـه سمـع النبي ﷺ يقول (ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر بالله ومن ادعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار) .

وفيه حديث آخر قال رسول الله ﷺ (إن من أعظم الفرى أن يدعي الرجل غير أبيه أو يرى عينه ما لم تر ، ويقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل) .

وفيه حديث (لا ترغبوا عن أبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر) وفي رواية (فقد كفر) وفي رواية (فهو كفر بربكم) .

قال العلقمي : قولـه (ادعى) أي انتسب ، ثم قال النـووي : هذا صريح في غلظ تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه وانتهاء العتيق إلى ولاء غير مواليه لما فيه من كفر النعمة وتضييع حقوق الإرث والولاء والعقل وغير ذلك مع ما فيه من قطيعة الرحم والعقوق .

قال ابن حجـر : وفي الحـديث تحريم الانتفـاء من النسب المعـروف والادعـاء إلى غيره وقـد قيـد في الحديث بالعلم ولابد منه في الحالتين إثباتا ونفيا لأن الإثم إنما يترتب على العلم بالشيء المتعمد له .

وفيه جواز إطلاق الكفر على المعاصي لقصد الزجر كما قررناه .

ويـؤخـذ من روايـة مسلم تحريم الـدعوى بشيء ليس هو للمدعي

فيدخل فيه الدعاوى الباطلة كلها مالا وعلما وتعلما ونسبا وحالا وصلاحا ونعمة وولاء وغير ذلك ، ويزاد التحريم بزيادة المفسدة المترتبة على ذلك .

قوله (يعني فريضة ولا نافلة) ذكر فيه في السؤالات خمسة أوجه حيث قال : في قوله (لا يقبل منه صرفا ولا عدلا) فيه خمس تأويلات .

الصرف العمل والعدل الفدية (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) قاله الحسن البصري .

والثاني : أن الصرف الدية والعدل رجل مكانه قاله الكلبي محمد بن السائب .

والثالث : أن الصرف التطوع والعدل الفريضة قاله الأصمعي عبد الملك بن قريب .

والرابع : أن الصرف الفريضة والعدل النافلة قاله أبوعمر والربيع بن حبيب رحمه الله .

والخامس : أن الصرف الحيلة والعدل الفدية قاله أبوعبيدة معمر بن المثني . ويجوز أن يكون العدل هو الدفع .

وذكر ابن حجر فيه نحو ثلاثة عشر قولا حيث قال : واختلف فى تفسيرهما .

فعنـد الجمهـور الصـرف الفريضة والعدل النافلة ورواه ابن خزيمة بإسناد صحيح عن الثوري وعن الحسن البصري بالعكس .

وعن الأصمعي الصرف التوبة والعدل الفدية .

وعن يونس مثله لكن قال : الصرف الاكتساب .

وعن أبى عبيدة مثله لكن قال : العدل الحيلة وقيل المثل .

وقيل الصرف الدية والعدل الزيادة عليها وقيل بالعكس .

وحكى صاحب المحكم الصرف الوزن والعدل الكيل .

وقيل الصرف القيمة والعدل الاستقامة .

وقيل الصرف الدية والعدل البديل .

وقيل الصرف الشفاعة والعدل الفدية لأنها تعادل الدية وبهذا الأخير جزم البيضاوى .

وقيل الصرف الرشوة والعدل الكفيل الخ .

وقال ﷺ (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب

أليم أشمط زان ومفلس مرح مختال ورجل اتخذ الله بضاعة لا يشتري ولا يبيع إلا باليمين) قال الربيع الأشمط ذو الشيب .

قوله (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . . الخ) ذكر في الجامع من هذا أحاديث متعددة .

قال العلقمي : ومعنى لا ينظر إليهم يعرض عنهم ومعنى نظره لعباده رحمته لهم ولطفه بهم .

أقول : فعلى هذا يكون معنى (لا ينظر إليهم) لا يرحمهم ولا يلطف بهم .

قال : ومعنى (لا يزكيهم) لا يطهرهم من الذنوب ، وقيل : لا يثنى عليهم .

قوله (أشمط زان الخ) في بعض روايات الجامع (شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر) .

قال العلقمي : قال شيخنا : قال القاضي عياض : خُص المذكورون بالوعيد لأن كلا منهم التزم المعصية مع عدم ضرورته إليها وضعف داعيها عنده فأشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله وقصد معصيته لا لحاجة غيرها .

فإن الشيخ ضعفت شهوته عن الوطء الحلال فكيف بالحرام وكمل عقله ومعرفته لطول ما مر عليه من الزمان وإنما يدعو إلى الزنا غلبة الحرارة وقلة المعرفة وضعف العقل الحاصل كل ذلك في زمن الشباب .

والامام لا يخشى من أحد وإنما يحتاج إلى الكذب من يريد مصانعة من يخدعه .

والعائل قد عدم المال الذي هو سبب الفخر والخيلاء فلماذا يستكبر ويحقر غيره .

قوله (ومفلس مرح مختال) في بعض روايات الجامع (وعائل مستكبر) وفي بعضها (وفقير مختال مزهو) والمعنى كله واحد أو متقارب .

ومفلس اسم فاعل من أفلس ، وقال في الصحاح : وقد أفلس الرجل صار مفلسا كأنما صارت دراهمه فلوسا وزيوفا ، كما يقال أخبث الرجل إذا صار أصحابه خبثاء وأقطف صارت دابته قطوفا .

ويجوز أن يراد به أنه صار إلى حال يقال فيها ليس معه فلس ، كما يقال قهر الرجل صار إلى حال يقهر عليها ، وأذل الرجل صار إلى حال يذل فيها . وقد فلسه القاضي تفليسا نادى عليه أنه أفلس .

ومرح بكسر الراء اسم فاعل من مرح بكسر الراء مصدره المرح بفتح الراء .

قال في الصحاح : المرح شدة الفرح والنشاط وقد مرح بالكسر فهو مرح الخ .

(ومختال) قال العلقمي في قول الجامع : (وفقير مختال مزهو) قال في الدر : الختل الخداع والمراوغة وفي النهاية يقال ختله إذا خدعه وراوغه .

والزهاء بالمد والزهو الكبر والفخر ومنه العائل المزهو يقال زهى بالبناء للمفعول فهو مزهو قاله في الدر وزاد فى النهاية .

هكذا يتكلم به على سبيل المفعول كما يقولون عنى بالأمر ونتجت الناقة وإن كان بمعنى الفاعل والمراد بالحديث هنا الكبر والفخر .

قوله (ورجل اتخذ الله بضاعة لا يشتري ولا يبيع إلا بيمينه) هذه الرواية لم يكتب عليها العلقمي شارح الجامع شيئا وإنما كتب على رواية أخرى لفظها (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلا سلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه منها وفى وإن لم يعطه منها لم يوف) وهذه رواية البخاري ورواية صاحب الوضع رحمه الله إلا أن روايتهما تخالف رواية الجامع في تأخير قوله (ورجل بايع رجلا سلعة الخ) عن قوله (ورجل بايع إماما الخ) وفي قوله (لأخذها) فإن روايتهما لقد أعطى فيها كذا وكذا .

وكتب عليه ابن حجر : ما يطول ذكره وذكر فيه روايات وأحاديث متعددة إلى أن قال : ويجتمع من مجموع هذه الأحاديث تسع خصال ويحتمل أن تبلغ عشرا لأن المنفق سلعته بالحلف الكاذب مغاير للذي حلف لقد أعطي بها كذا لأن هذا خاص بمن يكذب في أخبار الشراء ، والذي قبله أعم منه فيكون خصلة أخرى الخ .

أقول : والذي يتحصل مما ذكره في الجامع فيمن لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم نحو تسعة عشر صنفا : وهم المسبل إزاره خيلاء ، والمنان الذي لا يعطي شيئا إلا منة ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقطع بها مال امرىء مسلم ، ورجل بايع رجلا سلعة بعد العصر فحلف له بالله لقد أعطي له فيها كذا وكذا الخ ، ورجل حلف على سلعته لقد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ، ورجل منع فضل مائه ، ورجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا الخ وشيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر ، والعاق لوالديه ، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث ومدمن الخمر ، وحر باع حرا ، وحر باع نفسه ، ورجل أبطل كراء أجير حين جف رشحه .

وأما قوله (ورجل جعل الله بضاعته الخ) فيغني عنه قوله (والمنفق سلعته بالحلف الكاذب) .

وكتب ابن حجر على الحديث الذي فيه تقييد الحلف بها بعد العصر

كحديث صاحب الوضع ما نصه : وخص بعد العصر بالحلف لشرفه بسبب اجتماع ملائكة الليل والنهار وغير ذلك إلى أن قال :

قال الخطابي : خص وقت العصر بتعظيم الإثم فيه وإن كانت اليمين الفاجرة محرمة في كل وقت ، لأن الله عظم شأن هذا الوقت بأن جعل الملائكة تجتمع فيه وهو وقت ختام الأعمال والأمور بخواتيمها فغلظت العقوبة لئلا يقدم عليها تجرؤا فإن من تجرأ عليها فيه اعتادها في غيره وكان السلف يحلفون بعد العصر وجاء ذلك في الحديث أيضا .

وفي الحديث وعيد شديد في نكث البيعة والخروج على الإمام الخ .

قوله (ورجل اتخذ الله بضاعة الخ) المراد بهذا المنفق سلعته فهو متحد في الماصدق مع قوله في بعض الروايات (والمنفق سلعته بالحلف الكاذب) .

وقال ﷺ (لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت والنار أولى به) .

قوله (نبت من سحت) السحت بضم السين وسكون الحاء وضمها الحرام كما في الصحاح .

قوله (من انتهب فليس منا) في بعض روايات الجامع أن النهبة لا تحل .

قال العلقمي : سببه كما في ابن ماجة عن ثعلبه بن الحكم قال :

أصبنـا غنـما للعدو فانتهبناها فنصبنا قدورنا فأمر النبي ﷺ بالقدور فأكفئت ثم قال (ان النهبة . . فذكره) .

قال في المصباح نهبتـه نهبـا من باب نفع وانتهبته انتهابا والنهبة وزان غرفه والنهبا بالألف اسم للمنهوب ويتعدى بالهمزة إلى ثانى فيقال انتهبت زيـدا المـال ويقـال أيضـا أنهبت المال إنهابا إذا جعلته نهبا يغار عليه . وهذا زمان النهب أي الانتهاب وهو الغلبة على المال والقهر .

وقـال الـدمـيري : قال الخطابي : النهبى بضم النون وسكون الهاء اسم مبني على فعلى من النهب كالرغبى من الرغبة .

وإنـما نهى عن النهب لأن النـاهب إنـما يأخذ ما يأخذ على قدر قوته لا على قدر استحقـاقـه فيـؤدي ذلـك إلى أن يأخـذ بعضهم فوق حظـه ويبخس بعضهم حقـه وإنـما لهم سهام معلومة للفرس سهمان وللرجل منهم سهم فإذا انتهبوا الغنيمة بطلت القسمة وعدم التسوية .

ويستثنى من ذلك انتهاب النثار في العرس لما روي البيهقى عن جابر أن النبي ﷺ حضـر في إمـلاك فأوتى بأطبـاق عليهـا جوز ولـوز وتمـر فنثرت فقبضنـا أيـدينـا فقال : مالكم لا تأكلوا ؟ قالوا إنك نهيت عن النهب فقال (إنما نهيتكم عن نهبي العساكر خذوا على اسم الله) قال فجاذبنا وجاذبناه .

وقـال ﷺ (ثـلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة المنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره الذي يجره خيلاء والمنان) .

قوله المنفق سلعته قال العلقمي : قال شيخنا بالتشديد أى للفاء من النفاق وهو ضد الكساد يقال نفقت السلعة فهى نافقة وأنفقتها إذا جعلتها نافقة .

قوله (بالحلف) بكسر اللام وإسكانها . الفاجر أي الكاذب .

قوله (والمسبل إزاره يجره خيلاء) قال العلقمي : في قوله (المسبل إزاره) المرخي له الجار طرفيه خيلاء فهو مخصوص بالحديث الآخر (لا ينظر الله إلى من جرَّ ثوبه خيلاء .

وقد رخص ﷺ في ذلك لأبى بكر حيث كان جره لغير خيلاء .

قال ابن جرير : وخص ذكر الإزار لأنه عامة لباسهم وحكم غيره من القميص ونحوه حكمه .

وقال أيضا : هو الذي يطيل ثوبه ويرسله إلى الأرض إذا مشى وإنما يفعل ذلك كبرا واختيالا .

قوله (والمنان) الرواية في الجامع والمنان الذي لا يعطي شيئا إلا منة .

قال العلقمي : أي واعتد به على من أعطاه . قال شيخنا :
قال الخطابي : وفيه وجه آخر أن يراد بالمن النقص من الحق والخيانة

في الوزن والكيل ونحوهما ومنه (وإن لك لأجرا غير ممنون) أي غير منقوص .

وقال ﷺ (من غشنا فليس منا ومن لم يؤثرنا فليس منا ومن أحدث فى الإسلام حدثا أو أوي محدثا فليس منا ومن لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا فليس منا) قال الربيع : قيل معنى هذا كله البراءة منه .

قوله (من غشنا فليس منا) تقدم الكلام عليه في كتاب البيوع في باب الربا والانفساخ والغش .

قوله (ومن لم يؤثرنا فليس منا) من الإيثار وهو الاختيار ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف (لقد آثرك الله علينا) .

قال البيضاوي : اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة .

وقال في الصحاح وأثرت فلانا على نفسي من الإيثار .

قوله (ومن أحدث في الإسلام حدثا أو أوي محدثا فليس منا) لم أظفر بلفظ هذا الحديث في الجامع ولا في البخاري وإنما فيهما ما هو بمعناه وهو قوله (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) .

وروي أيضا مثله صاحب السؤالات رحمه الله ولفظه (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) ورواه في الجامع أيضا .

قال العلقمي في شرح الحديث الأول : قال شيخ شيوخنا : هذا الحديث معدود من أصول الاسلام وقاعدة من قواعده فإن معناه من اخترع في الدين مالا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه .

قال النووي : هذا الحديث مما ينبغي تحفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به لذلك .

وقال الطوفي : هذا الحديث يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع لأن الدليل يتركب من مقدمتين ، والمطلوب بالدليل إما إثبات حكم أو نفيه وهذا الحديث مقدمة كبرى في إثبات كل حكم شرعي ونفيه لأن منطوقه مقدمة كلية في كل دليل ناف لحكم مثلا أن يقال في الوضوء بماء نجس (ليس هذا من أمر الشرع ، وكل ما كان كذلك فهو مردود فهذا العمل مردود) فالمقدمة الثانية ثابتة بهذا الحديث .

وإنما يقع النزاع في الأولى ، ومفهومه أن من عمل عملا عليه أمر الشرع فهو صحيح مثل أن يقال في الوضوء بالنية هذا عليه أمر الشرع وكل ما عليه أمر الشرع فهو صحيح فالمقدمة الثانية ثابتة بهذا الحديث والأولى فيها النزاع فلو اتفق أن يوجد حديث يكون مقدمة أولى في إثبات كل حكم شرعي ونفيه لاستقل الحديثان بجمع أدلة الشرع لكن هذا الثاني لا يوجد فإذا حديث الباب نصف أدلة الشرع .

وقوله (رد) معناه مردود من إطلاق المصدر على اسم المفعول مثل خلق ومخلوق ونسج ومنسوج فكأنه قال فهو باطل غير معتد به .

واللفـظ الثـاني وهـو قولـه (من عمل أعـم من اللفظ الأول وهو قوله (من أحـدث) فيحتـج به في إبطـال جميـع العقود المنهية وعدم وجود ثمراتها المترتبة عليها .

وفيه رد المحدثات إلى أن قال لأن المنهيات كلها ليست من أمر الدين فيجب ردها .

ويستفـاد منـه أن حكم الحاكم لا يغير ما في باطن الأمر لقوله (ليس عليه أمرنا) والمراد به أمر الدين .

وفيه أن الصلح الفاسد منتقض والمأخوذ عليه مستحق الرد والله أعلم .

وفي بعض روايـات البخـاري في فضل المدينة من حديث فيه طـول (المدينة حرم ما بين عير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثا أو أوي محدثا فعليه لعنـة الله والمـلائكـة والنـاس أجمعـين لا يقبـل منـه يوم القيـامـة صرف ولا عدل . . الحديث) .

قال ابن حجـر : في محدث بضم أولـه وسكـون الحـاء المهملة وبعد الدال مثلثة أى حدث المعصية إلى أن قال :

قال ابن بطال : دل الحديث على أن من أحدث حدثا أو أوي محدثا

في غير المدينة أنه غير متوعد بمثل ما توعد به من فعل ذلك بالمدينة . وإن كان قد علم أن من أوي أهل المعاصي أنه يشاركهم في الإثم فإن من رضي فعل قوم وعملهم التحق بهم ولكن خصت المدينة بالذكر لشرفها لكونها مهبط الوحي وموطن الرسول عليه الصلاة والسلام ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض فكان لها بذلك مزيد فضل على غيرها .

وقال غيره السرّ في تخصيص المدينة بالذكر أنها كانت إذ ذاك موطن النبي ﷺ ثم صارت موطن الخلفاء الراشدين .

قوله (ومن لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا فليس منا) تقدم الكلام عليه في باب الربا والانفساخ والغش .

وقال ﷺ (الجنة حرام على من قتل ذميا أو ظلمه أو حمله مالا يطيق وأنا حجيج الذمي فكيف المؤمن) وقال ﷺ (من أعان على قتل ذمي ولو بشطر كلمة لقي الله يوم القيامة آيسا من رحمته) .

قوله (الجنة حرام على من قتل ذميا . . الخ) لفظ الحديث في موضع من الجامع (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما) وفي رواية أخرى (من قتل معاهدا في غير كنهه حرم الله عليه الجنة) .

وقوله (في غير كنهه) أي في غير وقته الذي يجوز فيه قتله والمراد أنه قتله بلا جناية توجب قتله .

وفي روايـة أخـرى (من قتـل ذميـا فأنـا خصمـه ومن كنت خصمـه خصمته يوم القيامة) وفي رواية (من آذى ذميا فإنه خصمه . . الحديث) .

وكتب الشـارح على الحـديث الأول ما نصه : المراد بالمعاهد من له عهد من المسلمين سواء إن كان بعقد جزية أو هدنة من سلطان أو أمان مسلم .

والمعـاهـد بفتـح الهـاء اسم مفعول وهو الذي عوهد بعهد أي صولح ويجوز كسر الهاء على الفاعل لأن من عاهدته فقد عاهدك لكن الفتح أكثر .

وكتب على قوله (لم يرح) قال بفتح الياء والراء وأصله يراح أي وجد الريح أي لم يشم .

وحكي ابن التين ضـم أوله وكسر الراء قال : والأول أجود وعليه الأكثر .

وحكي ابن الجوزى ثالثة : وهو فتح أوله وكسر ثانيه من راح يريح .

وكتب على قولـه (وأن ريحهـا ليـوجد من مسيرة أربعين يوما) ما نصه : قال شيخنا الإسماعيلى وغيره أربعين عاما ، وللطبراني مائة عام وفي الموطأ خمسـمائـة عام ، وفي الفردوس ألف عام ، وجمع بأن ذلك بحسب اختلاف الأشخاص والأعمال وتفاوت الدرجات فيدركه من شاء الله من مسيرة ألف عام ومن شاء الله من مسيرة أربعين وما بين ذلك قاله ابن العربي وغيره .

وقال بعضهم يجاب باحتمال أن لا يكون العدد مقصودا بل المقصود المبالغة في التكثير .

قوله (وأنا حجيج الذمي الخ) المراد أنه يخاصم عنه ، فالإضافة لأدنى ملابسة . ولم يذكر في الصحاح محجاج من حاجه حيث قال : والحجة البرهان وتقول حاجه فحجه أي غلبه بالحجة وفي المثل لحج فحج فهو رجل محجاج : أي جدل والتحاج التخاصم ومحجته محجا فهو حجيج إذا سبرت أي اختبرت شجته بالميل لتعالجه . . الخ . فتراه استعمل حجيجا فعيلا بمعنى مفعول لا بمعنى فاعل والله أعلم .

والمناسب لقوله في الصحاح حاجه فحجه أي غلبه أن يقول : فأنا أحجه لأن الذي بمعنى غلب بالحجة فهو حج لا حاج . والله أعلم . والمعنى ظاهر .

قوله (من أعان على قتل امرىء مسلم . . الخ . ومثله رواية الجامع من (أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة لقي الله مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله) قال العلقمي : وجملة الأمر أن قتل الآدمي عمدا بغير حق أعظم الكبائر بعد الكفر بالله تعالى وموجب لاستحقاق العقوبة في الدنيا والآخرة . . الخ .

وقال ﷺ يوما لأصحابه (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) .

قوله (ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) قال العلقمي : جملة ما فيه من الأقوال ـ ثمانية :

أحـدهـا : قول الخـوارج أنـه على ظاهـره أقـول يعني أنـه مشـرك عندهم . وذلك أنهم يرون أن مرتكب الكبيرة مشرك واختلفوا في مرتكب الصغيرة .

قال ثانيها : هو في المستحل .

ثالثها : المعنى كفارا بحرمة الدماء وحرمة المسلمين وحقوق الدين .

رابعها : يفعلون فعل الكفار في قتل بعضهم بعضا .

خامسها : لابسين السلاح يقال كفر درعه إذا لبس فوقها ثوبا .

سادسها : كفارا بنعمة الله .

أقول : هذا هو المذهب وكفر النعمة عندنا هو المسمى بكفر النفاق .

سابعها : المراد الزجر عن الفعل وليس ظاهره مرادا .

ثامنهـا : لا يكفـر بعضكم بعضـا كأن يقـول أحـد الفريقين للآخر يا كافر فيكفر أحدهما . . الخ .

أقول : وكلها خروج عن الظاهر لغير دليل يجب التسليم له ما خلا كفر النعمة فإنه يطلق عليه الكفر حقيقة ككفر الشرك إذا وجد سببه .

قال العلقمي : استشكل بعض الشراح غالب هذه الأجوبة لأن راوي الخبر وهو أبو بكرة فهم خلاف ذلك . . الخ ثم قال :

تكملة : قال شيخنا قال أبو البقاء : هذا الحديث يرويه المحدثون غير محقق وفيه كلام يحتاج إلى بسط وذلك أن قوله (يضرب) إذا رفعته كان موضع الجملة نصبا صفة لـ (كفارا) فيكون النهي عن كفرهم وضرب بعضهم رقاب بعض فأيهما فعلوه فقد وجد المنهي عنه إلا أنهما إذا اجتمعا كان النهي أشد .

وقال بعض العلماء النهى يكون عن الصفة الثانية . ونظيره قول الرجل لزوجته إن كلمت رجلا طويلا فأنت طالق فكلمت رجلا قصيرا لم تطلق فكذلك إذا رجعوا كفارا ولم يضرب بعضهم رقاب بعض .

وهذا القول فيه بعد ، وذلك أن الكفر قد علم النهي عنه بدون أن يضرب بعضهم رقاب بعض .

ويجوز أن يروي يضرب بالجزم على تقدير شرط مضمر أي إن ترجعوا كفارا يضربْ بعضكم رقاب بعض ونظير هذا الحديث قوله تعالى (فهب لي من لدنك وليا يرثنى) بالرفع والجزم إلا أن أكثر المحققين من النحويين لا يجيزون الجزم في مثل الحديث لأنه يصير المعنى أن لا ترجعوا كفارا يضرب وهذا ضد المعنى . بل لو قال (لا ترجعوا بعدي كفارا تسالموا وتوادوا) كان الجزم مستقيما لأن التقدير أن لا ترجعوا كفارا تسلموا . ونظير

ذلك (لا تدن من الأسد تنجو) أي (إن لا تدن) فجعل التباعد من الأسد سببا في السلامة وهو صحيح ، ولو قلت لا تدن من الأسد يأكلك كان فاسدا لأن التباعد منه ليس سببا في الأكل .

فإن قلت : فلم لا يقدر إن تدن بغير لا قيل ينبغي أن يكون المقدر من جنس الملفوظ به .

وقد ذهب قوم إلى جواز الجزم هنا على هذا التقدير وعليه يجوز الجزم في هذا الحديث .

وقيل ليس المراد من الحديث النهي عن الكفر بل النهي عن الاختلاف المؤدي إلى القتل فعلى هذا يكون يضرب مرفوعا ويكون تفسير الكفر المراد بالحديث النهي عنه .

وقال الكرماني : يضرب مرفوع على أنه جملة مستأنفة مبينة لقوله (لا ترجعوا) ووصف كاشف . إذ الغالب من الكفار ذلك .

وكونه مجزوما لأنه جواب النهي ظاهر على مذهب من يجوز لا تكفر تدخل النار .

ورجع هنا مستعمل استعمال صار معنى وعملا أي لا تصيروا بعدي كفارا .

وقال ابن مالك في توضيحه : مما خفي على أكثر النحويين استعمال رجــع كصـــار معنى وعمـلا ومنـه الحـديث لا ترجعـوا بعـدي كفـارا أي لا تصيروا . وقول الشاعر :

قد يرجـع المـرء بعد المقت ذا مقت بالحـلم فادرأ به بغضـــاء ذي إحن

ويجوز في يضرب الرفع والجزم .

وقال مغلطاي من جزم أوله على الكفر ومن رفع لا يجعله متعلقا بما قبله بل حالا أو مستأنفا .

وقال القاضي عياض : الرواية يضرب بالرفع . كذا رواه المتقدمون والمتأخرون وهو الصواب وبه يصح المقصـود هنا إلى أن قال :

وقال الشيخ أكمل الدين في شرح المشارق يضرب بالرفع وفيه وجوه :

أحـدهـا : أن تكـون الجملة صفـة لـ (كفـارا) أي لا ترجعوا بعدى كفارا متصفين بهذه الصفة ، يعني يضرب بعضكم رقاب آخرين .

الثـاني : أن تكـون حالا من ضمـير لا ترجعوا أي لا ترجعوا بعدى كفارا حال ضرب بعضكم رقاب بعض .

الثالث أن تكون جملة استئنافية كأنه قيل كيف يكون الرجوع كفارا فقال يضرب بعضكم رقاب بعض .

فعلى الوجه الأول يجوز أن يكون معنى لا ترجعوا عن الدين بعدى فتصيروا مرتدين متقاتلين يضرب بعضكم رقاب بعض بغير حق على وجه التحقيق ، وأن يكون لا ترجعوا كالكفار المقاتل بعضهم بعضا على وجه التشبيه بحذف أداته .

وعلى الثاني يجوز أن يكون معناه لا تكفروا حال ضرب بعضكم رقاب بعض لأمر يعرض بينكم باستحلال القتل بغير حق ، وأن يكون لا ترجعوا حال المقاتلة لذلك كالكفار في الانهماك في تهييج الشر وإثارة الفتن بغير إشفاق منكم بعضكم على بعض في ضرب الرقاب .

وعلى الثالث يجوز أن يكون معناه لا يضرب بعضكم رقاب بعض بغير حق فإنه فعل الكفار ، وأن يكون لا يضرب بعضكم رقاب بعض كفعل الكفار .

وروي بجزم الباء على أنه بدل من لا ترجعوا وأن يكون جزاء لشرط مقدر على مذهب الكساء أى فإن رجعتم يضرب بعضكم رقاب بعض .

وقد ذكر له في الشروح وجوه أعرضت عنها لبعد

كلام العلقمي .

والحاصل أن الحديث يدل على أن قتل المسلم كفر . كما يدل عليه حديث آخر رواه البخاري لفظه (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ولكن إن

استحـل كان كفـره كفـر شرك وإلا كان كفـر نفاق ويسمى كفر نعمة أيضا) والله أعلم .

وقـال ﷺ (لـو أن أهـل السمـوات والأرض اشـتركـوا في دم امرىء مسلم حراما لأكبهم الله تعالى جميعا على مناخرهم في النار) .

قولـه (لأكبهم الله جميعـا على منـاخرهـم في النار هكذا فيما رأيته من النسخ بالهمز في أكب .

والرواية في الجامع لكبهم الله بغير همز وهو الصواب .

قال في الصحاح : كبه الله لوجهه أي صرعه فأكب هو على وجهه . وهـذا من النـوادر أن يقـال فعلت أنـا وفعلت غير ى يقـال كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكب الخ .

يعني ان ما كان بالهمز قاصرا وما كان بغير الهمز متعديا وهذا خلاف القياس ولم يكتب شارح الجامع على هذا الحديث شيئا لأن معناه ظاهر . والله أعلم . ثم رأيت في نسخة صحيحة لكبهم وهي الصواب .

وقال ﷺ (من أذي مؤمنا وروعه أطال الله روعه في جهنم) .

قولـه (من أذي مؤمنـا أوروعه . . الخ) الرواية في الجامع من (أذي مسلما فقد آذانى ومن آذاني فقد آذي الله) ولم يكتب عليه الشارح أيضا شيئا إلا قوله بجانبه علامة الحسن فهي وآذي بهمزة ممدودة من الإيذاء .

وكان ابن مسعود يروى عن رسول الله ﷺ قال (الرشوة في الحكم كفر) .

قوله (الرشوة في الحكم كفر) يعني إذا كانت في الباطل وأما إذا كانت لإظهار الحق فلا بأس بها على الدافع .

قال في الضياء ما نصه قال (لعن الله الراشى والمرتشى) وهذا لمن يبطل حقا ويحق باطلا ، فأما الدافع عن نفسه فهو على الآخذ .

قال أبو الشعثاء رحمه الله ما نفعتنا في أيام بنى زياد إلا الرشوة .

الربيع عن ضمام رحمهما الله أن زنجية لامرأة يقال لها فكيهية سرقت فقلنا لأبي الشعثاء أتكلم فيها فقال انطلقوا فارشوا عليها الخ .

وقال ﷺ (من صلى وصام رياء فقد أشرك) (وكان يسمي الرياء الشرك الأصغر) .

قوله (وكان يسمي الرياء الشرك الأصغر) قال في القواعد لقوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه) الآية ولقول النبي عليه السلام يدعي المرء أي يوم القيامة بأربعة أسماء يا مرائى يا فاجر يا غادر يا خاسر .

وتقدم الكلام على ما يتعلق بالرياء في أول الكتاب في باب ذكر الشرك والكفر .

وقال ﷺ (من قتل بعد العفو أو أخذ الدية فهو خالد مخلد في النار) .

قوله (من قتل بعد العفو أو أخذ الدية فهو خالد مخلد في النار) وذلك لأن ولي الدم مخير في قتل العمد بين القتل وأخذ الدية والعفو وهو الأفضل فإن اختار العفو أو الدية فقتل بعد ذلك فقد قتل النفس التي حرم الله لانقطاع حقه في القتل باختيار غيره (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) .

وانظر هل التوبة والمخرج من ذلك عند غير ابن عباس رضى الله عنه كغيره من القاتلين أو هذا يشدد عليه لتعديه بعد المسامحة وهو المتبادر من ظاهر الحديث . والله أعلم . فليحرر .

وقال ﷺ (من مات وعليه دين لم يدخل الجنة قيل ولو قتل في سبيل الله ؟ قال ولو قتل سبعين مرة ثم أحيي ثم قتل وعليه دين فلا يلج باب الجنة) .

قوله من مات وعليه دين لم يدخل الجنة الخ) وزاد لأنه محبوس بحق الغير ولكنه إذا تداين بغير إسراف وكان من أهل الصلاح يكون على الأعراف بين الجنة والنار فحق الغير يمنعه من دخول الجنة والصلاح يمنعه من دخول النار .

ولكن ذكروا أن أصحاب الأعراف مآلهم إلى الجنة لقوله تعالى (لم

يدخولها وهم يطمعون) ولأن الله تعالى لم يجعل في الآخرة إلا دارين وجعل الناس فريقين فقال : (فريق في الجنة وفريق في السعير) فمن لم يدخل الجنة كان من أهل النار .

فالظاهر أن المراد بالدين الذى يمنع من دخول الجنة ، الدين الذى يكون بإسراف ولم يتخلص منه صاحبه . وأما إذا كان من غير إسراف ولم يقدر على التنصل منه لعجز أو نسيان فالظاهر أن المؤدات على مولاه بعد فراغ حسناته ويدخله الجنة بفضل رحمته . كما تقدم التنبيه على ذلك من كلام الشيخ إسماعيل رحمه الله فيمن تاب وجهل أرباب التباعات أو نسى بعض التباعات عند الكلام على قوله ﷺ (الذنوب على وجهين إلى قوله فلا توبة له حتى يرد المظالم إلى أهلها) في باب الوعيد في الأموال . فإن الظاهر أن العجز إن كان الدين من غير إسراف بمنزلة النسيان فإن كثيرا من الأمور تجب مع الذكر والقدرة وتسقط مع العجز والنسيان غايته أنه يوصى بها لعله يجد من يدفعها عنه . والله أعلم .

وهذا الوعيد إذا ترتب على مال خرج من عند أهله بطيبة نفوسهم في أول الأمر فكيف بمال يكون خروجه من عند أهله ظلما وعدوانا **ولكن** (سيعلم الذيم ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

قال الربيع وأتي النبي ﷺ بميت ليصلي عليه فقال عليه دين ؟ فقالوا نعم فقال هل ترك وفاء ؟ قالوا لا ، قال صلوا على صاحبكم) .

قوله (وأوتي النبي ﷺ بميت ليصلى عليه الخ) لفظه في بعض

الـروايـات ، البخـاري بعـد الاسنـاد (أن النبي ﷺ أوتي بجنـازة ليصلى عليهـا فقـال : هل عليـه من دين ؟ قالوا : لا فصلى عليه ثم أوتي بجنازة أخرى فقال : هل عليه من دين ؟ قالوا : نعم قال صلوا على صاحبكم) قال : أبو قتادة عليَّ دينه يا رسول الله فصل عليه .

وفي روايـة أخـرى (كنـا جلوسا عند النبي ﷺ إذ أوتي بجنازة فقالوا صل عليها فقال هل عليه دين ؟ قالوا لا قال فهل ترك شيئا قالوا لا فصلى عليـه ثم أوتي بجنـازة أخرى فقالوا يا رسول الله صل عليها فقال هل عليه دين ؟ قالوا : نعم قال : فهل ترك شيئا قالوا ثلاثة دنانير فصلى عليها ثم أوتي بالثـالثـة فقـالوا صل عليها قال هل ترك شيئا ؟ قالوا : لا قال : فهل عليه دين ؟ قالوا ثلاثة دنانير قال صلوا على صاحبكم قال قتادة صل عليه وعليَّ دينه فصلى عليه .

وفي روايـة أخـرى عن أبى هريـرة أن النبى ﷺ كان يؤتي بالـرجـل المتـوفي فيسأل هل ترك لدينـه فضـلا ؟ فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى عليـه وإلا قال للمسلمـين صلوا على صاحبكم فلما فتـح الله عليـه الفتوح قال أنا أولى بالمؤمـنين من أنفسهم فمن توفي من المؤمنين فترك دينا فعليَّ قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته) .

قولـه (فقـال هل عليـه دين ؟) فقـال ابن حجـر : في سبب هذا السـؤال وتـركه الصلاة على من عليه دين ما نصه : قال العلماء كان الذى فعله ﷺ من ترك الصـلاة على من عليـه دين ليحـرض الناس على قضاء الديون في حياتهم والتوصل إلى البراءة منها لئلا تفوتهم صلاة النبى ﷺ .

وهل كانت صلاته على من عليه دين محرمة عليه أو جائزة ؟ وجهان .

قال النووي : الصواب الجزم بجوازها مع وجود الضامن كما فى حديث مسلم .

وحكي القرطبى : أنه كان ربما كان يمتنع من الصلاة على من ادَّان دينا غير جائز وأما من استدان لأمر فهو جائز فما كان يمتنع .

وفيه نظر لأن في حديث الباب ما يدل على التعميم حيث قال (من توفي وعليه دين) ولو كان الحال مختلفا لبينه .

نعم جاء من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما امتنع من الصلاة على من عليه دين جاءه جبريل فقال إنما الظالم في الديون التى حملت في البغى والإسراف فأما المتعفف ذو العيال فأنا ضامن له أؤدى عنه فصلى عليه النبي ﷺ قال بعد ذلك (من ترك ضياعا . . الحديث) إلى أن قال :

وفي صلاته ﷺ على من عليه دين بعد أن فتح الله عليه الفتوح إشعار بأنه كان يقضيه من مال المصالح . وقيل بل كان يقضيه من خالص نفسه .

وهل كان القضاء واجب عليه أم لا ؟ وجهان .

وقـال ابن بطـال : قولـه (من ترك دينـا فعلى) ناسـخ لتركه الصلاة على من مات وعليه دين .

وقوله (فعلى قضاؤه) أي مما يفىء الله عليه من الغنائم والصدقات .

قال وهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين فإن لم يفعل فلا إثم عليه إن كان حق للميت في بيت مال المسلمين قوِّم فإنه بغيره بقدر مأكله من الدين وإلا فبقسطه .

وكنت سمعت قديـما أن سبب تركـه عليـه السـلام الصلاة على من عليه دين أن المصلى على الميت شافع له والنبي ﷺ لا ترد شفاعته والميت الذي عليه الدين روحه محبوسة لأجل الدين . والله أعلم .

قال ابن حجر : وفي الحديث وجوب الصلاة على الجنازة .

وقال ﷺ (ما من رجل يموت وفي قلبه مثقال حبة من خردل من كبر لن يدخل الجنة أو يرح ريحها أو يرها ومن لبس لأخيه ثوبا من غصب ألبسه الله يوم القيامة ثوبا من نار جهنم) .

قولـه (مثقـال من حبـة خردل من كبر) الكـبر بكسر الكاف وسكون الباء هو تسفيه الحق وغمط الخلق) والغمط بالطاء المهملة الاحتقار والازدراء .

قال الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد رحمه الله : وبها أى بهذه الصفة استوجب إبليس البعد عن رحمة الله . قال الله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) . (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) فمكان المتكبر أسفل وإن استعلى والمتواضع العلو وإن تسفل .

وقال ابن حجر : قال الراغب : الكبر والتكبر والاستكبار متقاربه .

فالكبر الحالة التي يختص به الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك الذي يرى نفسه أكبر من غيره .

وأعظم ذلك أن يتكبر على ربه بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة . والتكبر يأتي على وجهين :

أحدهما : أن تكون الأفعال الحسية زائدة على محاسن الغير . ومن ثم وصف سبحانه وتعالى بالمتكبر .

والثاني : أن يكون متكلفا لذلك يتسمى بما ليس فيه .

قول متسمى : قال في مختصر الصحاح : يقال تسمى الرجل جعل لنفسه سيما يعرف بها بما ليس فيه وهو وصف عامة الناس نحو قوله تعالى (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) والمستكبر مثله .

وقال الغزالي : الكبر على قسمين : فإن ظهر على الجوارح يقال تكبر وإلا قيل في نفسه كبر .

والأصل هو الذي في النفس والكبر يستدعي متكبرا عليه يرى نفسه فوقه ومتكبرا به . وبه ينفصل الكبر عن العجب فيمن لم يخلق إلا وحدة يتصور أن يكون معجبا متكبرا .

قوله (ولم يرح ريحها) تقدم أن هذا الفعل يجوز فيه ثلاث لغات وأن أفصحها فتح الأول والثاني .

قوله (ومن لبس لأخيه ثوبا من غصب) الظاهر أن المراد أنه إغتصب ثوبا من أخيه المسلم أى الموحد فلبسه . والله أعلم .

وقال ﷺ (من سمَّع بأخيه المسلم في الدنيا سمَّع الله به فى الآخرة) .

الرواية في الجامع (من سمع سمع الله به ومن راء أراء الله به) .

قال العلقمي : قال النووي معناه من راء بعلمه وسمعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتدوا خبره سمع الله به يوم القيامة الناس وفضحه .

وقيل : معناه : من سمع بعيوب الناس وأذاعها أي فشاها أظهر الله له عيوبه .

وقيـل : أسمعـه المكـر . وقيل أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حسرة عليه .

وقيل : من أراء بعلمه الناس أسمعه الله الناس وكان ذلك حظه منها .

أقول : والمعنى الثاني هو المناسب لرواية المصنف رحمه الله حيث ذكر المسمـع به وهـو أخوه المسلم فيكون المعنى من سمع بعيوب أخيه المسلم في الـدنيـا أظهر الله عيوبه يوم القيامة للخلق وفضحه على رؤ وس الأشهاد ، لأن الواجب عليه الستر على أخيه المسلم واستتابته كما هو معلوم .

ورد في الحـديث (من ستر على مؤمن عورتـه فكأنـما أحيـا ميتـا) فى حديث آخر (من ستر أخاه المسلم في الدنيا ستره الله يوم القيامة) .

وقال ﷺ (إذا زنى الزاني سُلب الإسلام فإذا تاب ألبسه إن أهل النار يتأذون بالزاني في النار) فهذه الأحاديث كلها تثبت الكفر لأهل القبلة وهى أكثر من أن تحصى والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قولـه (إذا زنى الـزاني سُلب الإسـلام فإذا تاب ألبسـه) الـروايـة فى الجامع من (زنى خرج منه الإيمان فإن تاب تاب الله عليه) وفي رواية أخرى من (زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه) .

قال العلقمي : قال شيخنا قال عكرمة : قلت لابن عباس كيف ينزع منه الإيمان ؟ قال : هكذا وشبك بين أصابعه ثم زحرجها فإن تاب عاد إليه هكذا أو شبك بين أصابعه ، رواه البخاري .

قال الطيبى : في شرح المشكاة يمكن أن يقال المراد بالإيمان هنا وفي حديث (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الحياء كما ورد أن الحياء شعبة من الإيمان أي لا يزني الزاني حين يزني وهو يستحى من الله تعالى لأنه لو يستحى من الله واعتقد أنه حاضر مشاهد لحاله لم يرتكب هذا الفعل الشنيع) وهذا الحديث تمثيل الخ فأخذ يتكلف تكلفات لا حاجة إليها إلا اعتقاده أن الكفر خاص بالشرك إلى أن قال :

وقال التريشني : هذا من باب الزجر والتشديد في الوعيد زجرا للسامعين ولطفا بهم تنبيها على أن الزنى من شيم أهل الكفر وأعمالهم ، فالجمع بينه وبين الإيمان كالمتنافيين .

وفي قوله ﷺ (كان عليه مثل الظلة) وهي السحابة التي تظل إشارة إلى أنه وإن خالف حكم الإيمان فإنه تحت ظله لا يزول عنه حكمه ولا يرتفع عنه اسمه . وفي بعض كلامه نظر .

وروي البخاري : حديثا صريحا في نفي الإيمان على الزاني وبعض أهل المعاصي ويقاس غيرهم عليهم ولفظه (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن) .

قال ابن حجر : قيد نفي الإيمان بحالة ارتكابه لها ومقتضاه أنه لا يستمر بعد فراغه . وهذا هو الظاهر .

ويحتمل أن يكون المعنى أن زوال ذلك إنما هو إذا أقلع الإقلاع الكلي . أما لو فرغ وهو مصر على تلك المعصية فهو كالمرتكب فيتجه نفي الإيمان عنه ليستتر . ويؤيده ما وقع في بعض طرقه كما سيأتي في المحاربين من قول ابن عباس فإن تاب أعاد إليه الخ .

أقول : وهذا هو الحق ولا يقطع الكبيرة إلا التوبة كما صرح به القرآن والحديث ، ثم أخذ في تأويله بما يناسب اعتقاده إلى أن قال :

والصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان ، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء والمراد نفي كماله . كما يقال (لا علم إلا ما نفع ولا مال إلا ما فعل ولا عيش إلا عيش الآخرة . . الخ) .

وهذا التأويل يئول إلى ما ذهب إليه المسلمون لأن مرادهم به ثبوت أصل الإيمان الذي هو التوحيد لينتفي عنه الشرك وهو مذهب المسلمين إلا أنهم لا يطلقون عليه كفر النفاق .

ثم قال : وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري : معناه ينزع عنه اسم المدح الذي سماه الله به أولياء فلا يقال في حقه مؤمن ويستحق اسم الذم فيقال سارق وزان وفاجر وفاسق .

وعن ابن عباس ينزع منه الإيمان .

وفي حديث مرفوع عن المهلب (ينزع منه بصيرته في طاعة الله) .

وعن الزهري : أنه من المشكل الذي نؤمن به وبين كما جاء ولا يتعرض لتأويله إلى آخر ما أطال فيه مما لا يجري عن قواعد المذهب . والله أعلم .

الحجة على من قال (إن الإيمان قول بلا عمل) يعني وهم المرجئة ومن قال بقولهم بأخوة الأمر .

قال أبو سهل رحمه الله ثم نجمت فرقة قاربت المرجئة في مذهبهم ، واستأنست إلى زخرف قولهم وتزيين باطلهم إلا أنها خالفتهم في بعض القول في بدء الأمر في الإيمان إنه قول وعمل . ثم خالفوا في وجه آخر وقالوا : من أتي بالقول وضيع العمل فهو مسلم مذنب وأثبتوا له اسم الإيمان واتفقت هي والمرجئة في المعنى واختلفوا في اللفظ . . الخ .

قال الربيع بن حبيب بلغني عن رسول الله ﷺ قال (لعن الله المرجئة على لسان سبعين نبيا قيل وما المرجئة يا رسول الله ؟ قال الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل) .

قوله : لعن الله المرجئة على لسان سبعين نبيا .

لفظ الحديث في الجامع (لعنت القدرية على لسان سبعين نبيا) وفي توحيد أبي سهل رحمه الله روايتان .

إحداهما : في القدرية والمرجئة جميعا والثانية : في المرجئة فقط كرواية المصنف حيث قال : أولا في القدرية (فنازعوا الله في خلقه) وتعالى الله عما يشركون فحسبهم قول رسول الله ﷺ (القدرية مجوس هذه الأمة لادعائهم إلهين اثنين ، المرجئة يهود هذه الأمة لادعائهم الخروج من النار . الخروج من النار قال الله عز وجل حكاية عن اليهود (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقال : رسول الله ﷺ (طائفتان من أمتي لا تنالهما شفاعتي وهما ملعونتان على لسان سبعين نبيا القدرية والمرجئة) .

واتفقت الأمة على أن الله صادق في وعده ووعيده ، وأنه لا يبدل القول لديه ، وأنه لا يخلف الميعاد فنقض ذلك المرجئة والمالكية ومن قال بقولهم فأجازوا الخلف في وعيد الله إلى آخر ما أطال فيه وفي الرد عليهم ثم قال : وقال رسول الله ﷺ (لعنت المرجئة على لسان سبعين نبيا الخ) .

قوله (قيل وما المرجئة يا رسول الله ؟ قال الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل) قال أبو سهل : رحمه الله -بعده - فأكذبهم القرآن وسنة الرسول عليه السلام قال الله عز وجل (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم . . الآية) وإنما من حروف الحصر شرط مقرونة بالإيمان مخصوصة بعمل الآية . وقال أولئك هم المؤمنون حقا . وغيرهم المؤمنون كذبا وباطنا . ثم ذكر لتسميتهم مرجئة سببا آخر حيث

قال : وسموا مرجئة لإرجائهم أهل الكبائر فمن قائل منهم لا يدخلون النار البتة ، ومن قائل يقول يدخلونها فيعذبون فيها على قدر أعمالهم ثم يخرجون فيخلدون في الجنـــة فردوا على الله في حكم التنـــزيـــل ، وضلوا عن سواء السبيل بسوء التأويل . إلى آخر ما أطال في الرد عليهم .

ثم قال : وزعمـوا أن من قال لا إلـه إلا الله فهـو من أهـل الجنة وأنه المأمور به وما سواه ليس بإيمان .

وزعموا أن جميع ما أمر الله به من طاعته أنه ليس بإيمان وأن جميع ما توعـد به عليـه ليس بكفـر فحلوا عرى الإسـلام ، وأبطلوا فائدة الحلال ، والحـرام وأرضـوا الله عز وجـل بقول لا إله إلا الله ولو طمسوه بالإثـم وأوهنوا دعوة الأنبياء عليهم السلام .

فائـــدة قول الله عز وجـــل (الم أحسب النـــاس إلى قولـــه ـ وهم لا يفتنـون) ثم قال (ولقـد فتنـا الذين من قبلهـم) ألا فمن لم يصدق فعله قوله فهو كاذب . وللمرجئة في الإيمان ثلاثة مذاهب . . الخ .

ثم قال : وقـال أهـل العدل : الإيمان معرفة بالجَنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان إلى آخر ما استدل به .

وقيل : سميت المرجئة لإرجائهم عليًّا ولم يعدوه رابعا من الخلفاء ، وسبب هذه التسميـــة يقتضي عدم دخـول القـوم فيهم ، فالأولى في سبب التسمية ما ورد به الحديث فهو شامل لهم أول الأمر .

وأمـا على القـول بأنهم سمـوا مرجئـة لإرجـائهم أهـل الكبائر فلم يقطعوا فيهم قطعا فهو شامل لهم ابتداء والله أعلم .

قال جابـر بن زيـد : بينـما رسول الله ﷺ جالس مع أصحابه إذ أتاه آت حسن الوجه طيب الرائحة فقال : أدنو منك يا رسول الله ؟ قال : نعم فـدنـا فقـال له ما الإيـمان ؟ فقـال له عليـه السلام أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره أنه من الله فقال : فقد صدقت قال :ما الإسلام يا رسـول الله ؟ قال : إقـام الصـلاة وإيتاء الزكاة وصيام شهـر رمضـان والاغتسـال من الجنـابـة وحج البيت من استطاع إليه سبيلا قال : صدقت ثم تغيب قيل هذا جبريل عليه السلام .

قولـه (بينـما رسـول الله ﷺ جالس مع أصحابه إذ أتاه آت . . الخ) لفظه في القواعد (أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ في صورة أعرابي وهـو لا يعـرفه فقال : يا محمد ما الإيمان . . الخ) فزاد على رواية المصنِّف بعـد تمام الكـلام على الإسـلام ما نصـه : (فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم قال : صدقت قال : فما الإحسان ؟ قال عليه السلام أن تعمل لله كأنـك تراه فإن لم تكن تراه فإنـه يراك قال : صدقت . . الحـديث) فلما انصـرف من عنـد النبي ﷺ وسلم قال : عليَّ بالرجل ، فقام أصحابه في كل وجه ثم ناداهم أن هلموا فإنه جبريل عليه السلام جاءكم ليعلمكم أمر دينكم) ولفظه في البخاري (كان النبي ﷺ بارزا للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيـمان ؟ فقـال : الايـمان أن تؤمن بالله ومـلائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث قال : ما الإسـلام ؟ قال : أن تعبـد الله ولا تشـرك به شيئـا وتقيم

الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال : ما الإحسان ؟ قال : تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك بأشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبي ﷺ (إن الله عنده علم الساعة . . الآية) ثم أدبر فقال : ردوه فلم يروا شيئا فقال : إن هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم) .

ولفظه في الأربعين النووية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس للنبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال : رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال : صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرني عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت قال : فأخبرني عن الإحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال : فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال : أخبرني عن أمارتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان ثم انطلق فلبث مليا ثم قال يا عمر : أتدري من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم رواه مسلم .

قال الفـاكهـاني : في شرح الأربعـين هذا متفق على عظم موقعـه وجلالته يكاد أن يكون مدار الإسلام عليه .

وقال القاضي عياض : وهذا الحديث قد اشتمل على وظائف جميع العبـادات الظـاهـرة والبـاطنـة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السـرائـر والتحفـظ من آفة الأعمال حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه .

قال القرطبي : فيصلح في هذا الحديث أن يقال فيه أنه أم السنة كما سميت الفاتحة أم القرآن . . الخ .

واعلم أن كلام أصحابنا رحمهم الله يدل على أنهم اختلفوا في الدين والإسـلام والإيـمان . هـل هي بالنظـر إلى الشـرع ألفـاظ مختلفـة المفهوم متحدة الماصدق ، وهو الذي جزم به عمنا أحمد بن سعيد رحمه الله في شرح العقيـدة ، كما يُعلَم بالـوقـوف عليـه وهو الذي يدل عليه جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في هذا الحديث ، أو هي ألفاظ مترادفة لشيء واحد وهي العبادة المعتبرة وهو الذي صرح به في السؤالات حيث قال : الإيمان والإسلام والدين معناها واحد واستدل لذلك بآيات فليراجع .

وهـو الـذي صرح به صاحب الـوضع أيضا حيث قال : والدين لله تعـالى هو الإسـلام ، وقال : أيضا والدين والإيمان والإسلام أسماء مختلفة لشيء واحد وهو طاعة الله . . الخ .

وفي بعض كتب قومنا ما هو صريح في الاختلاف في ذلك عندهم أيضا حيث قال : اختلفوا في الإسلام هل هو الإيمان أو غيره ؟ وإن كان غيره فهل هو منفصل بوجه دونه ويلازمه ؟ فقيل : إنهما اسمان مترادفان على معنى واحد ، وقيل : إنهما متباينان لا متلازمان ، وقيل : إنهما شيئان ولكنهما مرتبطان . . الخ .

وذكر ابن حجر : أن المصنف ، يعني البخاري يرى أن الإسلام لعله الإيمان عبارة على معنى واحد فلما كان ظاهر سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام وجوابه يقتضي تغايرهما وأن الإيمان تصديق بأمور مخصوصة والإسلام إظهار أمور مخصوصة أراد أن يرد ذلك بالتأويل إلى طريقته إلى أن قال :

مع ما دلت عليه الآية أن الإسلام هو الدين فاقتضى ذلك أن الإسلام والإيمان أمر واحد .

هذا محصل كلامه . . الخ . فذكر عن المزني الجزم بترادفهما وعن أحمد الجزم بتغايرهما قال : ولكل من القولين أدلة متعارضة إلى آخر ما أطال فيه .

ثم قال : والذي يظهر من مجموع الأدلة أن لكل منهما حقيقة شرعية كما أن لكل منهما حقيقة لغوية لكن كل منهما مستلزم للآخر . . الخ .

قوله (فقال أدنو منك يا رسول الله إلى (قوله ما الإسلام) قال ابن حجر : فإن قيل كيف بدأ بالسؤال قبل السلام ؟

أجيب بأنه يحتمل أن يكون مبالغة بالتعمية لأمره أو ليبين أن ذلك غير واجب أو سلم فلم ينقله الراوي . قال : قلت : وهذا الثالث المعتمد . فقد ثبت في رواية أبي فروة ففيها بعد قوله كأن ثيابه لم يمسها دنس حتى سلم من طرف البساط فقال السلام عليك يا محمد فرد عليه السلام فقال : أدنو يا محمد قال : ادن فما زال يقول أدنو مرارا ويقول له ادن) ونحوه في رواية عطاء . . الخ .

قوله (أن تؤمن بالله . . الخ) في بعض الروايات الإيمان أن تؤمن بالله .

قال ابن حجر : يدل الجواب على أنه علم أنه سأله عن متعلقاته لا عن معنى لفظه ، وإلا لكان الجواب الإيمان التصديق . . الخ . أقول بل دل الجواب على أنه علم أنه سأله عن الإيمان الشرعي لا اللغوي ، والله أعلم .

قال : وقال الكرماني : ليس هو تعريفا للشيء نفسه بل المراد من المحدود الإيمان الشرعي ومن الحد الإيمان اللغوي .

قال : قلت : والذي يظهر أنه إنما أعاد لفظ الإيمان للاعتناء بشأنه تفخيما لأمره ومنه قوله تعالى (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) في جواب (من يحيي العظام) .

قوله (وملائكته) قال ابن حجر : والإيمان بالملائكة هو التصديق

بوجودهم وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون ، وقدم الملائكة على الكتب والرسل نظرا للترتيب الواقع لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول وليس فيه متمسك لمن فضل الملك على الرسول .

قوله (وكتبه) قال ابن حجر : والإيمان بكتب الله التصديق بأنها كلام الله وأن ما تضمنته حق .

قوله (ورسله) قال ابن حجر : وفي حديث أنس وابن عباس والملائكة والكتاب والنبيين . وكل من السياقين في القرآن في البقرة والتعبير بالنبيين يشمل الرسل من غير عكس ، والإيمان بالرسل التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله . ودل الإجمال في الملائكة والكتب والرسل على الاكتفاء بذلك في الإيمان بهم من غير تفصيل إلا من ثبت تسميته فيجب الإيمان به على التعيين .

أقول : والذي يجب تعيينه عندنا آدم ومحمد عليهما السلام وجبريل والقرآن والباقي حتى تقوم الحجة بتعيين الشيء منه كما هو معلوم .

قوله (واليوم الآخر) قال ابن حجر : قيل له ذلك لأنه آخر أيام الدنيا وآخر الأزمنة المحدودة .

والمراد بالإيمان به التصديق بما يقع فيه من الحساب والميزان والجنة والنار وقد وقع التصريح بذكر الأربعة بعد ذكر البعث في رواية سليمان التميمي في حديث ابن عباس أيضا . . الخ .

قوله (والقدر خيره وشره أنه من الله) قال ابن حجر : بعد كلام على قولـه وتـؤمن على رواية من رواه (وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر) ما نصه : وهكذا الحكمة في إعادة لفظ وتؤمن عند ذكر القدر كأنها إشارة إلى ما يقع فيه من الإختلاف فحصل الاهتمام بشأنه بإعادة (تؤمن) ثم قدره بالإبدال بقوله (خيره وشره وحلوه ومره) ثم زاده تأكيدا بقوله في الرواية الأخيرة (من الله) والقـدر مصـدر تقـول قدرت الشيء ـ بتخفيف الدال وفتحها ـ أقدره بالكسـر والفتـح قدْرا وقدَرا إذا أحطت بمقداره ، والمراد أن الله تعالى علم مقـاديـر الأشيـاء وأزمـانها قبل إيجادها ثم أوجد ما سبق في علمه وأنه يوجد فكـل محدث صادر عن علمـه وقـدرتـه وإرادته . هذا هو المعلوم من الدين بالـبراهـين القطعية وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين إلى أن حدثت بدعة القدر في أواخر زمن الصحابة .

وقـد روي مسلم القصـة في ذلـك ـ إلى أن قال ـ قال أول من قال بالقـدر بالبصـرة معبـد الجهنى قال : فانطلقت أنـا وحميـد الحميري فذكر اجتماعهما بعبد الله بن عمر وأنه سأله عن ذلك فأخبره بأنه بريء ممن يقول ذلك وأن الله لا يقبل من لم يؤمن بالقدر عملا .

وقد حكي المصنفون في المقالات عن طوائف . من القدر إنكار كون الباري عالما بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم وإنما يعلمها بعد كونها .

قال القـرطبي وغـيره : قد انفض هذا المـذهب ولا نعـرف أحـدا ينسب إليه من المتأخرين .

قال : والقـدريـة اليـوم مطبقـون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها وأن ما خالفه السلف في زعمهم أن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال .

وهو مع كونه مذهبا باطلا أخف من مذهب الأُوَل .

وأمـا المتأخـرون منهم فأنكـروا تعلق الإرادة بأفعـال العبـاد فرارا من تعلق القديم بالمحدث وهم مخصوصون بما قال الشافعي إن سلم القدري العلم خصم ، يعني يقال له أيجوز أن يقع في الوجود خلاف ما تضمنه العلم فإن منع وافق قول أهل السنة وإن أجاز لزمه نسبة الجهل تعالى الله عن ذلك .

قال (تنبيـه) ظاهـر السيـاق يقتضي أن الإيمان لا يطلق إلا على من صدق بجميع ما ذكره .

وقـد اكتفى الفقهـاء بإطـلاق الإيـمان على من آمن بالله ورسله ولا اختلاف أن الإيمان برسول الله المراد به الإيمان بوجوده وبما جاء به عن ربه فيدخل جميع ما ذكر تحت ذلك والله أعلم .

أقول : بل لابد من الإيمان بجميع ذلك عند الجمهور من أصحابنا رحمهم الله ولابد من التصريح بأن ما جاء به حق من عند الله .

قولـه (ما الإسـلام يا رسـول الله ؟ قال : إقـام الصلاة وإيتـاء الـزكـاة . . الـخ) هذه الـرواية غير موافقة لشيء من الروايات المذكورة في

القواعد وغيرها فإنها لم يذكر فيها التوحيد من الإسلام مع أنه لابد منه لقوله عليه السلام في حديث آخر (بني الإسلام على خمس على أن يوحد الله تعالى وإقام الصلاة . . الحديث) فبدأ بالتوحيد كما بدأ به في جميع روايات هذا الحديث ، ولفظه في القواعد (فما الإسلام ؟ قال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده وأن محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة . . الخ) .

وانظر ما الحكمة في ترك المصنف ذلك مع ثبوته في جميع الروايات ولعلّه لم يثبت عنده رحمه الله .

ويؤخذ منه أن الإسلام غير الإيمان فإن الإسلام على هذا متعلق بأعمال الجوارح والإيمان متعلق بالتصديق القلبي والله أعلم .

ثم رأيت في شرح ابن حجر : ما يدل على هذا حيث قال في جواب قوله ما الإسلام ؟ قال : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ما نصه .

قال النووي : يحتمل أن يكون المراد بالعبادة معرفة الله فيكون عطف الصلاة وغيرها لإدخالها في الإسلام .

ويحتمل أن يكون المراد بالعبادة الطاعة مطلقا فيدخل فيه جميع الوظائف ، فعلى هذا يكون عطف الصلاة وغيرها من عطف الخاص على العام .

قال ابن حجر : قلت : أما الاحتمال الأول فبعيد لأن المعرفة من

تعلقـات الإيـمان ، وأما الإسلام فهو أعمال قولية وبدنية وقد عبر في حديث عمر هنا بقوله (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) فدل على أن المراد بالعبادة في حديث الباب النطق بالشهادتين .

وبهذا يتبين دفع الاحتمال الثاني الخ ، يعني فيكون حينئذ من عطف المغـــايـــر لا من عطف الخـاص على العـام ، فعلى كلامـه يكـون النطق بالشهادتين من الإسلام لا من الإيمان لتعلقه بما في القلب والله أعلم .

قال : وليس المـراد بمخـاطبتـه بالإفـراد اختصـاصه بذلك بل المراد تعليم السـامعـين الحكم في حقهم وحق من أشبههم من المكلفين وقد تبين ذلك بقوله في آخره (يعلم الناس دينهم . . الخ) .

فتكلم على بقية الحديث التي لم يوردها المصنف بما يطول ذكره ولعله تركها ـ رحمه الله ـ لعدم تعلقها بالترجمة والله أعلم .

قال الربيع سئل أبو ذر ما الإيمان فتلا أبو ذر هذه الآية (ليس البر أن تولـو وجـوهكم قبـل المشرق والمغرب ـ إلى قوله ـ أولئك هم المتقون) فقال الرجل إني لم أسألك عن البر فقال أبو ذر إن رجلا أتي إلى النبي ﷺ فسأله عما سألتني عنه فتلا عليه رسول الله هذه الآيـة .

قولـه (سأل رجـل أبا ذر ما الإيمان فتلى عليه . . الخ) الجواب بهذه الآيـة يدل على ترادف الـبر والإيمان والمعنى ليس الإيمان أن تصلوا فقط ولا تفعلوا خيرا غير الصلاة كما ذكره في القواعد .

قولـه (الصـبر والسـماحـة) هذا الحديث يدل على أن الصبر نصف الإيمان كما ورد في الحديث الآخر (الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله) وفي حديث آخـر (الصـبر والاحتسـاب أفضل من عتق الرقاب ويدخل الله صاحبهن الجنة بغير حساب) ذكر ذلك في الجامع .

قال شارحـة : قال شيخنـا في الـدر أراد به الـورع إذ العبـادة قسمان نسـك وورع فالنسـك ما أمرت به الشريعة والورع ما نهت عنه وإنما ينتهي عنه بالصبر ، فكان نصف الإيمان .

أقـول فعلى هذا يكـون المراد بالسماحة أداء المأمور به والصبر ترك ما نهى عنه . والله أعلم .

(سئل النبي ﷺ أي المؤمن أفضل إيماما فقال أحسنهم خلقا) .

قولــه (فقــال أحسنهم خلقـا) لفظـه في حديث آخـر (ألا أخـبركم بأحبكم إلي وأقـربكم مني منـازل يوم القيـامـة أحـاسنكم أخلاقا الموطئون أكنـافـا الـذين يألفون ويؤلفون) ذكره في كتب النحو في أفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة فإنه يجوز فيه الوجهان المطابقة وعدمها والشاهد فيه حيث أفرد في أحبكم وأقربكم وطابق في أحاسنكم .

(وقـال ﷺ.الإيـمان مائـة جزء أعظمهـا قول (لا إلـه إلا الله) وأدناها (إماطة الأذى من الطريق) .

قوله (الإيمان مائة جزء الخ) الرواية في الجامع (الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان .

وفي شرح العقيدة : الإسلام نيف وستون جزءا . . الخ .

ولعله لا منافاة ؛ لأن مفهوم العدد لا يفيد الحصر أويقال إن ذلك بحسب الاعتبار فإنه يختلف والله أعلم .

قال العلقمي في قوله (بضع وسبعون شعبة) ما نصه في البخاري (بضع وستون) وعند أصحاب السنن (بضع وسبعون من غير شك) وعن أبي عوانة (بضع وستون أوبضع وسبعون) ورجح قوم رواية (وستون) لأنها المتيقن وما عداه مشكوك فيه ورجح آخرون الأخرى لأنها زيادة ثقة .

وتعقب بأن الذي زادها لم يستمر على الجزم بها لا سيما مع اتحاد المخرج .

وعند الترمذي (أربع وستون) من طريق معلولة إلى أن قال :

البضع ـ بكسر الباء وفتحها ـ هو عدد مبهم يفيد بما بين الثلاث إلى التسع . هذا هو الأشهر إلى أن قال :

قال القاضي عياض : وقد تكلف جماعة عدها بطريق الاجتهاد ، وفي الحكم يكون ذلك هو المراد صعوبة .

قال ابن حجر : ولم يتفق من عد الشعب على نمط واحد ، وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان فإنه عد كل طاعة عدها الله في كتابه أو النبي ﷺ في سنته من الإيمان .

قال ابن حجر : وقد رأيتها تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن .

فأعمال القلب فيها المعتقدات والنيات وتشتمل على أربع وعشرين خصلة الإيمان بالله يدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده وبأن ليس كمثله شيء . واعتقاد حدوث ما دونه والإيمان بملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره والإيمان بالله واليوم الآخر ، ويدخل فيه المساءلة في القبر والبعث والنشور والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ومحبة الله والحب والبغض فيه ومحبة النبي ﷺ واعتقاد تعظيمه . ويدخل فيه الصلاة عليه واتباع سنته والإخلاص . .

ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق والتوبة والخوف والرجاء والشكر والوفاء والصبر والرضاء بالقضاء والتوكل والرحمة والتواضع . ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير وترك الكبر والعجب وترك الحسد وترك الحقد وترك الغضب .

وأعمال اللسان تشتمل على سبع خصال : التلفظ بالتوحيد وتلاوة القرآن وتعلم العلم وتعليمه والدعاء . ويدخل فيه الاستغفار واجتناب اللغو .

وأعمال البدن تشتمل على ثمان وثلاثين خصلة : منها ما يختص بأعيان وهي خمس عشرة التطهر حسا وحكما . ويدخل فيه اجتناب النجاسات وستر العورة والصلاة فرضا ونفلا والزكاة كذلك وفك الرقاب والجود . ويدخل فيه إطعام الطعام وإكرام الضيف والصيام فرضا ونفلا والحج والعمرة كذلك والطواف والاعتكاف والتماس ليلة القدر والفرار بالدين . ويدخل فيه الهجرة من دار الكفر والوفاء بالنذر والتحري في الإيمان وأداء الكفارات .

ومنها ما يتعلق بالاتباع وهي ست خصال : التعفف بالنكاح والقيام بحقوق العيال أو بر الوالدين ومنه اجتناب العقوق وتربية الأولاد وصلة الرحم وطاعة السادة والرفق بالعبيد .

ومنها ما يتعلق بالعامة وهي سبع عشرة : القيام بالإمرة مع العدل ومتابعة الجماعة وطاعة أولي الأمر والإصلاح بين الناس . ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة والمعاونة على البر . ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود والجهاد ومنه المرابطة وأداء الأمانة . ومنه أداء الخمس والقرض مع وفائه وإكرام الجار وحسن المعاملة . ومنه جمع المال من حله وانفاق المال في حقه .

وفيه ترك التبذير والإسراف ورد السلام وتشميت العاطس وكف الضرر عن الناس واجتناب الهوى وإماطة الأذى عن الطريق . فهذه تسع وستون خصلة ويمكن عدها تسع وسبعون خصلة باعتبار ما ضم بعضه إلى بعض .

وكتب على قوله (الحياء) ما نصه : بالمد وهو في اللغة تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به .

وفي الشرع خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق .

وإنما أفرده بالذكر لأنه كالداعي إلى بقية الشعب ، إذ المستحي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر .

قوله (وأدناها) قال العلقمي : قال شيخنا قال الطيبي : أي أقربها منزلة وأدناها مقدارا من الدنو بمعنى القرب ، يقال فلان داني القدر وقريب المنزلة بمعنى الرفيع العالي ، ولذلك استعمله في مقابلة الأعلى .

قوله (إماطة الأذى عن الطريق) قال العلقمي : يقال أماط الشيء عن الشيء إذا أزاله عنه وأذهبه عنه .

والأذى هنا اسم لما يؤذي الناس نحو الشوك والحجر .

قال الراغب : هذا حديث من تأمله وعرف حقيقته علم أن الإيمان بالواجب هو اثنان وسبعون درجة لا يصلح أكثر منها ولا أقل ولا يوجد من الإيمان ما هو خارج عنها بوجه إلى أن قال :

وقال شيخنا قال البيضاوي : وفي شرح المصابيح يحتمل أن المراد

بقوله بضع وسبعون التكثير دون التعديد كما في قوله (إن تستغفر لهم سبعين مرة) واستعمال لفظ السبعة وسبعين للتكثير كثير .

ويحتمل أن يكون المراد تعداد الخصال وحصرها فيقال : إن شعب الإيمان وإن كانت متعددة إلا أن حاصلها يرجع إلى أصل واحد وهو تكميل النفس على وجه يصلح معاشه ويحسن معاده . وذلك أن يعتقد ويستقيم في العمل . وإليه أشار ﷺ حين قال لسفيان حين سأله عن الإسلام قولا جامعا (قل آمنت بالله واستقم) .

(وسئل النبي ﷺ عن الإيمان وكان متقنعا بردائه فطرح رداءه عن رأسه ثم ضرب بيده إلى صدره وقال (الإيمان ها هنا في القلب) وقال ﷺ (ما آمن من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه) فهذه الأحاديث كلها تدل على الإيمان أنه قول وعمل ومن قال غير ذلك فقد كفر بمقالته) .

قوله (ضرب بيده على صدره وقال الإيمان ها هنا) ليس في هذا الحديث ولا في الذي بعده ما يدل على أن العمل من الإيمان ، بل المراد منه أن من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه فهو كافر لأن الإيمان لابد فيه من الإقرار باللسان والمعرفة بالقلب ، وأما جعل عمل الجوارح من الإيمان فمن غير هذين الحديثين كما هو ظاهر .

قوله (تدل على الإيمان أنه قول وعمل) المناسب أن يزيد (واعتقاد) كما دل عليه هذان الحديثان ولعله تركه لوضوحه . والله أعلم .

(الحجة على من لا يري الصلاة على موتى أهل القبلة ولا يري الصلاة خلف كل بار وفاجر من كتاب الترتيب) .

أقـول : لعـل المـراد هنـا بمـوتى أهل القبلة الذين لا يصلي عليهم المنـافقـون أهـل الكبائر بدليل ما ذكره صاحب القواعد رحمه الله حيث قال بعد ما ذكر أن الصلاة واجبة على الموتى المقرين بالله ورسوله ما نصه : من العلماء من لم يجز الصلاة على أهل النفاق وأهل الكبائر وأهل البغي والبدع .

واختلفوا فيمن قتل في حد أو قتل نفسه وولد الزنى .

واختلفـوا في الصلاة على الشهداء المقتولين في المعركة . واحتج من منع الصلاة على أهل النفاق بقوله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا . . الآية) وأما أهل البدع فلا اختلاف في تكفيرهم . . الخ .

ويحتمل أن يكون المراد لا يرى الصلاة واجبة على موتى أهل القبلة مطلقا ، بل يراها نافلة .

ويدل له كلام صاحب الإيضاح رحمه الله حيث قال بعد أن ذكر أنها واجبـة وأنهم إن تركـوهـا من غير عذر هلكـوا ما نصـه : ومن العلماء من رخص أن لا يهلكوا بترك الصلاة على الميت وجعلها نافلة .

والصحيح هو القول الأول إلا ما خصت السنة من الأموات .

وقـد جاء الأثـر عن المسلمـين . . الخ فذكر الأقلف البالغ ومن قتل

نفسه عمدا أو من ألقى نفسه في الحريق والمرجوم بلا توبة والطاعن في دين المسلمين وقطاع الطرق ثم قال :

وفي أثر أصحابنا النفوسيين خمسة أجناس من الناس لا يسلم عليهم ولا يطعمون ولا يسقون ولا يصلى عليهم إذا ماتوا : قاتل النفس التي حرم الله ، ومانع حق المسلمين ، ومن قعد على فراش حرام ، وعبد أبق لمولاه والمرأة العاصية لزوجها إلى أن قال :

والأصل في هذا قوله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) نزلت في المنافقين ، ونهى النبي ﷺ أن يصلى عليهم لأنهم كفروا بالله وبرسوله وماتوا وهم فاسقون .

قال الربيع بن حبيب رحمه الله سمعت من جابر بن زيد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال (الصلاة جائزة خلف كل بار وفاجر وصلوا على كل بار وفاجر) .

وقال ﷺ الصلاة على موتى المقرين بالله ورسوله واليوم الآخر واجبة فمن تركها فقد كفر .

قوله (الصلاة جائزة خلف كل بار وفاجر . . الحديث) لفظه في الجامع (صلوا خلف كل بار وفاجر وصلوا على كل بار وفاجر وجاهدوا مع كل بار وفاجر) واعلم أن الناس اختلفوا في الصلاة خلف الفاسق .

والــذي اختــاره صاحب الإيضــاح رحمــه الله التفــرقــة بين الفــاسق بالاعتقــاد والفــاسق بالجارحة فأجازها خلف الأول دون الثاني حيث قال : وأما المخالف فتجوز الصلاة خلفه ما لم يدخل فيها ما يفسدها وذلك عندي إذا كان تجوز عنده أشياء لا تجوز الصلاة بها عند المسلمين . . الخ .

واستــدل رحمــه الله على ذلــك بقــوله ﷺ لمعاذ (أطع كل أمير وصل خلف كل إمام) وبصلاة بعض الصحابة خلف مروان ابن الحكم قال :

وكــان ابن عبــاس وجابر بن زيد وأبو عبيدة مسلم والربيع بن حبيب يصلون معهم الجمعة وغيرها ما صلوها لوقتها يرون ذلك عليهم حقا واجبا وفرضا لازما لما جاء في ذلك من الأحاديث عن رسول ﷺ . والله أعلم .

أقــول : لعــل المــراد بالمخالف الذي تجوز الصلاة خلفه الذي يكون ورعــا في دينــه بدليل أن الفــاسق من أهل الدعوة لا يصلى خلفه فالمخالف الفاسق من باب أولى قال رحمه الله : وأما المنافق من أهل الدعوة فلا تجوز الصــلاة خلفــه كما لا تجوز شهادته لأنه متهم أن يصلى بما لا يجوز أو ينقض شيئــا من شروطهــا كما أنــه متهم في الشهــادة أن يشهــد كما لا يجوز فكانت شهادته غير مقبولة وكذلك صلاته على هذا الحال .

والعبد إذا كان لا يقلد في دنياه إلا أهل العدالة فأولى به أن لا يقلد في صلاته إلا الثقات إلى أن قال :

وقال بعضهم بجواز الصلاة خلف المنافق إذا قدمه غيرك إلى أن قال :

ومع ذلك إن أخطأ في صلاته أو بدل فيها فأخاف لمن قال له تقدم يا فلان أن يحمل أوزار الناس فمن أدرك زمانا هكذا حال أهله فينبغي للمسلمين أن يسعه الصمت فإن صلى الناس صلاة حسنة فقد صلى معهم وإن لم يصلوا صلاة حسنة أعاد صلاته والله أعلم .

وقد أجاز بعض المرخصين ، وهو عندى قول ضعيف ، أن يقدم المنافق من أهل الدعوة في الصلاة . . الخ .

أقول : رأيت في الضياء ما هو صريح في هذا حيث قال : مسألة أقول ويؤخذ من قوله (أعاد صلاته) جواز الإقدام على صلاة غير مجزية في اعتقاده مع نيته إعادتها كالصلاة خلف مخالفينا في هذا الزمان فإنهم يحدثون فيها ما يفسدها عند المسلمين فيصلي معهم ويعيد .

قال العلقمي في شرح قوله ﷺ (صلوا خلف كل بار وفاجر) ما نصه : إن ابن عمر كان يصلي خلف الحجاج وكفى به فاسقا .

وقال الماوردي من أصحابنا : يمنع الفاسق من الإمامة إلا أن تخشى فتنة ولا يجوز للأصل ونحوه توليته وإنما صححنا القدوة به لصحة صلاته في نفسه .

وقال القفال : تكره القدوة بالروافض والمبتدعة والخوارج .

وقال مالك : الفاسق بغير تأويل لا تجوز الصلاة خلفه ولذلك

انقطع عن شهود الجمعة والجماعات ، وكان يقول : للناس أعذار فسئل عن ذلك فقال : ما كل ما يعلم يقال .

وذكر الشيخ إسماعيل رحمه الله في الفاسق ثلاثة أقوال ولم يذكر ما هوالمذهب صريحا ولم ينسب كل قول لصاحبه كما هو عادته حيث قال :

واختلفوا في إمامة الفاسق فردها قوم بإطلاق وأجازها آخرون بإطلاق وفرق قوم بين الفاسق المتأول وغيره •

وسبب الخلاف أنها مسألة مسكوت عنها في الشرع والقياس لها معارض . فمن حمل عموم قوله عليه السلام (صلوا خلف كل بار وفاجر) وقوله (يؤم القوم اقرؤ هم) أجاز الصلاة خلفه بإطلاق ، ومن قاس الصلاة على الشهادة فاتهمه في فساد الصلاة كما اتهم في الشهادة ردها بإطلاق . . الخ ، ولم يذكر حجة من فرق بين الفاسق المتأول وغيره •

والذي مشي عليه صاحب الإيضاح رحمه الله هو هذا القول حيث قال : وأما المخالف فإنه تجوز الصلاة خلفه مالم يدخل فيها ما يفسدها . . الخ .

ويدل لهذا القيد أيضا ، قول صاحب القواعد رحمه الله : وقال أصحابنا لا تجوز الصلاة خلف من علمته يقنت في الصلاة .

قالوا : ومن صلى خلفه وهو غير عالم به فلا بأس بصلاته .

وقال أصحابنا : الصلاة خلف من لا ولاية له صلاة واحدة .

وقال أيضا في محل آخر : ولم يجز أصحابنا الصلاة خلف من يقنت فيها أو يقول ولا الضالين آمين لأنهما من كلام الآدميين والله أعلم .

فكلاهما رحمهما الله صريح في جواز الصلاة خلف الفاسق المتأول الذي لم يحدث فيها . أما الفاسق بالجارحة فكلام صاحب القواعد صريح في جوازها خلفه أيضا إلا أنه لا فضل فيها .

والمختار عند صاحب الإيضاح أنها لا تجوز ـ كما تقدم ـ حيث قاسها على الشهادة ولكنه مخالف لظاهر حديث الباب ونص أصحابنا حيث قالوا : الصلاة خلف من لا ولاية له صلاة واحدة والله أعلم .

قوله (وصلوا على كل بار وفاجر) يعني من أهل القبلة وترك التقييد للعلم به وغير الأسلوب للإشارة إلا أن الأولى جائزة والثانية واجبة .

وخص أصحابنا من ذلك أجناسا كما تقدم عن الإيضاح .

وذكر الشيخ إسماعيل رحمه الله بعضها واستشكله حيث قال : وخص أصحابنا بالمنع من الصلاة على مانع الحق والآبق والمرأة العاصية والباغي والقاعد على الفراش الحرام فلا أدري بأي حجة احتجوا ؟ ولا بأي دليل استدلوا .

ومن العلماء من لم يجز الصلاة على أهل النفاق إلى آخر ما تقدم .

ثم قال : والذي عندي أن النبي عليه السلام أمر بالصلاة على أهل القبلة ولم يستثن منهم أحدا برا كان أو فاجرا .

وذكر في بعض كتب قومنا أن الحسن البصري صلى على الحجاج فقيل له أتصلي على الحجاج ؟ فقال استحييت من الله عز وجل أن أستعظم ذنوب الحجاج في جنب عفو الله تعالى . والله أعلم .

قوله (فمن تركها فقد كفر) يعني والله أعلم إلا الدليل يجب التسليم له كما استدل أصحابنا على ترك الصلاة على من ذكر بقوله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) على ما ذكره صاحب الإيضاح رحمه الله كما تقدم . والله أعلم .

وقال ﷺ (رحم الله من سكت فسلم أو قال فغنم) .

قوله (رحم الله من سكت فسلم أو قال فغنم) وذكر في الجامع رواية منها (رحم الله امرأ تكلم فغنم أو سكت فسلم) ومنها (رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت على سوء فسلم) ولم يكتب عليها شارحه شيئا .

وقال ﷺ (لا تكن طعانا ولا لعانا ولا تقل في الدين ما لم يأذن به الله) .

قولـه (لا تكن طعـانـا ولا لعانا) الحديث لم أظفر به في الجامع ولا في البخـاري وإنـما ذكـر حديثـا آخر لفظه (لم يكن النبي ﷺ سبابا ولا فحاشا ولا لعانا كان يقول لأحدنا عند المعتبة ماله تَرِب جبينه) أقول : المراد النهي عن التكثـير من ذلـك كما تدل عليـه صيغـة فعال ولكنه ﷺ لعن كثيرا من العصـاة ولأن الـبراءة هي إيجاب الشتم واللعن للكافرين لكن ليس الشتم بعبادة والله أعلم .

قال ابن حجـر : في المعتبـة بفتـح الميم وسكـون المهملة وكسر المثناة ويجوز فتحها بعدها موحدة وهي مصدر عتب عليه يعتب عتبا وعتابا ومعتبة ومعاتبة .

قال الخليل : العتاب مخاطبة الاذلال ومذاكرة الموجودة .

وقال في قوله (تربت جبينه) قال الخطابي يحتمل أن يكون المعنى خر لوجهه فأصاب التراب جبينه .

ويحتمل أن يكون دعا له بالعبادة كأن يصلي فيترب جبينه .

والأول أشبه لأن الجبين لا يصلي عليه .

قال ثعلب : الجبينان مكتنفان الجبهة ومنه قوله تعالى (وتله للجبين) أي ألقاه على جبينه .

قال ابن حجــر : قلت وأيضـا فالثـاني بعيـد جدا لأن هذه الكلمـة استعملها العرب قبل أن يعرفوا وضع الجبهة بالأرض في الصلاة .

وقال الداودي : قوله (تربت جبينه) كلمة تقولها العرب جرت على ألسنتهم من التراب أي يسقط جبينه للأرض وهو كقولهم (رغم أنفه) ولكن لا يراد معنى قولـه (تـربت جبينـه) بل هو نظـير ما تقـدم في قولـه (تـربت يمينك) أنها كلمة تجري على اللسان ولا يراد حقيقتها .

(قـال ﷺ ستكـون بعـدي أئمة لا يستنون بسنتي ولا يهتدون بهداي فقـالـوا كيف المخـرج يا رسول الله ؟ فقال أطيعوهم ما يمنعوكم الصلوات الخمس) قال عمر رحمه الله أطع الإمام وان ضربك أو حرمك أو ظلمك .

قولـه (ستكـون بعدي أئمة لا يستنون بسنتي ولا يهتدون بهداي . . الـخ) لم أظفـر أيضـا بهذا الحـديث في الجامع ولا في البخاري ولكن ذكر في الجـامـع من هذا القبيـل أحـاديث متعـددة منهـا (ستكـون أمـراء فتعرفون وتنكرون فمن كره برىء ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع . .) .

ومنهـا (ستكـون أمـراء تشغلهم أشيـاء يؤخـرون الصلاة عن وقتها فاجعلوا صلاتكم معهم تطوعا) .

ومنهـا (ستكـون بعـدي أئمـة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها صلوها لوقتها فإذا حضرتم معهم الصلاة فصلوا) .

ومنهـا (ستكـون عليكم أمـراء من بعـدي يأمـرونكم بما لا تعـرفون ويعملون بها تنكرون فليس عليكم بأئمة) .

ومنها (ستكون أئمة من بعدي يقولون فلا يرد عليهم قولهم يتقاحمون أي يقعون في النار كما تقاحم القردة) .

ومنها ستكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم يحدثونكم فيكذبونكم ويعملون فيسيئون العمل لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبيحهم وتصدقوا كذبهم فأعطوهم الحق ما رضوا به فإذا تجاوزوا فمن قتل على ذلك فهو شهيد) .

وكتب العلقمي على الحديث الأول ما نصه : وتمامه (قالوا أفلا نقاتلهم يا رسوا الله ؟ قال : لا ، ما صلوا) .

قال النووي : هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة بالإخبار بالمستقبل وقد وقع ذلك كما أخبر ﷺ .

وأما قوله ﷺ (فمن كره برىء) ومعناه من كره ذلك المنكر فقد برىء من إثمه وعقوبته وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه فليكرهه بقلبه ويبرأ إلى أن قال :

وقوله ﷺ (ولكن من رضى وتابع) معناه ولكن الإثم والعقوبة على من رضى وتابع .

وفيه دليل أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت ، بل إنما يأثم بالرضى به أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة .

وأما قوله (أفلا نقاتلهم قال : لا ما صلوا) ففيه أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم والفسق ما لم يغيروا شيئا من قواعد الإسلام .

وقال ابن رسلان قال : إلا ما صلوا الصلوات الخمس أي ما أقاموا فيهم الصلاة المعهودة بحدودها وأحكامها وأظهروا فعلها . . الخ .

أقول : هذا التفسير المذكور عن النووي وابن رسلان هو الذي يشير إليه ظاهر رواية المصنف رحمه الله في بيان كيفية المخرج والله أعلم . وكلام صاحب القواعد رحمه الله يدل على أنه يجوز الخروج عليهم لمن له قدرة على ذلك كالشراة رحمة الله عليهم ، وأن المكث تحتهم إنما هو على الرخصة حيث قال : (ومنهم من ضعف عن الجهاد فعاش تحت الظلمة متمسكا بالتَّقِيَّة) .

والأصل في هذا ما روي عن النبي ﷺ قال : (قدموا قريشا ولا تتقدموها وتعلموا منها ولا تعلموها وأطيعوهم ما أقاموا فيكم كتاب الله وسنتي فإذا عصوهما فلا طاعة لهم عليكم ثم خذوا أسيافكم واجعلوها على عواتقكم واضربوهم بها حتى يبدوا خضراءهم - أي سوادهم ومعظمهم - وإلا فعيشوا تحتهم حراثين فدادين حتى تلقوني بسوء الحال . . الخ) .

قوله (لا يستنون بسنتي ولا يهتدون بهداي) السنة في اللغة الطريقة وذكر في الصحاح أنها السيرة وذكر أن الهدي الرشاد والدلالة والمعنى ظاهر إلا أن يستنون مضارع استسن ولم يذكر في الصحاح هذه الصيغة ولا ما تصرف منها فليراجع غيره والله أعلم .

(وقد أمر رسول الله ﷺ بطاعة الأمير وإن كان فاجرا والصلاة عليه إذا مات فكيف غيره من أهل القبلة المقرين بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ومن قال غير ذلك فقد كفر كفرا دون الشرك) .

قوله (وقد أمر رسول الله ﷺ بطاعة الأمير وإن كان فاجرا) قال في الإيضاح في قوله ﷺ لمعاذ بن جبل يا معاذ (أطع كل أمير وصل خلف كل إمام) يعني والله أعلم كل أمير في طاعة الله .

يعني لما ورد من أنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق فالمناسب لصاحب الإيضاح أن يقول في التقييد أطع كل أمير فيما ليس فيه معصية الله فيشمل طاعته المباح إذا أمر به مثلا والله أعلم .

وقال ﷺ (أيما أمير ظالم فهو خليع وأيما أمير ظالم فلا إمارة له فليستجر الله من يحضرنه من المسلمين أو ليولوا عليهم أفضل فضلائهم في أنفسهم) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (لا يصلح هذا الأمير إلا لمن جمع خمسا إن نقصت واحدة لم تصلح الأربعة إلا بها : جمع المال من حله ، والعفة عنه بعد جمعه ، ووضعه بعد جمعه في حقه ، ولين لا ضعف معه ، وشر لا جبر وت فيها) .

قوله (أيما أمير ظالم فهو خليع . . الخ) يعني إذا غير شيئا من قواعد الإسلام كما تقدم جمعا بين الأحاديث فلا إمامة له والله أعلم .

وقال ﷺ ليؤمكم أخياركم فإنهم وفدكم إلى ربكم) .

قوله (ليؤمكم خياركم فإنهم وفدكم إلى ربكم) لفظ الحديث في الإيضاح (أئمتكم وفدكم إلى ربكم فانظروا من تفدون إلى ربكم) قال رحمه الله وأعجب لأهل هذا الزمان كيف عملوا بخلاف هذا الحديث إلا من شاء الله . . الخ ما أطال فيه فليراجع .

والوفد جمع وافد وهو الرسول قال في الصحاح : وفد فلان على الأمير إذا ورد رسولا فهووافد والجمع وفد مثل صاحب وصحب وجمع الوفد أوفاد ووفود ، والاسم الوفادة ، وأوفدته أنا إلى الأمير أرسلته الخ .

والمراد أن الأئمة رسل المأمومين إلى ربهم والوسائط بينهم وبين ربهم في قضاء حوائجهم فينظرون من يرجون أن يقضي الله حوائجهم على يده فلذلك يجب أو ينبغي أن يكون من أهل الولاية والله أعلم .

وقال ﷺ (لا صلاة لإمام أم بقوم وهم له كارهون) .

قوله (لا صلاة لإمام أم بقوم وهم له كارهون) لفظ الحديث في الإيضاح مغاير لهذا اللفظ وفيه زيادة كما ستراه حيث قال : وإنما ينبغي أن يقدم الإمام في الصلاةالمؤذن أو الذي أقام الصلاة وإن قدمه غير هؤلاء فلا بأس .

ولا ينبغي له أن يقدم هو نفسه إلا إن كان ممن يستحق ذلك إن لم

يكن معـه من يقـدمـه أومن كان إمـام المنـزل الذي اتفقوا عليه لما روي أن سلمان الفارسي رحمه الله أقام الصلاة بقوم معه ثم قال ليتقدم أحدكم فقالوا سبحان الله يا عبد الله ما كنا لنتقدم بك فقال أكلكم راض ؟ قالوا نعم فلما صلى أقبـل عليهم بوجهـه ثم قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقـول (ثلاثة يقـومـون إلى الصلاة ولا تقبل صلاتهم امرأة قامت وزوجها عليها غضبان والعبد الآبق ورجل صلى بقوم وهم له كارهون الخ) .

ومثله في الجـامـع بروايتـين إحـداهما (ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم العبـد الآبق حتى يرجـع وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط وإمام قوم وهم له كارهون) .

الأخـرى (ثـلاثـة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤ وسهم شبرا : رجل أم قوما وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان متصارمان .

قال شارحـــه في قولـه (لا تجاوز صلاتهم آذانهم) : أي لا ترفـع إلى السماء كما جاء في حديث ابن عباس عند ابن ماجة (لا ترفع صلاتهم فوق رؤ وسهم بشـبر) وهـو كناية عن عدم القبول كما جاء في حديث ابن عباس عند الطبراني (لا يقبل الله لهم صلاة) .

وقـــال في قولـه (رجـل أم قومـا وهم له كارهـون) قال الأمـيري قال الشـافعي والأصحـاب يكـره أن يؤم الـرجل قوما وأكثرهم له كارهون ولا

يكره إذا كرهه الأقل ، وكذا إذا كرهه نصفهم لا يكره ، صرح به صاحب الإبانة ، وإليه أشار البغوي وآخرون وهو مقتضي كلام الباقين فإنهم خصوا الكراهة بالأكثرين .

قال أصحابنا : إنما تكره إمامته إذا كرهوه لمعنى مذموم شرعا كوال ظالم ، وكمتغلب على إمامة الصلاة ولا يستحقها أو لا يحترز من النجاسات ، أو لمحوى هيئات الصلاة أو يتعاطى معيشة مذمومة أو يعاشر أهل الفسوق ونحوهم أو أشبه ذلك فإن لم يكن شيء من ذلك فلا كراهة والعتب على من كرهه . هكذا صرح به الخطابي والقاضي حسين والبغوي وغيرهم (وسواء نصبه السلطان أم لا هذا هو الصحيح المشهور) .

وحيث قلنا بالكراهة فهي مختصة بالإمام ، أما المأمومون الذين لا يكرهونه فلا تكره صلاتهم وراءه . كذا جزم به الشيخ أبو حامد إلى أن قال :

وأما المأموم إذا كره حضوره أهل المسجد فلا يكره له الحضور . نص عليه الشافعي والأصحاب لأنهم لا يرتبطون به .

ويكره للإمام الأعظم أن يولى على جيش أو قوم رجلا يكرهه أكثرهم ، ولا يكره إن كرهه أقلهم . نص عليه الشافعي إلى أن قال :

ولو كرهه الأكثر لأمر غير مذموم شرعا فلا تكره له الإمامة كما تقدم إلى أن قال :

نعم : إن كانت الكراهة لمعنى يفسق به كالزنا وشرب الخمر كره له الإمامة وكره لغيره الاقتداء به .

ولا معنى للفرق بين الأكثر وغيره إلا أن يخشى من الترك فتنة أو ضرر فلا يكره له الاقتداء وعليه يحمل اقتداء السلف بالحجاج وأمثاله كما نبه عليه الأوزاعي .

وكتب على قوله (وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط) ما نصه قال الدميري : يجب على الزوجة طاعة زوجها فيما لا معصية فيه .

قال : قلت وهذا يقتضي وجوب الطاعة في المباح وفيه نظر .

قال شيخنا قال الظهري : هذا إذا كان السخط لسوء خلقها ونشوزها .

قال : قلت والأولى أن يقال إذا كان السخط لتفويتها حقا من حقوقه المطلوبة منها .

أقول : وهذا هو المناسب لما ذكره في حقوق الزوج على المرأة من أنها لا تلزم بطحن وعجن ولا خبز ولا غزل ونحو ذلك إلا بإرادتها فحينئذ لا يضرها سخطه عليها بسبب ذلك والله أعلم .

وكتب على قوله (وأخوان متصارمان) أي متهاجران قال شيخنا قال الطيبي : أعم من أن يكونا من جهة النسب أو الدين .

وقال ﷺ (ليليني في الصف الأول أولو النهي منكم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .

قولــه (ليليني في الصف الأول أولــو النهي منكم . . الــخ) لفــظ الحـديث في الإيضـاح ليليني (الصف الأول أولو النهي منكم الحديث) وهو الظاهر كما هو ظاهر .

ولفظـه في الجـامع ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم وإياكم وهيشات الأسواق .

قال شارحه العلقمي : قوله (ليليني بكسر اللامين وتخفيف النون من غير ياء قبل النون ويجوز اثبات الياء مع تشديد النون على التأكيد ومن حق هذا اللفظ أن تحذف منه الياء أو تثبت مفتوحة لأنه من صيغة الأمر وقد وجد بإثبات الياء وسكونها في سائر كتب الحديث ، والظاهر أنه غلط .

أقول : إذا ثبتت الرواية كذلك يكون على حد قوله تعالى (إنه من يتقي ويصبر) على أحد الاحتمالين .

قولــه (ألم يأتيـك والأنبـاء تنمى) قال قال شيخنـا ابن سيـد النـاس الأحلام والنهي بمعنى واحد وهي العقول .

وقـال بعضهم المـراد بأولى الأحـلام البالغون وبأولى النهي العقلاء

فعلى الأول يكون العطف فيه من باب قوله (وألفى قولها كذبا ومينا) وهو أن تغاير اللفظ قائم مقام تغاير المعنى وهو كثير في الكلام ، وعلى الثاني يكون لكل لفظ معنى مستقل .

وقال في النهاية أي ذوو الألباب واحدها حلم بالكسر كأنه من الحلم بمعنى الأناءة والتثبيت في الأمور وذلك من شعار العقلاء .

والنهي هي العقول واحدها نهية بالضم سميت بذلك لأنها تنهي صاحبها عن القبح إلى أن قال في قوله (يلونهم) أي الأقربون منهم .

في هذا الوصف قال البيضاوي كالمراهقين ثم الصبيان المميزين .

وقال في قوله (وهيشات الأسواق) بفتح الهاء وسكون التحتية وإعجام الشين أي اختلاطها والمنازعة والخصومات واللغط فيها والفتن التي تقع فيها وارتفاع الأصوات .

وقال الخطابي هي ما يكون فيها من الجلبة وارتفاع الأصوات وما يحدث فيها من الفتن .

وأصله من الهوش وهو الاختلاط .

وقال في قوله (ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) بالنصب قال في النهاية

أى إذا تقـدم بعضهم على بعض في الصفـوف ثارت قلوبهم وفشـا بينهم الخلاف . إلى أن قال :

وقـال أصحـابنـا فإن كثـر المصلون بأن كان من كل جنس جماعـة فالرجال مقدمون لفضلهم ثم الصبيان لأنهم من جنس الرجال ثم الخناثى لاحتمال ذكورتهم ثم النساء إلى آخره .

قوله (تخير وا لإمامتكم وتخير وا لنطفكم) لم يذكر في الجامع إلا الشطر الثاني وزاد عليـه وذكـر فيـه روايـات منها (تخير وا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم) .

ومنها (تخير وا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه أخوالهن وإخواتهن) .

ومنها (تخير وا لنطفكم واجتنبوا هذا السواد فإنه لون مشوه) .

قال الشـارح : أي اطلبـوا لها ما هو خير المنـاكـح وأزكاها وأبعد من الخبث والفجور .

وكتب على قولـه (مشـوه) أي قبيـح وهـو من الأضـداد يقال للمرأة الحسنة الرائعة شوهـاء . أيضا .

وقال ﷺ (لعن الله المتسلط على أمتي بالجبر وت والمستأثر بفيئها) .

قولـه (لعن الله المتسلط على أمتي بالجبروت . . الخ) لم أظفر أيضا بهذا الحديث في الجامع ولا في البخاري .

وقد ذكر في الجامع نيفا وثلاثين حديثا في من لعنهم النبي ﷺ .

قال شارحه : وأصل اللعن الطرد والإبعاد من الله ومن الخلق للسب والدعاء . قاله في النهاية .

قولـه (المتسلط) من السلاطة وهي القهر ، قال في الصحاح : السلاطة القهر وقد سلطه الله سبحانه فتسلط عليهم ، الاسم سلطة بالضم والسلطان الوالي . . الخ .

قوله (بالجبروت) بغير همز على وزن فعلوت بمعنى الكبر .

قال في الصحاح : وتجبر الرجل أي تكبر ـ إلى أن قال ـ وجبروت وجبورة مثل فروجة أي كبر ـ إلى أن قال ـ والجبير مثل فسيق الشديد التجبر ، وقال قبل ذلك : والجبار الذي يقتل على الغضب .

قولـه (واستأثر بفيئها) الاستئثار بالثاء المثلثة الاستبداد بالشيء والاستقلال به .

قال في الصحاح : واستأثر فلان بالشيء استبد به والاسم الأثر بالتحريك . . الخ .

والفيء بفاء مفتوحة فياء ساكنة بعدها همزة قال في الصحاح : الخراج والغنيمة تقول منه أفاء الله على المسلمين مال الكفار يفيء إفاءة واستفأت هذا المال أخذته فياء إلى آخره .

(وقال علي ابن أبي طالب لما وجه رسول الله ﷺ إلى معاوية لعله أراد لما وجه رسله إلى معاوية ابن أبي سفيان (صلوا في رجالكم واجعلوا صلاتكم معهم سبحة فإن الله لا يتقبل إلا من المتقين) وقال : وكان الحسن البصري وسعيد بن حبيب يصليان في بيوتهما الجمعة ثم يخرجان إلى المسجد فيصليان مع والي بني أمية ويجعلان صلاتهما معه سبحة) .

قوله (ويصليان في بيوتهما الجمعة) المراد بالجمعة الظهر كما هو ظاهر والله أعلم .

قال الربيع قال أبو عبيدة بلغني عن رسول الله ﷺ قال (لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا شاهده وينكر الباطل إذا قدر عليه) ، قال ﷺ (قل الحق ولو كان مرا ولا تشرك بالله شيئا وإن عذبت أو حرقت) قال الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد يعني بذلك الشرك بالقلب وأما باللسان فقد أباحه الله لمن أكره) .

قوله (يعني بذلك الشرك بالقلب الخ) المناسب أن يزيد رحمه الله أو بغير اللسان من الجوارح وأما اللسان . . الخ وذلك لأن التقية في أفعال الجوارح غير جائزة كأن يكرهه على السجود لصنم مثلا كما هو معلوم قال الشيخ أبو نصر رحمه الله :

وقالوا تقات الموت في القول جائز
وفي الفعل محصور وليس بممكن

وذلـك لأن المكـره عندنا مكلف فيها يتعلق بالأفعال دون الأقوال كما بينه في العدل وشرحه حيث قسم الأفعال إلى ثلاثة أقسام ولنورد عبارتها لما فيهما من الفوائد إلا أن في بعضها تدافعا بحسب الظاهر كما ستراه والله أعلم .

قال الماتن رحمه الله وتنقسم أفعاله كلها ثلاثة أقسام : قسم اختياري وقسم ضروري وقسم كراهة .

فأما الاختياري فما اختاره واكتسبه عن إرادة .

وأمـا الكـراهـة فما فعله مضطـرا إليه بالضرب والقتل والإيذاء فهذا اختيـاري ضروري فلا يعـذر في شيء من هذه إلا ما يتعلق باللسـان إذا أظهرت الضرورة من ضرب أو قتل .

أقـول : زاد ابن جعفـر رحمـه الله في صفـة الاكـراه شيئـا ثالثـا وهـو التجليد في السجن عندنا .

قال : وأما غير ذلك من منع الفصل وظلم المال والأهل من وضع أو رفع أو أكل أو شرب وجميع المنافع وصرف جميع المضار فلا يسع .

وأجـاز بعض المعتـزلـة الضـرورة في هذا قياسا على اللسان في جميع المعاصي إلا ما كانت فيه مظلمة للغير وهو أيضا قول أبي الحسين .

وأمـا الضـرورة فمعذور فيها لا إثم ولا غرم مثل أن يسحب أو يرمي من فوق فيهلك أحدا على يده .

وقال بعضهم إن المضطر بالسيف سوغ له كل شيء من شرب الخمر والزنا والقتل وهو خطأ محض .

وبعضم يقـول لا يسـوغ له الشرك إلا بالتورية واستدلو بقول رسول الله ﷺ وقـد كتب إلي ناس قبـل موتـه بشهر (أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب ولا تشرك بالله شيئا ولو عذبت أو حرقت بالنار) .

أقـول : وليس في هذا الحـديث دليل على ما قالوه بل ظاهره تحريم الإشراك مطلقا ولكنه مؤ ول بما تقدم لأجل الآية ·

قال الشـارح رحمـه الله بعـد كلام طويـل على أوصـاف الأفعـال ما نصـه : والعبـد هو الفاعل الكسبَ المريد المختار فلا يصح عندنا التكليف ولا يتحقق إلا ممن تجمعت فيه هذه الأوصاف ·

فإن كان فاعـلا بقـدرة حادثـة فيـه مع المقـدور باختيـار وقصد وعلم وإرادة موجـودة مع المـراد فهـذا عين الكسب عنـدنـا وإلى هذا بعينه قصد بالقسم الاختياري

والضـــروري نقيضــه وهـــو ما عدم فيـه القصـد والكسب والإرادة والاختيار ولا يوصف فاعله بالقدرة عليه ولا حكم له بالعزم ولا في الإثم .

وقد فسر الضرورة ومثل لها تمثيلا كافيا ٠

وأما القسم الثالث وهو الكراهة ـ إلى أن قال يقال أكره الرجل على كذا وكـذا إذا فعله مجبورا مضطرا إليه من غير إرادة ولا اختيار ولا جبر ولا زم فإذا أراد واختار واحب وإلا فهو معذور ٠

والإكـراه إنـما ينفي الإرادة والمحبة والرضي والكـراهـة من وادى البغض والعـداوة . وهـذا القسم هو نقطة الـدائرة وعليه مدار الفعال فإن الاختياري المختار مكلف وفاقا ونقيضه وهو الاضطراري غير مكلف وفاقا والتنازع في الثالث هل يتعلق به التكليف أم لا ٠

فالمـذهب فيـه إنـما يعلق باللسان أمر الشرك والكفر وبراءة المسلمين وولاية الكافرين وتسفيه الحق ، وتصويب الباطل والطلاق والعتاق والبيع والشراء والنكاح والإنكاح وجميع ما يتعلق باللسان فهو واسع وإن كان هذا كله يتعلق به التكليف فهو معذور فيه محطوط عنه ، فيه الإثم ، والتكليف مرفوع فيه ٠

وأما مايتعلق بالجوارح أو فيه فساد الأنفس فلا يسع وهو مكلف فيه مأمور منهى متعبد في ذلك .

قال رحمـه الله ونضـع ها هنـا قاعـدة يتمهـد منها دخول أفعال المكره بجـوارحـه تحت التكليف وتحقق أن المكـره يفعـل باختيـار وقصـد وإرادة واكتساب وأنه في عمل الجوارح ممن يتعلق به خطاب الشارع فنقول :

اعلم أن المكره هو الذي يضطر إلى أن يعمل بجوارحه فعلا بقصد واختيار وإرادة فإن من به رعشة ورعدة وحركة ضرورية فلا يتصور فيه إكراه إلا على تحريك جارحة من جوارحه بإكراه ، ولا يتصور إكراه إلا على فعل يقع من المكتسب بقصد إليه واكتساب واختيار .

فمهما تمهدت لك هذه القاعدة فاعلم أن المكره الذي تواضعت عليه الفقهاء وتخاطبوا فيه هو الذي يخوف ويضطر إلى أن يحرك يده أو جارحة من جوارحه على اختيار واقتدار بقصد وتعمد .

فإذا أحطت علما بهذا المثال قطعت بأن أفعال المكره مقدورة له مكتسبة مقصودة له بإرادة منه لها مختارة له عن غيرها فحينئذ تقطع بتكليفه وإلزامه في جميع ما يدخل تحت وسعه واقتداره .

ثم إنه قد أجمع العلماء قاطبة على توجه النهي عن القتل على المكره على قتل إنسان وأنه يقاد به ويقتل فيه إلا على مذهب بعض المعتزلة وأبي حنيفة .

وقد زعمت المعتزلة أنه لا يصح تكليف المكره مع موافقتهم على اقتداره إلى أن قال :

قوله (فلا يعذر في شيء من هذا إلا فيما يتعلق باللسان إذا ظهرت الضرورة من ضرب أو قتل) هذا يشير به إلى الحد والمقدار الذي تقوم به

الحجـة للمكـره عنـد الله سبحـانه ويتصف فيه أنه مكره مجبور مضطر ملجأ وفيه خلاف وتفصيل في فن الفقه فلنعتمد عليه .

ومن أراد من المتمـذهبـين بمـذهب الحق الصراط السوي والطريقة الوسطى فليعتمد على ما في الجامع المضاف إلى أبي جابر محمد بن جعفر الإزكوي فإن فيه غنية .

ولا يسمح له التقية على أصولنا إلا ضرب يقع عليه في ذاته أو قتل خاصة .

وقيـل إذا خاف وظهـرت القـرائن الـدالـة على ذلـك مثـل التهديد وإحضار السوط وإشهار السيف وإشراع الرمح .

وقيل إذا علم منه في الماضي إيقاعه وبطشه إلى آخر ما أطال فيه .

ثم قال : وذكـر الشيـخ الأذى في قولـه بالقتـل أو بالضرب أو بالأذى والمعـروف فيـه أنـه الضـرر الخفيف باللسـان مثل الشتم والتعييب قال الله سبحـانـه (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) إلى أن قال ، والإذاية باللسان لا توجب تقية ولا تقية باللسان إلا في القتل وما دونه من الضرب والله أعلم الخ .

أقول : وقوله (إلا في القتل) أي إلا في خوف القتل .

وأمـا الضـرب فانظـر هل يكفي فيه مجرد الخوف أو لابد من الشروع فيه بالفعل وهو المتبادر من المقابلة في قوله .

وقيل إذا خاف وظهرت القرائن الخ .

لكن كلام ابن مسعـود رحمـه الله يدل على أنـه يكفي في التقية مجرد الخوف وأنه لا فرق في جميع ما يتعلق باللسان ٠

قال في السـؤالات وإن جبروه على الفتي والفتـوى جميعا بغير الحق فلا يجوز له ذلك ٠

قال عبـد الله بن مسعـود رضي الله عنـه لو علمت كلمة أقي بها عن نفسي ضربة سوطين لقلتها ولم يخص كلمة دون آخرى والله أعلم فليحرر ٠

وتكلم الشارح رحمه الله على معنى التورية عند من يشترطها قال : ومعنـاهـا أن تذكر شيئا وترى سامعك أنك تريد معناه وأنت تريد غيره وهو المعاريض إلى أن قال : وحقيقته إيهام السامع بمعنى وفي نفسك خلافه الخ .

وظـاهـر كلامـه رحمـه الله بل صريحـه أن المكـره على فعـل الجوارح مكلف مختار ، وأن المكره على ما يتعلق باللسان غير مكلف ولا مختار وإنما

مجبور مضطر ملجأ مع أنك إذا تأملت وجدت لا فرق بين تحريك يده مثلا ولسانه في أن كلا منهما داخل تحت قدرته .

فمدار الفرق ـ والله أعلم ـ أن ما يتعلق باللسان يشترط فيه موافقة القلب وهي مفقودة فلم يتم في الحقيقة ما أكره عليه ، فلذلك لم يؤاخذ وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) .

فلو وافق القلب عند الإكراه ما نطق به اللسان أوخذ بذلك وإليه الإشارة بقوله (ولكن ،ن شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله) وأما ما يتعلق بالجوارح غير اللسان فإنه لا يتوقف على شيء فإذا فعله فقد تم ما أكره عليه ، وهو لا يجوز له لأنه قصده ورجحه على نزول العقوبة به فلذلك أوخذ به والله أعلم .

أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال (إياكم وقتل ذراري المشركين ونسائهم إلا من قاتل منهن فإنها تقتل) قال رسول الله ﷺ (أهل حصن وكانت امرأة تقوم فتكشف فرجها بحذاء النبي ﷺ وهي تقاتل فأمر رسول الله ﷺ الرماة أن يرموها فرماها سعد بن أبي وقاص فما أخطأها فسقطت ميتة) .

قوله (إلا من قاتل منهن فإنها تقتل) وكذا المرتدة تقتل .

قال في السؤالات : والمرأة إذا ارتدت تقتل عندنا ولا تقتل عند

النكــار ، وقيــل له عليـه السـلام لما نهى عن قتـل الـذرية من يقتـل من المشركات يا رسول الله ؟ قال المرتدات . ومن أعان منهن على القتال .

أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال بلغني أن رسول الله ﷺ بعث علياً في سرية فقـال : يا علي لا تقـاتـل القـوم حتى تدعـوهم وتنـذرهم وبـذلك أمرت ، وقال وجيء بأساري من حي من أحياء العرب فقالوا يا رسول الله ما دعـانـا أحـد ولا بلغنـا فقـال : الله فقالوا الله فقال خلوا سبيلهم ثم قال حتى تصـل إليهم دعـوتي فإن دعوتي تامة لا تنقطع إلى يوم القيامة ثم تلا رســول الله ﷺ هذه الآيـة (وأوحي إلى هذا القـرآن لأنـذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون) قال : وقال ابن عمر والحسن إن دعوة رسول الله ﷺ قد تمت في حيـاتـه وانقطعت بعـد موته فلا دعوة اليوم قال الربيع قال أبو عبيدة الدعوة غير منقطعة إلى يوم القيامة إلا من فاجأك بالقتال فلك أن تدفع عن نفسك بلا دعوة .

قوله (بعث علياً في سرية فقال يا علي لا تقتل القوم . . الخ) بحثت عن هذا الحـديث في الجـامـع وفي البخاري والمواهب في السرايا التي خرج فيها علي فلم أظفر به ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

وتعرض له في السؤالات أيضا حيث قال فإن قال ما الدليل على أن المشرك لا يقتل حتى يدعى إلى الجملة فقد روي عن النبي ﷺ بعث سرية فقال يا علي لا تقاتل القوم - إلى قوله - ومن بلغ إلى آخر الآية .

قولـه (لأنـذركم به ومن بلغ) ذكـر فيه البيضاوي احتمالين حيث قال

(لأنذركم به) أي بالقرآن واكتفى بذكر الإنذار على ذكر البشارة ، ومن بلغ عطف على ضمير المخاطبين أي لإنذاركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر أو من الثقلين ، أو لأنذركم أيها الموحدون ومن بلغه إلى يوم القيامة .

وهذا دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجدين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه .

أقول : وهو كذلك قتلى من كان على دين نبي من الأنبياء بخلاف غيره كما هو معلوم .

قوله (قد تمت في حياته وانقطعت بعد موته) هذا يشبه قول النكار أن الحجة فيها لا يسع السماع وأن الناس كلهم قد سمعوا .

والرد عليهم مذكور في المطولات كالموجز وغيره .

قوله (فلا دعوة اليوم) يعني أن الكفار يقاتلون بعد موته ﷺ من غير دعاء إلى الإسلام والحق ما ذكره المصنف رحمه الله .

قال جابر سئل ابن عباس عن التقية فقال : قال النبي ﷺ (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما لم يستطيعوا وما أكرهوا عليه) .

قوله (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان . . الخ) قال العلقمي : قال في المصباح : والخطأ مهموز بفتحتين ضد الصواب يقصر ويمد .

ثم قال في النسيان : قال أيضا ونسيت الشيء أنساه نسيانا مشترك بين معنيين :

أحدهما : ترك الشيء على ذهول وغفلة وذلك خلاف الذكر له .

والثاني : الترك على تعمد وعليه (ولا تنسوا الفضل بينكم) أي لا تقصدوا الترك والإهمال .

ويتعدى إلى ثان بالهمزة والتضعيف ونسيت ركعة أهملتها ذهولا ورجل نسيان وزان سكران .

والمراد من قوله (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) رفع إثمهما لأن الواقع لا يرفع .

ثم إنه إذا تعلق الخطأ والنسيان بما هو من خطاب الوضع تعلق الضمان بالفاعل مطلقا أي سواء كان طفلا أو بالغا عاقلا كان أو مجنونا فلذلك تسمعهم يقولون (الخطأ لا يزيل الضمان) وذلك في الأنفس والأموال والله أعلم .

قوله (وما أكرهوا عليه) قال العلقمي : قال في المصباح الكره بالفتح المشقة وبالضم القهر وقيل بالفتح الإكراه وبالضم المشقة الخ .

أقول : وبهذا جزم في السؤالات واستدل للفتح بقوله تعالى (حملته

أمه كرها ووضعته كرها) وللضم بقوله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) . عدنا قال وأكرهته على الأمر إكراها حملته عليه قهرا يقال فعلته كرها أي إكراها .

قال وحد الإكراه أن يهدد المكره قادر على الإكراه بعاجل من أنواع العقوبات يؤثر العاقل لأجله الإقدام على ما أكره عليه وغلب على ظنه أنه يفعل به ما هدده به إن امتنع مما أكرهه عليه وعجز عن الهرب والمقاومة والاستغاثة بغيره ونحوها من أنواع الدفع .

ويختلف الإكراه باختلاف الأشخاص والأسباب المكره عليها في فروع محلها كتب الفقه .

وتقدم أن الإكراه إنما يعفي عنه فيما يتعلق بالأقوال على تفصيل فيها دون الأفعال والله أعلم .

وأما قوله (وما لم يستطيعوا) فلم يذكره في حديث الجامع لأنه من المعلوم عقلا وشرعا أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها والله أعلم .

وقال : قال ابن مسعود (ما من كلمة تدفع عني ضرب سوطين إلا تكلمت بها وليس الرجل على نفسه بأمين إذا ضرب أو عذب أو حبس أو قيد) .

قوله : (وقال ابن مسعود ما من كلمة . . الخ) واستدل به في الإيضاح

على أن الإكراه فيما يتعلق بالقول لا ينقض الوضوء ، حيث قال : وأما الإكراه فسائغ في الشرك إذا ظهر الخوف على نفسه أوماله الذي يؤدي تلفه إلى تلف نفسه بشرط طمأنينة القلب بالإيمان لقوله عز وجل (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وما سواه الشرك من جميع ما يقوله بلسانه جائز ، قياسا على الشرك ، وهومن قياس المعنى ، إذ الشرك أشد منه . وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه . . الخ قوله (إذا ضرب أوعذب أوحبس أو قيد) .

لفظ الحديث في الإيضاح فيه زيادة وتقديم وتأخير وتغيير فإنه قال (إذا عذبت أو ضربت أو قيدت أو عدت أو جوعت أو خوفت وبايع الناس) قال : ولعله أراد إذا اتقى يبايع من لا يستحق البيعة الخ .

وقوله (من جميع ما يقوله بلسانه جائز) يعني إلا فيما يؤدي إلى ظلم الغير كشهادة الزور والدلالة على مال الغير ونحو ذلك .

وقوله (إذا عذبت أو ضربت الخ) لعل التاء فيه للتأنيث فيكون الضمير راجعا إلى نفسه ليوافق رواية المصنف في إرجاع الضمير إلى الرجل والله أعلم .

(قال جابر سئل ابن عباس عمن قال إنه يستطيع أن يعمل بما أمر الله به ويكف عما نهاه الله عنه من غير أن يخلق فعله ؟ فقال : سأل سراقة بن جشعم رسول الله ﷺ ما العمل يا رسول الله في أمر مبتدأ مستأنف أم في

شيء قد فرغ الله منـه ؟ فقـال : في شيء قد فرغ الله منـه ثم قال ففيم العمل إذاً يا رسول الله ؟ فقال : اعملوا فكلكم ميسر لما خلق له) .

قولـه (من غير أن يخلق له فعله) هذا السؤال موافق لما ذهب إليـه المعتـزلـة فإنهم هم القـائلون بأن الانسـان يخلق أفعـالـه فأكـذبهم القـرآن وأحـاديث الـرسـول عليـه السـلام كما بين في المطـولات ، وسيأتي بعض الكلام على ذلك إن شاء الله .

قولـه (سأل سراقـة بن جشعم) لفظه في ابن حجر حكاية عن مسلم أنه سراقة بن مالك بن جشعم .

قال ولفظه (جاء سراقة فقال يا رسول الله العمل اليوم فيما جفت به الأقـلام وجـرت به المقـاديـر أو فيـما يستقبل ؟ قال بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، قال ففيم العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له) .

وأخـرجـه الطبراني وابن مردويه نحوه وزاد واقرأ (فأما من أعطي إلى قوله ـ العسرى الخ) فذكر فيه رواية منها (أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع أو أمر قد فرغ منه ؟ قال فيما قد فرغ منه الخ .

قال : وقال في محل آخر : ولمسلم من طريق أبي الأسود عن عمران أنه قال له أرأيت ما يعمل الناس اليوم أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من

قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .

قال ابن حجر : وفيه قصة لأبي الأسود الدؤلي مع عمران ، وفيه قوله له (أيكون ذلك ظلما ؟ قال : لا كل شيء خلق الله وملكه فلا يسأل عما يفعل إلى أن قال :

وقوله (كل شيء خلق الله وملكه) يشير إلى أن المالك الأعلى الخالق الآمر لا يعترض عليه إذا تصرف في ملكه بما شاء وإنما يعترض على المخلوق المأمور .

قوله (ففيم العمل إذاً يا رسول الله) في بعض الروايات عند قومنا (فلم يعمل العاملون) قال ابن حجر : والمعنى إذا سبق القلم بذلك فلا يحتاج العامل إلى العمل لأنه مسير إلى ما قدر له .

قوله (اعملوا فكلكم ميسر لما خلق له) في بعض الروايات (كل يعمل لما خلق له) أو (لما يتيسر له) أو (يسر له) وفي بعضها (كل امرىء مهيأ لما خلق) .

وذكر ابن حجر فى رواية المصنف رحمه الله أنه رواها جماعة من الصحابة يزيدون على العشرة فبينهم وقال : في مثل هذا الحديث وهو

قوله ﷺ (قال رجل يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال نعم قال فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له) ما نصه .

وفي الحديث إشارة إلى أن المآل محجوب على المكلف فعليه أن يجتهد في عمل ما أمر به فإن عمله أمارة إلى ما يئول إليه أمره غالبا .

وإن كان بعضهم قد يختم له بغير ذلك لما في حديث ابن مسعود وغيره لكن لا اطلاع له على ذلك فعليه أن يبذل جهده ويجاهد نفسه في عمل الطاعة ولا يترك وكولا إلى ما يئول إليه أمره فيلام على ترك المأمور ويستحق العقوبة ، قال انتهى .

وقد ترجم ابن حبان بحديث الباب (ما يجب على المرء من التشمر في الطاعات وإن جرى قبلها ما يكره الله من المحظورات . . الخ .

وقال ﷺ (ما كان كفر إلا تكذيبا بالقدر) .

قوله (ما كان كفر إلا ما كان مفتاحه تكذيبا بالقدر) قال ابن حجر : والقدر بفتح القاف والمهملة ، قال الله تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر) .

قال الراغب : القدر فوصفه دل على القدرة وعلى المقدور الكائن بالعلم ، ويتضمن الإرادة عقلا والقول نقلا .

أقول والله أعلم يعني قوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) .

وفيه أن المراد بقوله (كن) سرعة التكوين لا أنه مخاطبة بذلك لأن مخاطبة المعدوم محال والله أعلم .

قال : وحاصله وجود شيء في وقت وعلى حال يوافق العلم والإرادة والقول ، وقدر الله الشيء بالتشديد قضاء ويجوز بالتخفيف .

وقال ابن القطاع قدر الله الشيء جعله بقدر والرزق منعه وعلى الشيء ملكه إلى أن قال :

وقال الكرماني : المراد بالقدر حكم الله ، وقالوا أي العلماء القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل ، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله .

وقال المظفر بن السمعاني :سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل فمن عدل على التوقيف فيه ضل وتاه في بحر الحيرة ولم يبلغ شقاء النفس ولا ما يطمئن به القلب لأنه سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة فلم يعلمه نبي مرسل وملك مقرب .

وقيل إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف قبل دخولها .

وقد أخرج الطبراني بسند حسن من حديث ابن مسعود رفعه (إذا ذكر القدر فأمسكوا) وأخرج مسلم من طريق طاوس ، أدرك ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ (كل شيء بقدر) .

وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس) قال : قلت : والكيس بفتح الكاف ضد العجز ومعناه الحذق في الأمور ويتناول أمور الدنيا والآخرة .

ومعناه أن كل شيء لا يقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئته وإنما جعلهما في الحديث غاية لذلك للإشارة إلى أفعالنا وإن كانت معلومة لنا ومراده منا فلا تقع مع ذلك منا إلا بمشيئة الله .

وهذا الذي ذكره طاوس مرفوعا وموقوفا مطابق لقوله تعالى (انا كل شيء خلقناه بقدر) فإن هذه الآية نص في أن الله تعالى خالق كل شيء ومقدره ، وهو أخص من قوله تعالى (خالق كل شيء) . وقوله (والله خلقكم وما تعلمون) .

واشتهر على ألسنة السلف والخلف أن هذه الآية نزلت في القدرية وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة (جاء مشركو قريش يخاصمون النبي ﷺ في القدر فنزلت الخ) فذكر أن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان .

أقول : وهو كذلك كما يدل عليه سؤال جبريل المتقدم وتقدم بيان القدرية وكيفية الرد عليهم .

وذلك أنهم يسألون عن العلم فإن أقروا به أقروا بالقدر لكن كفى في الرد عليهم نصوص القرآن .

قال ابن حجر : ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى قال تعالى (وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) .

وقال في محل آخر في معنى قوله تعالى (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي حكما مقطوعا به والمراد بالأمر واحد الأمور المقدرة .

ويحتمل أن يكون واحد الأوامر لأن الكل موجود بكن .

وفي كونه موجودا بكن تأمل ، لأن المراد به سرعة التكوين من غير مخاطبة بقوله كن لأن مخاطبة المعدوم محال ، ومخاطبة الموجود بقوله كن يستلزم تحصيل الحاصل وهو محال أيضا والله أعلم .

وقال ﷺ (القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تصلوا عليهم) .

قوله (القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تصلوا عليهم) لفظه في الجامع (وإن ماتوا فلا تشهدوهم) ولعل المراد التغليظ وإلا فالصلاة واجبة على الموتى المقرين بالله ورسوله والدليل على أنهم ليسوا بمشركين إضافتهم إلى هذه الأمة .

قال العلقمي : وقال الخطابي : إنما جعلهم مجوسا لمضاهات مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من أفعال النور والشر من أفعال الظلمة فصاروا ثنوية .

وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله تعالى خالق الأمرين معا .

أقول : وقوله (وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره) هذا مذهب لبعض القدرية لا كلهم وهم الذين نصب ابن النظر رحمه الله معهم الجدال .

وبعضهم يضيفون أفعال العباد كلها إليه ويقولون إن الانسان يخلق أفعاله مطلقا خيرا كان أوشرا ، وهم المشهورون عند أهل المغرب ولم ينصبوا الجدال إلا معهم فيما اطلعت عليه .

ويلزمهم أيضا القول بإلهية اثنين لأن الانسان يصير الله فعله حيث كان خالقا له والله أعلم .

وقد تقدم الكلام على القدر مرارا في أول الكتاب وغيره والذي عليه المسلمون ومن وافقهم : أن الفعل المختار للعبد له جهتان جهة خلق تضاف إلى الله ، وجهة كسب تضاف إلى العبد وعليها جرى الثواب والعقاب والمدح والذم والإحسان والإساءة والطاعة والمعصية إلى غير ذلك كما هو معلوم .

وقـد تقـدم معنى الكسب في كلام الشيخ أبي القاسم البرادي رحمه الله فليراجـع ، وقـريب منـه كلام القوم حيث قالوا : إنه عبارة عن مقارنة القدرة الحادثة للفعل والله أعلم .

وقال ابن عباس خرج النبي ﷺ يوما وبيده صحيفة فقال (بسم الله الـرحمن الـرحيم كتاب من الله الرحمن الرحيم بأسماء أهل الجنة وأسماء أهل النار ومنازلهم) .

قوله (خرج النبي ﷺ يوما وبيده صحيفة . . الخ) لفظ الحديث في شرح العقيـدة لعمنـا داوود رحمـه الله مخالف للفظ هذا الحديث في كثير من ألفاظه كما هو معلوم ، ونبه عليه ابن حجر في الحديث الآتي في النطفة إذا وقعت في الرحم حيث قال بعد كلام يتعلق بما سبق من السعادة والشقاوة ما نصـه : ولأحمـد والنسـائي والـترمـذي من حديث عبد الله بن عمر (خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان . . الحديث) وفيه (هذا كتاب من رب العـالمـين فيـه أسـماء أهل الجنة وأسماء أبائهم وأسماء قبائلهم . . الخ) وأما رواية المصنف رحمه الله فلم أطلع عليها لغيره والحافظ حجة والله أعلم .

قال ﷺ (أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب فقال : يارب وما أكتب ؟ قال : أكتب القدر فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة) .

قولـه (أول ما خلق الله القلم) لفـظ الحـديث في شرح العقيدة أيضا (أول ما خلق الله العرش والماء والقلم) فإن ثبت يكون هذا مبينا للمتقدم منها .

ومثـل روايـة المصنف روايـة صاحب القناطر رحمه الله حيث قال وفي الحـديث (أول ما خلق الله القلم فقـال له اكتب فقال : يارب وما أكتب ؟ فقـال اكتب علمي في خلقي فيجـري القلم بما هو كائن إلى يوم القيـامـة) وزاد حديث آخـر من الأحـاديث القـدسيـة لفظـه (قال الله : أنا الله الذي لا إلـه إلا أنـا خلقت الخـير والشر وقدرتهما على يدي من يكون فطوبي لمن خلقته للخير وقدرته على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وقدرته على يديه) إلى آخر ما أطال فيه من الأحاديث والآثار) .

قوله (وما أكتب قال اكتب القدر) الرواية في القناطر (اكتب علمي في خلقي) كما تقـدم ولعـل المـراد به ما علم أنـه يصدر منهم . وتقدم عن ابن حجر أنه قال في قوله تعالى (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي حكما مقطوعا به .

وقـال ابن وصـاف في الآيـة أي فعـلا مفعـولا وتقـدم في الفـرق بين القضاء والقدر أن العلماء قالوا : القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل والقدر جزيئات ذلك الحكم وتفاصيله .

وقـال الشيـخ زكـريـا الأنصـاري في شرح الطـوالـع في الفرق بينهما القضـاء إيجـاد جميـع الكـائنات إجمالا في اللوح المحفوظ أو في علمه تعالى والقـدر إيجـادهـا تفصيلا في المواد الخارجية واحدا بعد آخر قال تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) .

وقـال في التلويـح : القضـاء هو الحكم من الله تعـالى والأمر أولا ، والقدر هو التقدير والتفصيل بالإظهار والايجاد .

وفي كلام الحكماء : القضاء عبارة عن وجود المخلوقات في الكتاب المبين واللوح المحفوظ مجتمعة مجملة على سبيل الإيداع ، والقدر عبارة عن وجودها مفصلة منزلة في الأعيان بعد حصول الشرائط كما قال عز وجل (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقريب منه ما يقال (القضاء ما في العلم ، والقدر ما في الإرادة) ويقال : إن الله تعالى إذا أراد شيئا قال له كن فهناك شيئان الإرادة والقول فالإرادة قضاء والقول قدر .

وفي حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه في بيان كيفية الإيمان بالقدر ما يدل على أن القدر هو ما يصيب الإنسان مثلا من خير وشر أو يخطئه ، وأن الإيمان به هو العلم المتعلق بذلك حيث قال : (أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك) وذكر عنه في القناطر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (القدر على هذا . فمن مات على غيره دخل النار) والله أعلم .

قوله (فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة) هذا ما يدل على أن القدر اسم لما يوجد في الخارج من العالم وما جرى عليه لأن هذا الذي جري به القلم إلى يوم القيامة والله أعلم .

وقال في السؤالات والقدر معناه انتهاء الأمور إلى أوقاتها وارتجاعها إلى مقدورها والقدر يتصرف على ثمانية أوجه يخرج على الخلق قال الله عز وجل (والذي قدر فهدى) أي خلق الخ .

وقال ﷺ (إذا وقعت النطفة في الرحم أمر الله ملك الأرحام أن اكتب فقال يارب ما أكتب ؟ فقال اكتب سعيدا أو شقيا بعمله وأثره وعلمه وأجله ورزقه) .

قوله (إذا وقعت النطفة في رحم . . الخ) لفظه في البخاري مغاير لهذا وذكر فيه روايتين :

إحداهما : لفظها في بعض الروايات (حدثنا رسول ﷺ وهو الصادق المصدق قال : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله شقي أو سعيد فوالله إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وإن أحدكم يعمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها) .

والثانية : لفظها عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال (وكل الله بالرحم ملكا فيقول : (أي رب نطفة أي علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال : يارب ذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه) .

وكتب الشارح على الحديث الأول شيئا كثيرا منه ما كتبه الفاكهاني

في شرح الأربعين النووية على قوله (يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما) حيث قال : قال الشيخ أبو العباس القرطبي في مفهمه والله أعلم : إن المني يقع في الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدافعة متفرقا فيجمعه الله تعالى في محل الولادة من الرحم في هذه المدة وقد جاء في بعض الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه تفسير (يجمع في بطن أمه) أن النطفة إذا وقعت في الرحم فأراد الله تعالى أن يخلق منها بشرا طارت في بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم مكثت فيه أربعين ليلة ثم تصير دما في الرحم جمعها وذلك وقت كونها علقة والعلق الدم) الخ .

قال ابن حجر : الهيثمى في (يجمع أي يضم ويحفظ خلقه أي مادة خلقه وهو الماء الذي يخلق منه الخ ، يعني أنه على حذف مضاف .

قال الفاكهاني : والمضغة قدر ما يمضغه الماضغ من لحم أو غيره .

وقوله (ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح) يعني الملك الموكل بالرحم كما قال في حديث أنس رضي الله عنه (إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكا) .

وظاهر هذا السياق أن الملك عند مجيئه ينفخ الروح في المضغة وليس الأمر كذالك بل إنما ينفخ فيها بعد أن تشكل تلك المضغة بشكل ابن آدم وتصور بصورته كما قال تعالى (فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) قال تعالى في الآية الأخرى (من مضغة مخلقة وغير مخلقة) فالمخلقة المصورة وغير مخلقة السقط قاله أبو العالية وغيره .

وهـذا التخليق والتصـويـر يكون في مدة أربعين يوما وحينئذ تنفخ في الروح وهو المعني بقوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) في قول الكلبي والحسن من التفسيرين .

قال القاضي عياض ولم يختلف في أن نفخ الروح فيه إنما يكون بعد مائة وعشرين يوما وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ، وهل موجود بالشـاهـرة ؟ وعليـه يقـول فيـما يحتـاج إليـه من الأحكام والاستلحاق عند التنازع ووجوب النفقات على حمل المطلقات وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف .

وقـد قيـل الحكمـة في عدة المـرأة من الـوفـاة بأربعة أشهر وعشر وهو الدخول في الخامس تحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذ لم يظهر حمل .

ونفخ الملك في الصورة سبب يخلق الله عنده فيها الروح والحياة لأن النفخ المتعارف إنما هو الخارج ريح من النافخ يتصل بالمنفوخ فيه ولا يلزم منه عقلا ولا عادة في حقنا تأثير في المنفوخ وإن قدر حدوث شيء عند ذلك النفـخ فذلـك بإحـداث الله تعـالى لا بالنفخ وغاية النفخ أن يكون متعديا عادة عاديا لا موجبا عقليا .

وكذلك القول في الأسباب المعتادة فتأمل هذا الأصل وتمسك به ففيه النجاة من مذاهب الضلال وغيرهم .

قولـه (أمـر الله ملك الأرحـام أن اكتب) الـخ ظاهـر هذه الرواية أن

الكتابة تصدر من الملك عليه السلام عقب وقوع النطفة في الرحم من غير تراخ ، والمصرح به في كتب القوم على المشهور أن الكتابة إنما يؤمر بها الملك وتقع بعد كونه مضغة كما وقع به التصريخ في الحديثين المتقدمين وهو المناسب لكتابة السعادة والشقاء والأجل والرزق وغير ذلك اللهم إلا أن يقال على التقدير ثبوت ما ذكروه المراد أنه يؤمر إذا وقعت النطفة في الرحم بالكتابة إذا صارت مضغة مخلقة .

أو يقال المعنى إذا وقعت النطفة وصارت مضغة أمر الله الخ .

أو يقال المراد بالنطفة المضغة وسميت بذلك باعتبار ما كان على حد (وابتلوا اليتامى) والقرينة على ذلك أن الكتابة إنما هي للمضغة المخلقة والله أعلم .

وظاهره أيضا أنه يكتب ذلك من غير سؤال عنه مرة ثانية .

وذكرو أنه ليس كذلك .

قال الفاكهاني ، وقوله (ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد) ظاهر هذا اللفظ أن الملك يؤمر بكتابة هذه الأربعة ابتداء وليس كذلك بل إنما يؤمر بذلك بعد أن يسأل عن ذلك فيقول يارب ما الرزق ؟ ما الأجل ؟ ما العمل ؟ وهل شقي أو سعيد ؟ كما تضمنته الأحاديث المذكورة مع هذا الحديث في الصحيح إلى أن قال :

في لفـظ حديث منهـا (أن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك
بكفــه فقـال : أي رب أذكـر أم انثى ؟ شقي أم سعيـد ؟ ما الأجـل ؟ ما
الأثـر ؟ بأي أرض تموت ؟ فيقـال له انطلق إلى أم الكتاب فإنك تجد قصة
هذه النطفـة فينطلق فيجـد قصتهـا في أم الكتاب تخلق فتأكل أرزاقها وتطأ
ثرها فإذا جاء أجلها قبضت ودفنت في المكان الذي قدر لها .

وزاد في بعض روايــة حديث ابن مسعـود رضي الله عنـه (أن الملك
قول يارب مخلقة أو غير مخلقة فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام أما وإن
يل مخلقة قال يارب أذكر أم انثى ؟ وذكر ما تقدم .

فقـولـه : (أن النطفـة إذا استقـرت) يعني بهذا الاستقـرار صيرورة
لنطفـة علقـة ومضغـة لأن النطفـة قبـل ذلك غير مجتمعة ـ كما تقدم ـ فإذا
جتمعت وصارت ماء واحدا علقة أو مضغة أمكن حيئذ أن تؤخذ بالكف
سماها نطفة في حال كونها علقة أو مضغة باسم مبدئها والله أعلم الخ .

ثم قال : بعـد كلام طويـل وحـاصله أن بعث الملك المذكور في هذا
لحديث إنما هو بعد الأربعين الثالثة التي هي مدة التصوير كما دل على ذلك
ا قدمناه قبل هذا ، وسمي المضغة نطفة بمبدئها ألا ترى إلى قوله ـ يعني
، حديث آخـر ـ بعث الله إليهـا ملكـا فصـورهـا وخلق سمعهـا وبصـرها
جلدهـا وعظـامها فعطف بإلفاء المرتبة ، وهذا لا يكون حتى تصل النطفة
ى حال نهاية المضغة كما دل عليه ما تقدم .

وبهذا تتفق الروايات ويزول الاضطراب المتوهم فيها والله اعلم .

ونسبة الخلق والتصوير إلى الملك نسبة مجازية لا حقيقية وإنما صدر عنه فعل ما كان في المضغة عند التصوير والتشكيل بقدرة الله تعالى وخلقه واختراعه . ألا ترى أن الله تعالى قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية وقطع نسب جميع الخلق فقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) وقال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما . . الآية) .

وقال (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة . . الآية) وقال تعالى (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) وغير ذلك من الآيات .

هذا مع ما دلت عليه قاطعة بالبراهين من أنه لا خالق لشيء من المخلوقات إلا رب العالمين الخ .

ثم قال : القاضي عياض وغيره : والمراد بإرسال الملك في هذه الأشياء أمره بها والتصرف فيها بهذه الأفعال وإلا فقد صرح في الحديث بأنه موكل بالرحم ، وأنه يقول يارب نطفة يارب علقة إلى أن قال :

ثم المراد بجميع ما ذكر من الرزق والأجل والشقاء والسعادة والعمل والذكورة والأنوثة أنه يظهر ذلك للملك ويأمره بانفاذه وكتابته وإلا فقضاء الله سابق على ذلك ، وعلمه وإرادته فكل ذلك موجود في الأزل .

وذكروا أيضا أحاديث تدل على أن الكتابة تقع عقب الأربعين الأولى وتنوعوا في الجواب عن ذلك مما يطول ذكره .

قال ابن حجر بعد كلام طويل وجمع بعضهم بأن الكتابة تقع مرتين فالكتابة الأولى في السماء والثانية في بطن المرأة .

ويحتمل أن يكون أحدهما في صحيفة والأخرى على جبين المولود .

وقيل يختلف باختلاف الأجنة فبعضها كذا وبعضها كذا والأول أولى .

وقال ﷺ (لما خلق الله آدم عليه السلام أخرج من ظهره ذريته كالذر فأخذ مواثيقهم وأمرهم بالسجود فأبت طائفة وأجابت طائفة فمن أجاب يومئذ فهم المؤمنون وهم السعداء ومن أبي يومئذ فهم الكافرون وهم الأشقياء) فهذه الروايات تدل على أن الله خلق فعل العبد وأن العبد لم يفعله دون الله إذ قد قدره وعلمه وعلم ما هو صائر إليه .

قوله (لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذريته كالذر فأخذ مواثيقهم . . الخ) ظاهره أن إخراج الذرية من ظهره وأخذ الميثاق عليهم ابتداء حين كان في الجنة وسيأتي في كلام البغوي الخلاف في موضع أخذ الميثاق مع الاتفاق على أنه بعدما أخرج من الجنة .

وهذا الحديث يشير إلى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من

ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم) قال البغوي في هذه الآية بعد ذكر الإسناد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . . الآية) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال رسول الله ﷺ إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فأخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فأخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل ففيم العمل يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ (إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار) إلى أن قال مقاتل من أهل التفسير (إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كالذر فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال : (ألست بربكم قالوا بلى : فقال للبيض هؤلاء إلى الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء إلى النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم في صلبه فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميقات كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء قال الله فيهم نقض العهد الأول وما وجدنا لأكثرهم من عهد .

وقال أهل التفسير إن أهل السعادة أقروا طوعا وأهل الشقاوة قالوه تقية وكرها وذلك معنى قوله (وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها) واختلفوا في موضع الميثاق ، وقال ابن عباس ببطن نعمان ، وأراد إلى جنب عرفة .

وروي عنه أيضا أنه بدأ هنا من أرض الهند وهو الموضع الذي هبط آدم عليه .

وقال الكلبي بين مكة والطائف .

وقال السدي أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريته .

وروي أن الله أخرجهم جميعا وصورهم وجعل لهم عقولا يعلمون بها وألسنة ينطقون بها ـ إلى أن قال ـ وقال (ألست بربكم) قال الزجاج أن يكون الله تعالى, جعل لأمثال الدار قيها كما قال (قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم) .

وروي أن الله قال لهم جميعا اعلموا أنه لا إله غيري وأنا ربكم لا رب غيري فلا تشركوا بي شيئا فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي ، وأني مرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي ، ومنزل عليكم كتابا ، تكلموا جميعا فقالوا شهدنا أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك ميثاقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم فنظر إليهم آدم فرآى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب فلم لا سويت بينهم ؟ فقال إني أحب أن أشكر فلما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ ميثاقه فذلك قوله (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم) أي من ظهور بني آدم

ذريتهم . . الخ . فذكر القرآن ثم قال : فإن قيل ما معنى قوله (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) وإنما أخرجهم من ظهر آدم .

قيل إن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتولد الأبناء من الآباء في الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره .

قوله (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أي شهد بعضهم على بعض قولنا شهدنا أن تقولوا قرأ أبو عمران (يقولوا بالياء وقرأ الآخرون بالتاء فيهما .

واختلفوا في قوله (شهدنا) قال السدي : هو خبر من الله عز وجل عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم .

وقال بعضهم هو خبر عن قول بني آدم حين أشهد الله بعضهم على بعض فقالوا بلى شهدنا .

وقال الكلبي ذلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره لما قالت الذرية بلى قال الله للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا فقوله (أن يقولوا) يعني (وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا) أي لئلا يقولوا .

ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام أخاطبكم ألست بربكم لئلا تقولوا يوم

القيامة (إنا كنا عن هذا غالفين) عن هذا الميثاق والإقرار ؛ فإن قيل فكيف تلزم الحجة واحدا لا يذكر ذلك الميثاق ؟ قيل : قد أوضح الله الدليل على وحدانيته وصدق رسوله فيما أخبر فمن أنكر معاندا ناقضا للعهود ، لزمته الحجة ، ونسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة .

قوله (أو تقولوا إنما أشرك آباؤ نا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) أي كنا تبعا لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذرا لأنفسكم وتقولوا (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين فلا يمكنكم أن تحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق الخ .

وإنما سقط هذا الكلام مع طوله لتعلقه بأخذ الميثاق على بني آدم وانقطاع عذرهم بالنظر إليه والله يفعل في ملكه ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وذكر صاحب الوضع رحمه الله في مناسك الحج أن إقرار بني آدم عند أخذ الميثاق أودع عند الحجر الأسود فإنه قال بعد كلام يتعلق بتقبيله فقال عمر يا أبا الحسن وما تأويله من كتاب الله فقال قول الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم الآية) فلما أقروا بالعبودية كتب إقرارهم في رق فألقمه هذا الحجر فهو أمين الله في هذا المكان يشهد لمن وفاه يوم القيامة .

قوله (فأبت طائفة وأجابت طائفة الخ) ظاهره أنهم فعلوا ذلك ابتداء

وأنهم انقسموا قسمين فقط والذي أحفظه أنهم انقسموا أولا إلى أربعة أقسام ورجعوا بآخرة الأمر إلى قسمين .

وذلك أنهم حين أمروا بالسجود سجدت طائفة فاستمرت على السجود وهم المؤمنون من أول الأمر إلى آخره ، وأبت طائفة فاستمرت على الإباء وهم الكافرون من أول الأمر الخ ، ثم نظرت طائفة من الذين سجدوا فقالوا ما بال هؤلاء لم يسجدوا ونحن سجدنا فرجعوا عن السجود ففعلوا مثلهم وهم الذين آمنوا أولا ثم كفروا وماتوا على كفر ، ثم نظرت طائفة من الذين لم يسجدوا إلى الذين سجدوا فقالوا ما بال هؤلاء سجدوا ونحن لم نسجد فسجدوا واستمروا على السجود وهم الذين كفروا أولا ثم تابوا وماتوا على الإيمان . جعلنا الله ممن ختم لهم بالسعادة أمين .

قوله (فهذه الروايات تدل على أن الله خلق فعل العبد وأن العبد لم يفعله دون الله إذا قدره وعلمه الخ) فيه إشارة إلى أن فعل العبد له جهتان جهة خلق تضاف إلى الله وجهة كسب بحركة وسكون تضاف إلى العبد .

قال في القناطر في الرد على القدرية ويروى أن رجلا سأل علي بن أبي طالب عن القدر فقال تسألني عن شيء تملكه مع الله أو من دون الله إياك أن تتكلم فأضرب عنقك قال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فقال نعم إن كنت تملكه مع الله فقد جعلت نفسك شريكا مع الله ، وإن كنت تملكه من دون الله فقد جعلت نفسك معبودا من دون الله قال له : فما المخرج يا أمير المؤمنين ؟ قال أنت المالك لما ملكك ، والقادر على ما عليه أقدرك ،

ولا حول لك عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة لك على طاعة الله إلا بتوفيقه أما سمعت الناس يقولون لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ إلى أن قال ـ فلا يجري في العالم من حركة وسكون ونفع وضر وطاعة ومعصية وإيمان وكفر إلا بما جري به القلم وسبق به القضاء والقدر ، وكذلك لا يطير طائر بجناحيه ولا يدب حيوان على بطنه أورجليه ولا تسقط ورقة ولا تطرب بعوضة إلا بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ومشيئته ، لا يجري بشيء من ذلك إلا وقد سبق به علمه قال الله سبحانه (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) يعني من قبل أن نخلقها يعني النفس ، وقيل : قبل أن تخلق المعصية ، وقال لنبيه عليه السلام (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال (قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة فالواجب على الإنسان امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ولا يتكلف الخوض في القضاء والقدر فإن ذلك من مخزون علم الله الذي استأثر به عن الخلق ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون الخ .

ثم قال في محل آخر : اعلم أن زمام الأمور التوفيق ولم ينزل من السماء إلى الأرض أقل من التوفيق وهو مقرون بالاجتهاد قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا الآية) . .

وروي أن رجلا قال لعلي ابن أبي طالب أرأيت إن جنبني الهدى أو سلك بي طريق الرداء أحسن إلى أم أساء ؟ قال علي إن كنت استوجبت عليه شيئا فقد أساء وإلا فهو يفعل في ملكه ما يشاء .

وسأله رجل عن القدر فأعرض عنه فأبي إلا الجواب فقال علي : أخبرني أخلقك الله كيف شئت أو كيف شاء ؟ فأمسك الرجل فقال علي للحاضرين أترونه يقول كيف شاء إذاً ؟ وإلا أضرب عنقه فقال الرجل : كما يشاء قال علي أيميتك كيف يشاء أم كيف تشاء ؟ قال كما يشاء قال فيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء ؟ قال حيث يشاء قال فليس لك من الأمر شيء إلى أن قال :

وعلم أن الهارب مما هو مقضي عليه كالمتقلب في يد الطالب ، كما قيل :

وإذا خشيت من الأمور مقدرا
وفررت منه نحوه تتوجه

وذكر في كتاب سراج الملوك أن رجلا أخلي من خدمة السلطان بمدينة اسكندرية فظفر به عرفاؤه فبينما هو يقتادونه إذ مروا على بئر فترامى الرجل فيها قال : ولهذه المدينة أسراب يسير الرجل فيها قائما من أولها إلى آخرها فما زال الرجل يمشي تحت الأرض حتى وجد بئرا صاعدة فتعلق بها فإذا هو في دار السلطان فقبضه وأدبه ففر بزعمه من السلطان فمشى إليه طائعا .

ويقال وقع الطاعون بالكوفة فمر ابن أبي ليلى على حمار له يطلب النجاة فسمع منشدا يقول :

لن يسبق الله على حمار
ولا على ذي ميعة طياري
أو يأتي الحتف على مقدار
فيصبح الله أمام الساري

فكر راجعا إلى الكوفة فقال إذا كان الله أمام الساري فلا مهرب الخ .

أبـو عبيـدة عن جابـر بن زيـد سئـل ابن عباس عمن زعم أن العباد لا يقـدرون على أخـذ ما أمروا به وعلى الكف عما نهوا عنه ولا يستطيعون ذلك وإنما هو معمول بهم فقال قال رسول الله ﷺ (ستكون بعدي شياطين في جثـمان الـرجـل يأتـون المجـالس وكلهم يكذب على الله ورسوله فتلك الأحـاديث الكـاذبـة ونحـوها من أولئك الشياطين من الإنس يوحي إليهم إخوانهم الشياطين ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم) .

قوله (سئل ابن عباس عن من زعم أن العباد لا يقدرون على الأخذ بما أمروا به ولا على الكف عما نهوا عنه . . الخ) فلما فرغ رحمه الله من الرد على القدرية وهم المعتزلة الزاعمة بأن الانسان يخلق أفعاله فكذبهم القرآن وأحـاديث الـرسـول عليـه السـلام كما تقدم شرع هنا في الرد على المجبرة القائلة بأن العباد مجبرون على أفعالهم ومضطرون إليها لا كسب لهم فيها ولا اختيـار كالميت في يد الغـاسـل ، وزعمـوا أن الله تعـالى أجبرهم على أفعالهم التي زجرهم عنها ثم عذبهم عليها .

والحجـة عليهم قولـه تعـالى (جـزاء بما كانـوا يعملون) ، وقوله (بما يكسبون) ، وقوله (بما قدمت أيديكم وإن الله ليس بظلام للعبيد) ، وقوله (ومـا ظلمنـاهم ولكن كانـوا هم الظالمين) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لم يؤاخذهم بغير ما اكتسبوا ولم يعذبهم بغير ما اجترموا .

ومن الأحـاديث الـدالـة على بطـلان ما ذهب إليـه المجـبرة ما رواه

صاحب السؤالات رحمه الله حيث قال في الرد عليهم : وروي عن النبي ﷺ أنه قال (خمسة لا تطفأ نيرانهم : رجل أشرك بالله ، ورجل عق والديه ، ورجل سعى بأخيه إلى سلطان جائر ، ورجل قتل نفسا محرمة ، ورجل حمل على الله ذنبه) مثل من قال هو مجبر ليس له فعل .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال (خصلتان لا تنفع معهما صلاة ولا صوم الشرك بالله وأن يزعم العبد أنه أجبره على معصية) .

وروي أن رجلا من خثعم جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله متى يرحم الله عباده ما لم يعملوا بالمعاصي ثم يقولوا إنها من عند الله جبار ولو شاء ما أشركنا .

زاد في المسند (ولا عصينا) وقال : قيل ذلك وروي عن علي ابن أبي طالب أنه لما رجع من صفين قام إليه شيخ فقال له يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر ؟ فقال له علي : والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا إلا كان بقضاء وقدر فقال له الشيخ أحتسب عنائي والله ما أدري أن لي من الأجر شيئا فقال له : بل لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين فقال له الشيخ كيف لم نكن مضطرين . والقضاء والقدر علينا مسير ؟ فقال له علي : ويلك أيها الشيخ لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا خائلا حاتما ، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر من الله والنهي والوعد

والـوعيـد ، ولم تكن تأتي لائمـة لمذنب ولا محمدة لمحسن ولم يكن المحسن أولى بالمـدح من المسيء ولا المسيء أولى بالـذم من المحسن . تلك مقـالة عبـدة الأوثـان وجنـود الشيطان وخصماء الله وشهود الزور وأهل العمى عن الصـواب وهم قدريـة هذه الأمـة ومجـوسهـا ، إن الله أمـر تخييـرا ، ونهى تحذيـرا ، ولم يطـع مكـرها ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يرسل الرسل عبثا ، ولم يخلق السمـوات والأرض ومـا بينهـما باطـلا ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار .

وأحفظ أنه قال له بعد ذلك :

أنت الإمـام الـذي نرجـو بطـاعتـه
يوم الـنشـور من الـرحمن رضـوانـا
أوضـحـت من ديننـا ما كان ملتبسـا
جزاك ربـك عنـا فيـه إحـسـانـا

وذكر في السؤالات أيضا في محل آخر ما نصه : قال الشيخ رحمه الله ستـة أشيـاء مبطلة للميـل والجبر مثبتـة للاختيـار والاكتساب الأمر والنهي والحمد والذم والثواب (والعقاب) .

قولـه : (يـوحيهـا إليهم إخـوانهم من الشيـاطـين . . الـخ) قال البيضـاوي في قولـه تعـالى (يـوحي بعضهم إلى بعض . . الآية) يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس الخ .

وقال في قوله تعالى (ليردوهم) ليهلكوهم بالأغواء (وليلبسوا عليْهم دينهم) وليخلطـوا عليهم ما كانـوا عليـه من دين إسـماعيـل أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به الخ .

أقول والثاني هو المناسب هنا والله أعلم .

وقال ﷺ (إن الله أمرني أن أعلمكم ما علمني في هذا اليوم : فإني خلقت عبادي ليعبدوني فأتتهم الشياطين عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا فيما لم أنزل به سلطانا وحرمت عليهم ما أحللت لهم) .

قوله (إن الله أمرني أن أعلمكم ما علمني . . الخ) لفظه في الجامع (إن الله تعالى أمرني أن أعلمكم مما علمني وأن أؤدبكم إذا قمتم على أبواب حجركم فاذكروا اسم الله يرجع الخبيث عن منازلكم وإذا وضع بين يدي أحدكم طعام فليسم حتى لا يشاركك الخبيث في أرزاقكم ، ومن اغتسل بالليل فليحاذر عن عورته فإن لم يفعل فأصابه اللمم فلا يلومن إلا نفسه ، ومن بال في مغتسله فأصابه الوسواس فلا يلومن إلا نفسه ، وإذا رفعتم المائدة فاكنسوا ما تحتها فإن الشياطين يلتقطون ما تحتها فلا تجعلوا لهم نصيبا في طعامكم) .

ولم يكتب عليه الشارح شيئا (واللمم) المراد هنا طرف من الجنون ، قال في الصحاح بعد كلام على اللمم (واللمم) أيضا طرف من الجنون ، ورجل ملموم أي به لمم ، ويقال أيضا أصابت فلانا من الجن لمة وهو المس والشيْء القليل .

قوله (خلقت عبادي ليعبدوني) هذا الحديث مماثل لقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) قال في السؤالات عند كلام على أن

الله لم يجبر أحدا على الطاعة وهذه الآية من مشكل القرآن وهي مخصوصة ليست عامة في جميعهم .

وقالت الروافض عامة مينا منهم وغيظا من قلوبهم .

ورأيت في بعض الكتب ما نصــه قولـه عز وجـل (ومـا خلقت الجن والانس إلا ليعبـدون) لا ينـافي في ذلـك عدم عبـادة الكـافـرين لأن الغاية لا يلزم وجودها كما في قولك بريت القلم لأكتب به أو لأن ذلك عام أريد به الخصوص بدليل قوله (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا) ومن خلق لجهنم لا يكون للعبادة .

والظاهر أن هذا مراد صاحب السؤالات رحمه الله .

وذكـر في المـواهب عنـد الكـلام على تعليـل بعض الأفعال بالحكم والمصـالـح أن معنى الآيـة خلقتهم وفرضت عليهم العبادة فالتعليل لفظي لا حقيقي لأن الله مستغن عن المنافع الخ . فليراجع ، وهذا التطويل هو المناسب لسياق الحديث والله أعلم .

ويحتمـــل أن يكـــون المعنى لأمـــرهم بالعبـادة وتكـون عامـة أيضـا ولا إشكـال كما يؤخـذ من قوله في السؤالات وهل يجوز خلق الله الكافرين للطاعة يتجه أيضا أن تكون ، تريد ليأمرهم بالعبادة فنعم الخ .

قوله (فأتتهم الشياطين فاغتالتهم . . الخ) أي اغتالت الكفار منهم

كما هو معلوم ، والاغتيـــال هو الأخـذ من حيث لم يدر ، قال في الصحـاح غاله الشيء واغتاله إذا أخذه من حيث لم يدر الخ .

(وقال عبد الله بن دينار كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فاستسقى فأتى بلبن فلما أراد أن يشرب قلت أنا صائم فقال أراد الله أن يسقيني فمنعتني) .

قولـه : (أراد الله أن يسقيني فمنعتني) يتأمـل ما معنى هذه العباره ، فإن الله تعـــالـى إذا أراد شيئـــا كان فلا يتـخلف المـــراد عن الإرادة كما هو معلوم ، ولعله أطلق ذلـــك بحسب ما ظهـر له عنـد الاستسقـاء والإتيـان باللبن وإلا فمن المعلوم أن عبد الله بن عمر لا يجهل ذلك والله أعلم . فليحرر .

وكـان عمـر وابن مسعـود وأبي بن كعب جالسـين فقـال عمـر سبق الشقاء للشقي وشقي في بطن أمه فقال أبي : إنه ليس كذلك ولكنهم شقوا وسعدوا بأعمالهم التي عليها أحمدوا وذموا . قال عمر : صدقت سبقت رحمة الله غضبه ولولا ذلك لهلكوا .

قوله : (فقال أبي إنه ليس كذلك ولكنهم شقوا وسعدوا بأعمالهم الخ .

أقـول : ليس في كلام عمـر رضي الله عنـه ما ينافي ما قاله أبي رحمه

الله ، لأن معنى قولــه سبق الشقــاء للشقي وشقي في بطن أمـه أي بعمله الـذي سبق في علم الله أنـه يكسبـه ويـذم عليـه ويؤاخذ به وكتب ذلك في اللوح المحفوظ أولا وفي صحيفته أو على جبينه أو في كل منهما حين كان في بطن أمـه كما تقـدم . فكـلام عمر رضي الله عنه موافق لقوله ﷺ (السعيد من بطن أمه والشقي من بطن أمه) .

أو كما قال فأطلق كما أطلق ﷺ لظهـور المـراد ولا يظن به جهـل مثل هذا ، ويدل على ذلك قوله (صدقت) لأن التصديق إنما يصدر عن العالم بالحكم والله أعلم .

قولـه : (سبقت رحمـة الله غضبـه) لفـظ الحديث في الجامع قال الله تعالى (رحمتي سبقت غضبي) وفي رواية (إن الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتي غلبت غضبي) .

وفي البخـاري : إن الله لما قضي الخلق كتب عنـده فوق عرشـه (إن رحمتي سبقت غضبي) .

قال العلقمي : قال في الفتـح قولـه (لمـا قضي الله الخلق) أي خلق الخلق وهو كقوله تعالى (فقضاهن سبع سموات) والمراد أوجد جنسه وقضِي يطلق بمعني حكم وأتقن وفرغ وأمضى .

قولـه : (كتب) في روايـة (كتب في كتابه) أي أمر القلم أن يكتب في اللوح المحفوظ إلى أن قال :

وقال الخطابي : المراد بالكتاب أحد شيئين إما القضاء الذي قضاه الله كقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) أي قضي ذلك ويكون معنى قوله (فوق العرش) أي عنده علم ذلك فهو لا ينساه ولا يبدله كقوله (في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) .

وأما اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق وبيان أمورهم وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم ويكون معنى قوله (فهو عنده فوق العرش) ذكره وعلمه وكل ذلك جائز في التخريج الخ إلى آخر ما أطال فيه من تنزيه الله تعالى عن المكان والحلول وغير ذلك من صفات الأجسام .

ثم قا : قال ابن أبي جمرة يؤخذ من كون الكتاب المذكور فوق العرش أن الحكمة اقتضت أن يكون العرش حاملا لما شاء من أثر حكمة الله وقدرته وغامض غيبه ليستأثر هو بذلك من طريق العلم والإحاطة فيكون من أكبر الأدلة على انفراده بعلم الغيب ، وقد يكون ذلك تفسيرا لقوله (الرحمن على العرش استوى) أي ما شاء من أمر قدره وهو كتابه الذي وضعه فوق العرش .

وأما قوله (عنده) فقال ابن بطال عند في اللغة للمكان والله منزه عن الحلول في المواضع لأن الحلول عرض يفني وهو حادث والحوادث لا تليق بالله فعلى هذا قيل معناه أنه سبق علمه بإثابة من يعمل بطاعته وعقوبة من يعمل بمعصيته .

ويؤيده قوله في الحديث الآخر (أنا عند ظن عبدي بي) ولا مكان هناك قطعا .

وقـال الـراغب (عنـد) لفظ موضوع للقرب ويستعمل في المكان وهو الأصـل ويستعمـل في الاعتقـاد ـ إلى أن قال ـ ويستعمـل في المـرتبـة ومنه (أحياء عند ربهم) وأما قوله (ان كان هذا هو الحق من عندك) فمعناه في حكمك .

وقـال ابن التـين معني العنـديـة في الحديث العلم بأنه موضوع على العـرش ، وأمـا معني كتبـه فليس للاستعـانة لئلا ينساه فإنه منزه عن ذلك لا يخفى عنه شيء وإنما كتب من أجل الملائكة الموكلين بالمكلفين .

وقيـل معنـاه دون العـرش وهـو كقـولـه تعالى (إن الله لا يستحي أن يضـرب مثـلا ما بعـوضـة فما فوقهـا) والحامل على هذا التأويل استبعاد أن يكون شيء من المخلوقات فوق العرش .

ولا محذور في إجراء ذلك على ظاهره لأن العرش خلق من خلق الله تعالى .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله (فهو عنده) أي ذكره أوعلمه فلا تكون العنـديـة مكـانيـة بل هي إشارة إلى كمال كونه مخفيا عن الخلق مرفوعا عن حين إدراكهم .

إلى أن قال في قوله (سبقت غضبي) المراد بالغضب لازمه وهو إرادة إيصال العذاب إلى من يقع عليه الغضب ، والسبق والغلبة باعتبار التعلق

أي تعلق الـرحمـة غالب سابق على تعلق الغضب لأن الـرحمة مقتضى ذاته المقـدسـة وأمـا الغضب فإنـه يتوقف على سابقة عمل من العبد الحادث ، وبهـذا التقـديـر ينـدفع إشكال من أورد وقوع العذاب قبل الرحمة في بعض المواطن الخ ، فمثله بما يناسب مذهبه .

قال : وقيـل معنى الغلبـة الكثـرة والشمـول نقول غلب على فلان الكـرم أي أكثـر أفعـالـه ، وهـذا كله بنـاء على أن الرحمة والغضب ، من صفات الذات .

وقـال بعض العلماء الـرحمـة والغضب ، من صفـات الفعـل لا من صفات الذات ولا مانع من تقدم بعض الأفعال على بعض فتكون الإشارة بالرحمة إلى إسكان آدم الجنة أول ما خلق مثلا ومقابله ما وقع من إخراجه منهـا وعلى ذلـك استمرت أحوال الأمم بتقديم الرحمة في خلقهم بالتوسيع عليهم من الرزق وغيره ثم يقع بهم العذاب على كفرهم إلى أن قال :

وقـال الطيبي : في سبق الـرحمـة إشارة إلى أن قسط الخلق منها أكثر من قسطهم من الغضب الخ .

أقول : ويدل لهذا القول قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليهـا من دابـة) قلنـا وإنهـا تنـالهم من غير استحقاق وأن الغضب لا ينـالهم إلا باستحقـاق فالـرحمـة تشمـل الشخص جنينـا ورضيعا وفطيما وناشئا قبل أن يصدر منه شيء من الطاعة ، ولا يلحقه الغضب إلا بعد أن يصدر عنه من الذنوب ما يستحق معه ذلك .

قال لأن الرحمة في اللغة رقة القلب والغضب انحسار النفس وغليان الدم وكله محال على الله فوصفه تعالى بهما مجاز لابد من تأويله .

وقد اختلف العلماء في ذلك فقالوا الرحمة والغضب والرضى في حقه تعالى إما يرجعان إلى صفة معنى هي صفة الذات وهي الإرادة فإرادته الإثابة للمطيع ومنفعته للعبد تسمى رضى ورحمة وإرادته عقاب العاصي وخذلانه يسمى غضبا فهو مجاز . وإرادته سبحانه وتعالى صفة له قديمة فهي واحدة ، أو يرجعان إلى نفس التنعيم والعقاب فهما من صفات الأفعال وهذان قولان للمحققين . وزاد بعضهم رجوعهما إلى صفة الكلام بمعنى الثناء أو الذم .

أقول : ويمكن الجمع بمثل هذا بين أصحابنا من أهل المغرب وبين أصحابنا من أهل الجبل والمشارقة فإن أهل المغرب يقولون إن السخط والرضى صفتا ذات ترجعان إلى الولاية والعداوة ، وأهل الجبل والمشارقة يقولون إنهما من أفعاله مرادا بهما الثواب والعقاب كما بين في محله والله أعلم فليراجع .

فيئول الأمر إلى أن الخلاف بينهم رحمهم الله في الحقيقة لفظي والله أعلم .

وقال ﷺ (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة لعنهم الله على لسان سبعين نبيا قبلي) قيل فما هم يا رسول الله ؟ قال القدرية والمرجئة

قيل : فمن المرجئة ؟ قال الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل . والقدرية الذين يعملون بالمعاصي ويقولون هي من الله اجبارا لنا ولو شاء الله ما أشركنا ولا عصينا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في شيء سئل عنه أقول برأي فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان وقال وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل ويقول (اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) .

قوله : (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي) ذكر في الجامع فيهما روايات .

منها (صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب ـ المرجئة والقدرية) ، ومنها (صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي يوم القيامة المرجئة والقدرية) ، ومنها (صنفان من أمتي لا يردان على الحوض ولا يدخلان الجنة القدرية والمرجئة) وقد تقدم الكلام عليهما بما فيه كفاية لكن ذكر العلقمي فيهما كلاما لا بأس بإيراده :

قوله : (قيل فمن المرجئة قال الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل والمرجئة الذين يعملون بالمعاصي ويقولون هي من الله إجبارا الخ) انظر لما وقع السؤال عن المرجئة دون القدرية ولعله لوضوح معنى القدرية دون المرجئة والله أعلم .

ثم ظاهر الحديث يدل على أن لفظ المرجئة يطلق على فرقتين

متباينتين بدليل إعادته اسما ظاهرا فلو كان اسما لفرقة واحدة لقال وهم الذين يعملون بالمعاصي الخ .

وذكر العلقمي فيهم المعنيين وغلط من قال بأنهم الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل حيث قال :

وهذا الحديث يدخل في علامات النبوة لإعلام النبي ﷺ بأن هذين الصنفين سيوجدان في أمته إلى أن قال :

ثم قال شيخنا : قال التوربشتى في شرح المصابيح : الصنف النوع قيل المرجئة هم الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل فيؤخرون العمل عن القول وهذا غلط لأنا وجدنا أكثر أصحاب الملل والنحل ذكروا أن المرجئة هم الجبرية الذين يقولون بإضافة الفعل إلى العبد كإضافته إلى الجمادات والجبرية خلاف القدرية .

أقول : الحق أنه لا يغلط من قال إن المرجئة هم الذين يقولون (الإيمان قول بلا عمل) لثبوت ذلك في الحديث .

ولكن بقي الكلام هل المرجئة الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل هم المرجئة الذين يضيفون أفعال العبد إلى الله أو ويجعلون الإنسان كالميت في يد الغاسل أو غيرهم ؟ فليحرر .

عدنا قال : وسميت الجبرية مرجئة لأنهم يرجئون أمر الله ويرتكبون

الكبائر يذهبون في ذلك إلى إفراط كما ذهبت القدرية إلى التفريط وكلا الفريقين على شفا جرف هاو .

والقدرية إنما نسبوا إلى القدر وهو ما يقدره الله تعالى لأنهم يدعون أن كل عبد خالق فعله من الكفر والمعصية ونفوا أن ذلك بتقدير الله .

قال : وقوله (ليس لهما في الإسلام نصيب) ربما تمسك به من يكفر من الفريقين .

والصواب أن لا يسارع إلى تكفير أهل الأهواء المتأولين لأنهم أي القدرية يقصدون بذلك اختيار الكفر وقد بذلوا وسعهم في إصابة الحق فلم يحصل لهم غير ما زعموا فهم إذاً بمنزلة الجاهل أو المجتهد المخطىء ، وهذا القول هو الذي ذهب إليه المحققون من علماء الأمة نظرا واحتياطا فجري قوله (ليس لهما نصيب) مجري الاتساع في بيان سوء خطبهم وقلة نصيبهم من الاسلام نحو قولك للبخيل (ليس له من ماله نصيب) .

وقال في النهاية : المرجئة فرقة من الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله تعالى أرجأ تعذيبهم على المعاصي أي أخره عنهم الخ .

أقول : هذا مما يدل على أن المرجئة هم الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل فلا معنى للتغليط المتقدم .

والمصنف رحمة الله إنما ساق الحديث للاستدلال على المرجئة فدل على أن الجبرية سموا مرجئة لكن الظاهر كما تقدم أن المرجئة فرقتان والله أعلم .

ثم رأيت في غالب النسخ والقدرية الذين يعملون بالمعاصي الخ ، فعلى هذا يكون للقدرية اطلاقان .

أحدهما : الذين ينفون عن أفعالهم قدر الله ويضيفونها لأنفسهم ويقولون الإنسان يخلق أفعاله وهم المعتزلة وهم المشهورون بالقدرية .
ولم ينصب أهل المغرب الجدال في القدر إلا معهم وكذلك في كتب قومنا .

قال في الصحاح : والجبر خلاف القدر قال أبو عبيدة : هو كلام مولد والجبرية بالتحريك خلاف القدرية الخ .

وذكر ثعلب أن الجبرية بإسكان الباء وتقدم الكلام معهم وسبب تسميتهم بذلك .

والثاني : الذين يضيفون أفعالهم إلى قدر الله ولا يثبتون لأنفسهم كسبا ولا اختيارا وحملوا ذنوبهم على الله وهم الجبرية فيلزم أن يكون الله ظالما لهم حيث عذبهم على ما ليس لهم فيه كسب تعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وقد تقدم الرد عليهم وكلتا الفرقتين على شفا جرف هاو والله أعلم .

عدنا قال : والمرجئة تهمز ولا تهمز كلامها بمعنى التأخير يقال أرجأت الأمر وأرجوته إذ أخرته فتقول من الهمز رجل مرجأ وهم المرجئة وفي النسب مرجىء مثل مرجع ومرجعة ومرجعي ، وإذا لم تهمز قلت رجل مرج ومرجئة ومرجي مثل معط ومعطية ومعطي انتهى كلامه رواية عن غيره .

قوله : (هي من الله جبارا منا) هكذا فيما رأيناه من النسخ والمناسب لاعتقادهم أن يقولوا مجبر لنا ولعله بضم الجيم وتخفيف الباء بمعنى هدر .

قال في الصحاح : يقال ذهب دمه جبارا وفي الحديث (المعدن جبار) أي إذا انهار على من يعمل فيه لم يؤخذ به مستأجره الخ .

ولعل مرادهم أنهم لم يصدر منهم ما يؤاخذون به حيث كان ذلك بغير اختيارهم قبحهم الله مع أن الله يقول (بما يكسبون بما يعملون) إلى غير ذلك .

وأما انتصابه فلعله حال من الضمير المستتر في الخبر أي هي كائنة من الله حال كونها جبارا منا أي هدرا والله أعلم .

قوله : (فإن كان صوابا فمن الله) يعني فضلا وامتنانا لأن كل نعمة منه فضل لقوله عز وجل (ما أصابك من حسنة فمن الله) .

قوله : (وإن يكن خطأ فمني) أي كسبا وأنا السبب فيه لقوله تعالى (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أي فأنت السبب فيها لقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وقالت عائشة رضي الله عنها (ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة بشاكها أو حتى انقطاع شزع نعله إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر) .

قوله : (ومن الشيطان) أي وسوسة ولا قدرة له على أكثر من ذلك وأما الخلق فمن الله لقوله تعالى (قل كل من عند الله) أي إيجادا وإيصالا لا غير ، إن الحسنة احسان وامتنان ، والسيئة مجازاة وانتقام ، فلا منافاة بينة وبين قوله (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ففي كلام أبي بكر رضي الله عنه رد على الجبرية حيث حملوا ذنوبهم على الله وزعموا أن العباد مجبرون ومضطرون ومطبوعون على أفعالهم كما تقدم .

قوله : (وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل الخ) ، إنما يفعل هذا ﷺ على جهة الاستحباب لأن من خصوصياته ﷺ أنه لا تجب عليه العدالة بين نسائه لقوله عز وجل (ترجي من تشاء منهن) أي تؤخر وتترك مضاجعتها (وتؤوي إليك من تشاء) أي وتضم إليك وتضاجعها ، وأما المسلمون فتجب عليهم العدالة بين نسائهم بحسب الطاقة .

قال أبو زكريا رحمه الله في كتاب النكاح : وإذا كان للرجل امرأتان أو أكثر من ذلك فعليه أن يعدل بينهن في النفقة والكسوة والجماع .

وقيل إن الشدة في العدالة في الجماع .

وظاهر كلامه رحمه الله أنه يترخص في ترك العدالة في النفقة والكسوة وأن التسوية في الجماع مستحبة لا واجبة .

قال العلقمي في شرح هذا الحديث : قال النووي : مذهبنا أنه لا يلزم الزوج أن يقسم لنسائه بل له أجنابهن كلهن لكن يكره له تعضيلهن مخافة من الفتنة عليهن والإضرار بهن ، فإذا أراد القسم لم يجز له أن يبتدىء بواحدة منهن إلا بقرعة ويجوز أن يقسم ليلة ليلة وليلتين وليلتين وثلاثا وثلاثا ولا يجوز أقل من ليلة ولا تجوز الزيادة على الثلاث إلا برضاهن ، هذا هو الصحيح من مذهبنا .

واتفقوا على أنه يجوز أن يطوف عليهن كلهن ويطؤهن في الساعة الواحدة برضاهن ولا يجوز ذلك بغير رضاهن .

وإذا قسم كان لها اليوم الذي بعد ليلتها ويقسم للمريضة والحائض والنفساء لأنها يحصل لها الأنس به ولأنه يستمتع بها بغير الوطء من قبلة ولمس ونظر وغير ذلك .

قال أصحابنا وإذا قسم لا يلزمه الوطء ولا التسوية فيه بل له أن يبيت عندهن ولا يطأ واحدة منهن . وله أن يطأ بعضهن في نوبتها دون بعض لكن يستحب أن لا يعضلهن ويسوي بينهن في ذلك .

ثم رأيت في منهاج الطالبين للشيخ خميس بن سعيد رحمه الله ما يشعر بذلك حيث قال بعد كلام : وأما الجماع فلا نعلم أن عليه لهما في ذلك شيئا محدودا لأن ذلك مما لا يملك إلى أن قال :

ومن تزوج امرأة على امرأة فعدل في الأيام والشهور ولم يعدل في الجماع ولم يترك ذلك ميلا عنها ولا أثرة للأخرى وإنما ذلك لهواه فيها لأن القلب هو الغالب فلا بأس عليه الخ .

قوله : (هذا فعلي فيما أملك فيه) رد على الجبرية حيث أضاف الفعل إلى نفسه .

قوله : (فلا تلمني أملك ولا أملك) الرواية في الجامع (فيما تملك ولا أملك) وهي الظاهر والمراد والله أعلم ما يتعلق بالقلب من الميل إلى إحداهن دون الأخري لأن أمر القلب بيد الله كما ورد في الحديث على طريق التمثيل طريقة تمثيل القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ففي الحديث إشارة إلى قوله تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) .

قال : البيضاوي : لأن العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر ولذلك كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول (هذه قسمتي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك) إلى أن قال في قوله (فلا تميلوا كل الميل) بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها لأن مالا يدرك كله . . الخ لا يترك كله .

قال : جابر سئل ابن عباس عن القرآن أيزاد فيه أوينقص منه فقال : قال رسول الله ﷺ (لعن الله الزائد في كتاب الله) قال (ومن كفر بحرف فقد كفر بالقرآن أجمع) .

قوله : (لعن الله الزائد في كتاب الله) لفظ الحديث في الجامع (سبعة لعنتهم وكل نبي مجاب : الزائد في كتاب الله والمكذب بقدر الله والمستحل حرمة الله والمستحل من عترتي ما حرم الله والتارك لسنتي والمستأثر بالفيء والمتجبر بسلطانه ليعز من أذل الله ويذل من أعز الله) قال شارحه في قوله (الزائد في كتاب الله) قال شيخنا قال الطيبي يجوز أن يراد به من يدخل في كتاب الله ما ليس منه أو أن يتأوله بما ينبو عنه اللفظ كما فعلته اليهود بالتوراة من التبديل والتحريف ، والزيادة في كتاب الله كفر وتأويله لما يخالف الكتاب والسنة بدعة .

قوله : (ومن كفر بحرف فقد كفر بالقرآن أجمع) المراد من الكفر هنا كفر الشرك لأنه مكذب لله والمكذب لله مشرك قال الشيخ أبو نصر رحمه الله :

ومن صادم المنصوص بالرد مشرك
ومن أخطأ التأويل نافق بالمبين
ومن رد حرفا أو رسولا فإنه
يرد جميع المرسلين كفرعون

قال الشارح رحمه الله بعد كلام طويل ما نصه :

مسألـة : قال أصحـابنا من أنكر نبيا من الأنبياء أوملكا من الملائكة وحـرفـا من كتـاب الله أو فريضة من المنصوصات فهو مشرك كمن أنكر الله وملائكته وكتبه ورسله لأن الله تعالى يقول (كذبت عاد المرسلين . . الآية) في أمثـالهـا من القـرآن فأخـبر أنهم كذبـوا جميـع رسله بتكذيبهم هودا عليه السـلام وكـذبـوا الله بذلـك لأن ذلك من صفات الله عز وجل يوصف بأنه باعث المرسلين ومنزل الكتب على النبيين والمرسلين .

قال : وقـال عقبـة ابن عامـر الجهني صلى بنـا رسول الله ﷺ صلاة الغداة فقرأ بالمعوذتين فقال يا عقبة إن هذين أفضلا صورة في القرآن والزبور والإنجيـل والتـوراة وقـد قال قوم إنهما ليسا من القرآن فقد كذبوا وأثموا قال ابن عباس ولو أن أحدا زاد فيه أو نقص منه كان عند الأمة كافرا من القرآن على ما جاء به النبي ﷺ لم يزد فيه ولم ينقص منه وأن الله أحاطه من ذلك . من قال (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) والعزيز الذي عز أن يأتوا بمثله أو بشبه أو بشيء في معناه ولم يكن الله ليمكن أحـدا من أن يزيـد فيـه أو ينقص منه وهو كلامه وحجته على عباده وأمام عباده الذي يكون يوم القيامة عليهم شهيدا لو نقص منه شيئا أو تزيد فيه لتبين ذلك في تأليفه حتي يعلم أنه ليس بقرآن لأن الخلق لا يستطيعون أن يأتوا بمثل تأليفه ووصفه أبدا .

قوله : (ان هاتين أفضل سورة في القرآن الخ) يتأمل هذا مع ما ورد في بعض الأحـاديث عنـد قومنـا منها (والجامع أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين) ، ومنها فيه أفضل القرآن سورة البقرة وأعظم آية فيه آية الكرسي وإن الشيطان ليخرج أن يسمع نقرأ فيه سورة .

وفي حديث آخر (قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن وقيل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن) مع ما ورد في سورة الكهف ويس والدخان وإذا وقعت وتبارك الملك وإذا زلزلت وغير ذلك من السور كما هو معلوم .

والظاهر والله أعلم أنه يجاب عن التفضيل في السور بما يجاب به عن التفضيل في الأعمال في نحو (أفضل الأعمال الصلاة لوقتها) ، (أفضل الأعمال بر الوالدين والجهاد في سبيل الله) ، (أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضي عنه دينا أو تطعمه خبزا) إلى غير ذلك من الأحاديث .

وقد ذكر في الجامع من ذلك شيئا كثيرا قال الشارح العلقمي : قال العلماء اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال واحتياج المخاطبين وذكر مالا يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه .

ويمكن أن يقال أن لفظة (من) مرادة كما يقال (فلان أعقل الناس) والمراد من أعقلهم ، ومنه حديث (خيركم خيركم لأ هله)ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس الخ .

وأظن أنه تقدم الكلام على هذا ومما يدل على فضل المعوذتين ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت (إن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بمعوذات وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها) .

وروى عنها أيضا أنه ﷺ كان إذا آوي إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات (وقد تقدم الكلام على هذا أيضا) وتكلم الشارح العلقمي على قوله ﷺ (أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين) بكلام طويل لكن أورده لكثرة فوائده .

قال : قال شيخنا اختلف الناس هل في القرآن شيء أفضل من شيء فذهب الإمام أبو الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر الباقلاني وابن حبان إلى المنع لأن الجميع كلام الله ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه ، وروي هذا القول عن مالك .

قال : يحيى بن يحيى تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ .

وذهب آجرون إلى التفضيل لظواهر الأحاديث منهم إسحاق بن راهية وأبو بكر بن العربي والغزالي .

وقال القرطبي : أنه الحق ونقله عن جماعة من العلماء والمتكلمين .

وقال ابن الحضا : العجب ممن يذكر الاختلاف في ذلك مع لنصوص الواردة بالتفضيل .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : كلام الله في الله أفضل من

كلامــه في غيره فقـل هو الله أحـد أفضـل من تبت يدا أبي لهب (واختلف القائلون بالتفضيل) .

فقـال بعضهم الفضـل راجـع إلى عظم الأجـر ومضـاعفـة الثواب بحسب انتقالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها عند ورود أوصاف العلي .

وقيـل بل يرجـع إلى اللفـظ ومـا تضمنـه فقـوله تعالى (وإلهكم إله واحـد) وآيـة الكـرسي وآخـر سورةِ الحشر وسورة الإخلاص من الدلالات على وحـدانيتـه وصفـاته ليس موجودا مثلا في (تبت يدا أبي لهب) وما كان مثلها فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها .

وقال الحلي ونقله عن البيهقي يعني التفضيل يرجع إلى أشياء :

أحدها : أن يكون العمل بها أولى من العمل بالأخرى وأعود على النـاس وعلى هذا يقـال آيـات الأمـر والنهي والوعد والوعيد خير من آيات القصص لأنهـا إنـما أريـد بها تأكيـد الأمـر والنهى والإنذار والتبشير ولاغنى بالناس عن هذه الأمور وقد يستغنوا عن القصص فكان ما هو أعود عليهم وأنفع لهم مما يجرى مجرى الأصول خيرا لهم مما يجعل تبعا لما لابد منه .

الثاني : أن يقال : الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله وبيان صفاته والدلالة على عظمته أفضل بمعنى أن مخبراتها أسنى وأجل قدرا .

الثالث : أن يقال سورة خير من سورة ، وآية خير من آية بمعنى أن

القـارىء يتعجل بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل ، وينادي منه بتلاوتها عبـادة كقـراءة آيـة الكـرسي والإخـلاص والمعـوذتين فإن قارئهـا يتعجـل الاحـتراز مما يخشى والاعتصـام بالله وينادي بتلاوتها عبادة الله فيها من ذكر سبحانه بالصفات العلى على سبيل الاعتقاد لها وسكون النفس إلى فضل ذلك الذكر وبركته .

أقـول : والظـاهـر والله أعلم أن هذا الثـالث هو المنـاسب لروايـة المصنف رحمه الله فإن قارىء المعوذتين يتعجل بقراءتهما سوى الثواب الآجل من التعـوذ والاحـتراز مما يخشى والاعتصام بالله مالا يحصل بغيرهما ولذلك كان يقـرؤهما ﷺ كل ليلة عنـد إرادة النـوم كما تقـدم فكانتا من هذا الوجه أفضل سورة في القرآن وغيره من الكتب والله أعلم .

عدنا قال : فأما آيات لا يقع بنفس تلاوتها إقامة حكم وإنما يقع بها علم .

وقـد يقـال : إن سورة أفضل من سورة لأن الله جعل قراءتها كقراءة أضعـافهـا مما سواهـا وأوجب بها من الثـواب ما لم يوجب بغـيرها وإن كان المعنى الـذي لأجله بلغ بها هذا المقـدار لا يظهـر لنا كما يقال إن يوما أفضل من يوم وشهرا أفضل من شهر بمعنى أن العبادة فيه تفضل على العبادة في غيره ، والـذنب فيـه أعظم منه غيره ، وكما يقال إن الحرم أفضل من الحل لأنه ينادي فيه من المناسك مالا ينادي في غيره ، والصلاة فيه تكون كصلاة مضاعفة مما تقدم في غيره .

قال الحسن البصري : إن الله أودع علوم الكتب السالفة في القرآن ثم أودع علوم القرآن في الفاتحة فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة أخرجه البيهقي .

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشري باشتمالها على الثناء على الله تعالى بما هو أهله وعلى التعبد بالأمر والنهي وعلى الوعد والوعيد وآيات القرآن لا تخلو عن هذه الأمور .

وقال الإمام فخر الدين المقصود من القرآن كله أربعة أمور الإلهيات والمعاد والنبوات وإثبات القضاء والقدر .

فقوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) ما يدل على الإلهيات ، وقوله (مالك يوم الدين) يدل على المعاد ، وقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) يدل على نفي الخبر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره ، وقوله (اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة) يدل على إثبات قضاء الله وعلى النبوات فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة وهذه السورة مشتملة عليها سميت أم القرآن .

قال شيخنا قلت : ولا تنافي أيضا بين كون الفاتحة أعظم السور وبين الحديث الآخر (البقرة أعظم السور) لأن المراد به ما عدا الفاتحة من السور التي فصلت فيها الأحكام ، وضربت الأمثال وأقيمت الحجج إذ لم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه ولذلك سميت فسطاط القرآن .

قال ابن العـربي في أحكـامـه : سمعت بعض أشيـاخي يقول فيها ألف أمر ، وألف نهي ، وألف حكم ، وألف خبر ولعظيم فقهها أقام ابن عمر ثمان سنين على تعلمها أخرجه مالك في الموطأ .

قال ابن العربي أيضا وإنما صارت آية الكرسي أعظم الآيات لعظم مقتضاها فإن الشيء إنما يشرف شرف ذاته ومقتضاه ومتعلقاته وهي في آي القرآن كسورة الإخلاص في سوره إلا أن سورة الإخلاص تفضلها بوجهين .

أحـدهما : أنهـا سورة وهـذه آية والسورة أعظم لأنه وقع التحدي بها فهي أفضل من الآية التي لم يتحد بها .

والثـاني : أن سورة الإخـلاص اقتضت التوحيد في خمسة عشر حرفا وآيـة الكـرسي اقتضت التوحيد في خمسين حرفا فظهرت القدرة في الإعجاز بوضع معنى معبر عنه بخمسين حرفا ثم يعبر عنه بخمسة عشر حرفا وذلك بيان لعظيم القدرة والانفراد بالوحدانية .

قال الغزالي إنما قال ﷺ في الفاتحة أفضل وفي آية الكرسي سيدة لسر وهو أن الجامع بين فنون الفضل وأنواعها الكثيرة يسمى أفضل فإن الفضل هو الـزيـادة والأفضـل الأزيـد وأما السؤدد فهو رسوخ معنى الشرف الذي يقتضي الاستتباع ويأبى التبعية ، والفاتحة تتضمن التنبيه على معان كثيرة ومعارف مختلفة فكانت أفضل ، وآية الكرسي تشتمل على المعرفة العظمى

التي هي المقصودة المتبوعة التي تتبعها سائر المعارف فكان اسم السيد بها أليق .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام القرآن على قسمين : فافضل وهو كلام الله في الله ومفضول وهو كلام غيره عن غيره كقوله تعالى حكاية عن فرعون (ما علمت لكم من إله غيري) وكحكايته عن الكفار ونحو ذلك .

قال شيخنا : بل هو ثلاثة أقسام أفضل وفاضل ومفضول لأن كلامه تعالى فيه ومنه أفضل من بعض كتفضيل الفاتحة والإخلاص انتهي ترتيب .

قال شيخنا ذكر كثيرون في أثر : أن الله جمع علوم الأولين والآخرين في الكتب الأربعة وعلومها في القرآن ، وعلومه في الفاتحة فرادوا وعلوم الفاتحة في البسملة وعلوم البسملة في بائها .

ووجه لأن المقصود من كل العلوم وصول العبد إلى الرب وهذه الباء باء الإلصاق فهي تلصق العبد بجانب الرب وذلك كمال المقصود . وذكره الامام الرازي وابن النقيب في تفسيريهما ، وقالا في حديث (أفضل القرآن سورة البقرة وأعظم آية فيه آية الكرسي) ما نصه : قال شيخنا قال البيضاوي : إنما كان أعظم آية لأنها مشتملة على أمهات المسائل الإلهية فإنها دالة على أنه تعالى واحد في الإلهية متصف بالحياة . قائم بنفسة ، مقوم لغيره ، منزه عن التحيز والحلول ، مبرأ عن التغير والفتور لا يناسب

الأشباح ، ولا يعتريه مايعتري الأرواح ، مالك الملك والملكوت ، مبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له ، العالم وحده بالأشياء كلها جليِّها وخفيِّها كليِّها وجزئيِّها ، واسع الملك والقدرة لا يئوده شاق ولا يشغله شأن متعال عن أن يدركه وهم عظيم لا يحيط به فهم .

قوله : (وقد قال قوم إنهما ليستا من القرآن) فقد كذبوا وأثموا أنظر لم لم يحكم عليهم بالشرك مع أنه ذكر أولا أن من كفر بحرف فقد كفر بالقرآن أجمع ، يعني لأنه مكذب بالله زاد بما كان ، ولعله محمول على ما إذا كان الرد مصادمة من غير تأويل بخلاف المعوذتين فإن من لم يجعلهما من القرآن متأول مع أنه مقر بأنهما من كلام الله .

وقد نسب في بعض كتب قومنا القول بهذا لابن مسعود رضي الله عنه وأظن أنه يتحاشي عن ذلك .

قال صاحب هذا الكتاب : روي عن عبد الله مسعود رضي الله عنه أنه قال : جميع سور القرآن مائة واثنتا عشرة سورة .

قال الفقيه إنما قال مائة واثنتي عشرة سورة لأنه كان لا يعد المعوذتين ، وكان لا يكتب هاتين السورتين في المصحف وكان مقرا بأنهما منزلتان من السماء وهما من كلام رب العالمين لكن النبي ﷺ كان يرقى بهما ويعوذ بهما فاشتبه عليه أنهما من القرآن أو ليستا من القرآن فلم يكتبهما في المصحف .

وقـال مجاهـد : جميع سور القرآن مائة وثلاثة عشرة سورة ، وإنما قال ذلك لأنه كان بعد سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة .

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه جميع سور القرآن مائة وست عشرة سورة وإنما قال ذلك لأنه كان بعد القنوت سورتين إلى أن قال :

وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة وهـذا قول عامة أصحاب رسول الله عليه السلام ، وهكذا في مصحف الإمام وفي مصاحف أهل الأمصار . وعامة العلماء على هذا .

قوله : (ولو أن أحد زاد فيه أو نقص منه كان عند الأمة كافرا) لم يفرق رحمه الله بين من يزيد فيه أو ينقص منه وهو الذي يدل عليه ظاهر قوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين) .

وقوله : (ومن أظلم ممن افتري على الله كذبا أو كذب بآياته الآية) إلى غير ذلك من الآيات ولكن أصحابنا رحمهم الله تعالى فرقوا بينهما فقالوا : الكاذب على الله منافق والمكذب لله مشرك ، فالكاذب على الله زاد ما لم يكن ، والمكذب لله ردَّ ما كان .

قال الشيخ إسماعيل رحمه الله في شرح النونية : وقال أصحابنا وشيوخ أهل المغرب فيما وجدت عنهم أن من دان بدين من المخطئين في

التأويل فكان به على الله شاهدا و في شهادته عليه كاذبا أنه يبرأ منه ويشهد على فعله بالضلال والكفر لقول الله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجـوهـم مسـودة الآيـة) وقوله (فمن افترى على الله كذبا أو كذب بالصدق لما جاءه الآية) .

أقول : التلاوة (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذا جاءه الآية) عدنا فأجمل الوعيد والتكفير الكاذب عليه في التأويل والمكذب له في التنزيل وأما أسماؤهم وأحكامهم مختلفة فالخبر محذوف بخطه رحمه الله تعالى فالمكذب لله مشرك غير متأول بأنه زاد على الله مواجهة مثل من قال في شيء أنزله الله لم ينزله إلى أن قال :

وأما الكاذب على الله فهو منافق متأول مثل من زعم أن الله يُرى يوم القيامة ، وتأول قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ومثل من زعم أن أفعـال العبـاد غير مخلوقـة ، وأن القرآن غير مخلوق وأن أسماء الله مخلوقة ، وأن الله جبر العبـاد على أفعـالهم في أمثـال هذا مما يطـول ذكـره في هؤلاء وأمثالهم من أهل التأويل كفار غير مشركين الخ .

لكن ظاهـر كلامهم رحمهم الله أن الكـاذب على الله الـذي يحكم عليـه بكفـر النفـاق دون الشـرك إنـما هو المتأول المخطىء في تأويله كسـائر الفـرق ، وأمـا من زعـم أن الله أرسـل رسولا وهو يعلم أنه لم يرسله ، وأنزل كتابا وهو يعلم أنه لم ينزله أو زاد في القرآن شيئا من غير تأويل مع علمه بأنه كاذب في ذلك فالظاهر أنه مشرك أيضا ولذلك سوَّى ابن عباس رضي الله عنه بينهما في الكفر وجزم العلقمي بذلك فيما تقدم والله أعلم .

وربما يدل على ذلك قول الشيخ إسماعيل رحمه الله : وأما المخطىء في صفة النبي أو الملك فهو عند أصحابنا مشرك على كل حال لأنه أثبت النبوة لغير نبي وأزالها عن النبي وجعل غير الملك ملكا بقوله ذلك .

فعلى هذا يكون معنى قول أصحاب العقيدة فالكاذب على الله من قال إن الله أنزل كتابا وهو لم ينزله ، أو أرسل رسولا وهو لم يرسله ، أنه قال ذلك بالتأويل من غير قصد إلى الكذب كمن يقول بنبوة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فإن الظاهر من قال ذلك قبحه الله يعتقد أنهما أنبياء في زمانه ﷺ لا بعده وإلا كان مشركا يرده النص في قوله وخاتم النبيين .

ولعله استند في القول بنبوتهما إلى ما يصدر منهما بطريق الفيض الإلهي واعتقد أن ذلك رسالة وأخطأ في ذلك فصار منافقا والله أعلم .

ثم رأيت بعد ذلك في شرح النونية التصريح بالمسألة والخلاف فيها بين أصحابنا حيث قال مسألة قال أبو الربيع سليمان بن يخلف في كتابه من أثبت النبوة لغير نبي أو الرسالة لغير رسول فقد أشرك بالله .

وقول مشايخنا فيما وجدت في الأثر عنهم : أن من أثبت النبوة لغير نبي أو الرسالة لغير رسول أنه كاذب على الله منافق بقوله ذلك لأنه لم يدفع شيئا من كتاب الله ولا رسولا إلى أن قال :

وكذلك من زعم أن أبا بكر وعمر رحمة الله عليهما رسولان على هذا القياس إلى الخ .

أقـول : ويمكن الجمـع بين ماذكره أبو الربيع وبين ما وجده في الأثر عن مشـايخنـا بأن يحمـل ماذكـره أبـو الـربيـع على من أثبت ذلك من غير تأويـل ، ومـا وجـده في الأثـر على من أثبت ذلـك بالتأويل كما تقدم التنبيه عليه فلا منافاة والله أعلم .

قوله : (لم يزد فيه ولم ينقص منه) يتأمل هذا مع ما تقدم ولعله لم يعتبر القول بذلك وهو الحق .

قوله : (وأن الله حاطه من ذلك) أي حفظه قال في الصحاح : وقد حاطه يحوطه حوطا وحيطة وحياطة كلأه ورعاه إلى آخره .

أقول : الدليل على ذلك قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

قال البيضـاوي : أي من التحـريف والـزيـادة والنقص بأن جعلناه معجـزا بائنـا لكلام البشر بحيث لا يخفى تغييرَ نظمه أي حفظه على أهل الدين أو نفي تطرق الخلل إليه في الدوام بضمان الحفظ له إلخ .

قولـه : (وإنـه لكتـاب عزيـز) قال البيضـاوي : كثـير النفع عديم النظـير . قولـه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) قال البيضاوي لا يتطـرق إليـه البـاطـل من جهة من الجهات أو مما فيه مِنْ الأخبار الماضية والأمور الآتية .

وقال البغوي قوله (وإنه لكتاب عزيز) قال الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما كريم على الله .

قال قتادة : أعزه الله لا يجد الباطل إليه سبيلا وهو قوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

قال قتادة والسدي : الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه .

وقال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن يزاد فيه أو ينقص منه فيأتيه الباطل من خلفه ، وعلى هذا ، الباطل الزيادة والنقصان الخ .

أقول : والظاهر أن في كلامه سقطا ولفظه من أن يزاد فيه فيأتيه الباطل من بين يديه أو أن ينقص الخ فليراجع . قال :

وقال مقاتل : لا يأتيه التكذيب من الكتاب الذي قبله ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله .

باب في عذاب القبر والشهداء وولاية قريش والطاعة للأمير

غالب هذا قد تقدم الكلام عليه .

قال جابر بن زيد سئل ابن عباس عن عذاب القبر فقال : قال

رسـول الله ﷺ (إن للقـبر ملكـين يقال لهما منكر ونكير يأتيان كل إنسان في قبره بعد موته حتى يمتحنانه ويحاكمانه) قال ابن عباس (لو نجى من عذاب القبر لنجى منه سعد بن معاذ ولقد ضغطه القبر ضغطة اختلف فيه أضلاعه) .

قوله : (إن للقبر ملكين يقال لهما منكر ونكير الخ) في البخاري ما هو قريب منه بلفظ آخر وهو أن رسول الله ﷺ قال (إن العبد إذا وضع في قبره وتـولى عنـه أصحـابـه حتى إنـه ليسمـع قرع نعـالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقـولان له ما كنت تقـول في هذا الرجل محمدا ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنـه عبـد الله ورسـولـه فقـال له أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا .

قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره ثم رجع إلى حديث أنس قال : وأمـا المنـافق والكـافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري ، كنت أقـول كما يقـول الناس فيقال لا دريت ولا تليت فيضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح صيحة ليسمعها من يليه غير الثقلين .

وذكـر مثله في كتـاب ذكـر المـوت بلفظ أصرح من هذا أو أزيد حيث قال : وقيـل إذا دخـل المـؤمن في قبره أدخـل الله عليه ملكا يقال له رومان فيقـول له إنـه يأتيـك الآن ملكـان يسألانـك من ربـك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينـك ؟ فأجبهـما بما كنت عليه في الدنيا ثم يخرج فيدخلان عليه وهما منكر ونكـير أسـودان أزرقـان فظـان غليظـان عينهـما كالبرق الخاطف وأصواتهما

كالرعد القاصف معهما مرزبة وقيل مطراق وقيل لو اجتمع أهل أمتي عليها ما أطاقوها فيقعدانه فبقولان له من أنت ؟ ومن ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فإذا كان مؤمنا يقول : الله ربي والاسلام ديني ، فيقولان له على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله فيقولان له أنظر عن شمالك فيفتح له باب في قبره إلى النار فيقال له : هذا منزلك لو عصيت الله فأما إذا أطعته فانظر الآن عن يمينك فيفتح له باب إلى الجنة فيدخل عليه منزله وطيب ريحه فيريد أن ينهض فيقال له لم يأت إبان ذلك نم سعيدا نم نومة العروس فما شيء أحب إليه من قيام الساعة حتى يصير إلى أهل ومال وجنة نعيم ، وأما إذا كان كافرا فإذا أقعداه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ها ها لا أدري فيقولان له ما تقول في هذا الرجل المبعوث فيكم ؟ يعنيان محمدا ﷺ فيقول كنت أقول كما يقول الناس ، فيقولان له لا دريت ولا اهتديت فيضربانه بالمطراق ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين فما يسمعه شيء إلا لعنه وذلك قوله (ويلعنهم اللاعنون) ثم يقولان له : على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث فانظر عن يمينك فيفتح له باب إلى الجنة فيقال له هذا منزلك لو أطعت الله فأما إذ عصيته فانظر عن شمالك فيفتح له باب إلى منزله من النار فيجد غمه وأذاه .

ثم ذكر في رواية أخرى لفظه كيف بك يا عمر ؟ إذا دخلت قبرك ودخل عليك فتانا القبر منكر ونكير ؟ فقال عمر : وما منكر ونكير يا رسول الله ؟ قال ملكان أسودان أزرقان فظان غليظان ينحتان الأرض بأنيابهما ويطئان في شعورهما فقال كيف أنا يومئذ يا رسول الله ؟ قال كهيئتك اليوم .

وستأتي رواية المصنف لغالب الحديث الأول قبل الختم بنحو ورقتين وبقية الكلام عليه .

وقوله : (منكر ونكير) ضبط في الصحاح منك بضم الميم وفتح الكاف .

وقـولـه : في الحـديث المـروى في كتـاب ذكـر الموت (أعينهما كالبرق الخـاطف . . الـخ) ذكـر في رواية ابن حجر في رواية عن أبي هريرة أعينهما مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصي البقر وأصواتهما مثل الرعد إلى أن قال : في رواية وزاد يحفران الأرض بأنيابهما ويطئان في شعورهما ، إلى أن قال :

وأورد ابن الجـوزي في المـوضـوعـات حديثـا فيه أن فيهم رومان وهو كبيرهم ، فذكر بعض الفقهاء أن اسم اللذين يسألان المذنب منكر ونكير وأن اسم اللذين يسألان المطيع مبشر وبشير .

وقوله : في ذلك الحديث (فيقعدانه) قال ابن حجر : زاد في حديث البراء (فتعاد روحه في جسده) إلى أن قال :

في روايـة عن أبي هريـرة (فـإذا كان مؤمنـا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن شماله وفعل المعروف من قبل رجليه فيقال له اجلس فيجلس وقـد مثلت له الشمس عنـد الغـروب) . زاد ابن ماجة من حديث جابر (فيجلس فيمسح عينيه ويقول دعوني أصلي) إلى أن قال :

في روايـة أخـرى (فـإن كان مؤمنـا قال أشهـد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدا عبـده ورسـولـه فيقـال له صدقت) زاد أبو داود فلا يسأل عن شيء غيرها إلى أن قال :

في روايـة غيرهـا (فأما المؤمن أو الموقن فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتبعناه ويقال له نم صالحا) إلى أن قال :

في رواية أخرى (فيقال له نم نومة عروس فيكون في أحلى نومة نامها أحد حتى يبعث) إلى أن قال :

ويقـال له ـ في روايـة ـ (نـم نومـة العـروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك) إلى أن قال :

في رواية (ويقال له على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله) إلى أن قال :

في روايـة البخـاري (وذكـر لنـا أنـه يفسح له في قبره) زاد مسلم من طريق شيبـان عن قتـادة (سبعون ذراعا ويملأه خضر إلى يوم يبعثون) إلى أن قال :

في روايـة أخـرى (سبعـون ذراعا في سبعين ذراعا) وفي رواية أخرى (ويـرحب له في قبره سبعـون ذراعـا وينـور له قبره كالقمـر ليلة البـدر) وفي

حديث البراء الطويل (فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنـة وافتحـوا له بابـا في الجنـة وألبسـوه من الجنـة) قال (فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فيها مد بصره) إلى أن قال :

في رواية (فيزداد غبطة وسرورا فيعاد الجلد إلى ما بداله وتجعل روحه في نسم طائر يتعلق في شجر الجنة) .

ثم قال فيـما يتعلق بسـؤال الكـافـر وهل يسأل الكافر أولا يصح أن يسأل إلى أن قال : فيه (فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك هذا ويفتح له باب إلى النار) زاد في حديث أبي هريرة (فيزداد حسرة وثبورا ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه) .

وفي حديث الـبراء (فينـادي مناد من السماء افرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها) .

وقـولـه : في ذلـك الحـديث (فيصيـح صيحـة يسمعه كل شيء إلا الثقلين) قال ابن حجـر : قال المهلب الحكمـة في أن الله يسمـع الجن قول الميت قدمـوني ولا يسمـع صوتـه إذا عذب أن كلامـه قبـل الـدفن متعلق بأحكـام الـدنيا وصوته إذا عذب في القبر متعلق بأحكام الآخرة وقد أخفى الله أحوال الآخرة إلا من شاء الله إبقاء عليهم الخ .

فروي عذاب القبر عن جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين فعدهم إلى أن قال :

وفي حديث البـاب من الفـوائـد اثبـات عذاب القبر وأنه واقع على الكفار ومن شاء الله من الموحدين .

والمسألة وهل هي واقعة على كل أحد ؟ تقدم تقرير ذلك ولا تختص بهذه الأمة أو وقعت على الأمم قبلها ؟

ظاهـر الأحـاديث الأول وبـه جزم الحكيم الـترمـذي وقال : كانت الأمم قبـل هذه الأمـة تأتيهم الـرسـل فإن أطاعوا فذاك وإن أبوا اعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب فلما أرسل الله محمدا رحمة للعالمين أمسك عنهم العذاب وقبل الإسلام من أظهره سواء أسر الكفر أم لا فلما ماتوا فيض لهم فتانا القبر يستخرج سرهم بالسؤال وليميز الله الخبيث من الطيب ويثبت الذين آمنوا ويضل الظالمين .

قال : ويـؤ يـده حديث زيد بن ثابت مرفوعا (إن هذه الأمة تبتلي في قبورها) إلى أن قال :

ويؤ يده أيضا قول الملكين ما تقول فيَّ هذا الرجل محمد .

وحديث عائشة (وأما فتنة القبر فيَّ تفتنون وعنيِّ تسألون) وجنح ابن القيم إلى الثاني إلى أن قال :

قال : والـذي يظهـر أن كل نبي مع أمتـه كذلك فتعذب كفارهم في قبـورهم بعـد سؤالهم وإقـامـة الحجـة عليهم كما يعـذبـون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة .

وحكي في مساءلة الأطفال احتمالا ، والظاهر أن ذلك لا يمتنع في حق المميز دون غيره .

وفيه ذم التقليد في الاعتقادات لمعاقبة من قال (كنت أسمع الناس يقولون شيئا فقلته) وفيه أن الميت يحيى في قبره للمساءلة خلافا لمن رده واحتج بقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحيينا اثنتين الآية) قالوا فلو كان يحيى في قبره للزم أن يحيى ثلاث مرات وهو خلاف النص .

والجواب : أن المراد بالحياة في القبر للمساءلة ليست الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبيره وتصرفه ويحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة فهي إعادة عارضة كما حيى خلق كثير على يد الأنبياء لمساءلتهم لهم عن أشياء ثم عادوا موتى الخ .

قوله : (لو نجا من عذاب القبر أحد لنجا سعد بن معاذ الخ) ذكر في الجامع روايتين .

إحداهما : (إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيا منها نجا منها سعد بن معاذ) .

والثانية : (لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم روخي عنه) .

فهاتان الروايتان تدلان على أن المراد بعذاب القبر الذي لا ينجو منه أحد الضمة التي تحصل للإنسان في القبر عند نزوله فيه وليس المراد دوام ذلك ولا غيره من أنواع العذاب للمسلم ـ أجارنا الله من ذلك ـ وإلا لم يكن للاستعاذة من عذاب القبر معنى ولا صدق قوله ﷺ (القبر روضة من رياض الجنة) يعني في حق المسلم .

قال العلقمي في قوله : (إن للقبر ضغطة الخ) قال في النهاية ضغطة يضغطه ضغطا إذا عصره وضيق عليه وقهره .

وفي الحديث عند النسائي والبيهقي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال (هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهد له سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه) يعني سعد بن معاذ .

وقال الحسن : تحرك له العرش فرحا بقدومه .

وسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال (كان يقصر في بعض الطهور من البول) وفي رواية (كان لا يستبرىء من البول) وفي رواية (انه ضم في القبر ضمة حتى صار مثل الشعرة فدعوت الله أن يرفه عنه وذلك أنه كان لا يستبرىء) .

أقول : في ثبوت هذا يعني عدم الاستبراء أو التقصير فيه في حق سعد رضي الله عنه ، تأمل مع جلالة قدره وفضله ، ولعله لم يثبت ذلك في حقه ولذلك لم يتعرض له المصنف رحمه الله في روايته .

عدنا قال : قال شيخنا قال أبو القاسم السعدي في كتاب (الروح) له : لا ينجو من ضغطة القبر لا صالح ولا طالح غير أن الفرق بين المسلم والكافر فيها دوام الضغطة للكافر وحصول هذه الحالة للمؤمن في أول نزوله في قبره ثم يعود إلى الإفساح له فيه .

قال : المراد بضغطة القبر التقاء جانبيه على جسد الميت .

قال الحكيم الترمذي : سبب هذه الضغطة أنه ما من أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما وإن كان صالحا فجعلت هذه جزاء ثم تدركه الرحمة ولذلك ضغط سعد بن معاذ في التقصير من البول .

قال : وأما الأنبياء فلا نعلم أن لهم في القبور ضمة ولا سؤالا وذلك لعصمتهم .

وقال النسقي : وفي بحر الكلام المؤمن المطيع لا يكون له عذاب القبر ولكن له ضغطة القبر فيجد هول ذلك وخوفه لما أنه يتنعم بنعمة الله ولم يشكر النعمة .

أقول : في هذا التوجيه نظر ، لأن الغرض أنه مؤمن مطيع فكيف لا يكون شاكرا للنعمة ، إلا أن يقال قبل التوبة فيمن كان عاصيا أو يقال لم يشكرها حق الشكر والكل مقصرون فنسأل الله العفو .

عدنا : قال وأخرج ابن أبي الدنيا عن محمد التيمي قال : كان يقال

إن ضمـة القـبر إنما أصلها أنها أمهم ومنها خلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة فلما رد إليهـا أولادهـا ضمتهم ضمـة الـوالدة التي غاب عنها ولدها ثم قدم عليهـا فمن كان مطيعـا ضمتـه ضمـة برأفـة ورفق ومن كان عاصيـا ضمته بعنف وسخط منها عليه لربها .

وذكر أبو الحسن شارح الرسالة : أن ضمة القبر لابد منها لكل واحد كبـيرا كان أو صغـيرا مؤمنـا كان أو كافـرا لكن ضمـة المـؤمن ضمة شفقة كضمـة الـوالـدة الشفـوقـة لولـدها وتقول مرحبا بمن كنت أحبه وهو على ظهري فكيف الآن وهو في بطني ، وضمة الكافر ضمة عذاب حتى تختلف أضـلاعـه وتقـول لا مرحبا بمن كنت أبغضه وهو على ظهري فكيف الآن وهو في بطني .

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ (الشهيد يغفر له عند أول قطرة تقطر من دمه ونجا من عذاب القبر) وقال ﷺ (من مات يوم الجمعة أجير من عذاب القبر) .

قوله : (الشهيد يغفر له عند أول قطرة الخ) لفظه في الجامع (الشهيد بقـولـه في أول دفعـة من دمه ويزوج بحوراوين ويشفع في سبيعين من أهل بيتـه ، والمـرابـط إذا مات في رباطه كتب له أجر عمله إلى يوم القيامة وغدا عليـه وريـح برزقـه ويزوج سبعين حوراء وقيل له قف فاشفع إلى أن يفرغ من الحساب) ولم يتكلم عليه شارحه العلقمي بشيء ولعله لظهور معناه ، وتقدم الكلام على سبب تسمية الشهيد شهيدا في باب عدة الشهداء .

قولـه : (من مات يوم الجمعـة أجـير من عذاب القـبر) يعني إذا كان موفيـا بدين الله كما هو معلوم لأن الكافر لا كرامة له وهل يدخل عليه منكر ونكير للسؤال أو لا ؟ والظاهر الثاني لأنه إذا كان ينجو من عذاب القبر لقوله ﷺ (أو نجـا أحـد من عذاب القبر الحديث) فكيف لا ينجو من السؤال الذي هو أهون من ذلك .

وقـد جزم في بعض كتب قومنـا بذلـك وعبـارة بعضهم (ثـمانيـة لا يسألون في قبورهم شهيد المعركة والمرابط والمطعون والصديق رضي الله عنه والأطفال والميت يوم الجمعة أو ليلتها وقارىء سورة الملك كل ليلة والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ونظمهم بعضهم فقال :

شـهيـد ومطعـون كـذاك مرابـط ... وطفل كذا الصديق مع قارىء الملك
وميت بيـوم الجمعـة الفـرد ضف له ... بليلتهـا الغـراء سلمت من الشـرك
كـذا الأنـبيـا لا يسألـون حقيقـة ... ثمانـيـة من غير خلف ولا شك

وقال ﷺ (إن لم يكن الشهداء من أمتي إلا من قتل بالسيف فهم إذاً قليل) ثم قال ﷺ (القتيل شهيد وذكر الحديث) .

قولـه (ثم قال ﷺ القتيـل شهيـد وذكـر الحديث) تقدم بيانه في باب عدة الشهداء وذكر فيه أحد عشرة نوعا .

وتقـدم عن ابن حجـر أنـه قال وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة فذكرها وقد تقدم بيان ذلك وما زاده العلقمي فليراجع .

وقـال جابـر بن زيـد سئـل ابن عباس عن فضل قريش فقال : قال رسول الله ﷺ (اللهم كما أذقت أول قريش نكالا فأذق آخرهم نوالا) لفظه في الجـامـع (اللهم اهد قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما ، (اللهم كما أذقتهم عذابا فأذقهم نوالا) ولم يتكلم الشارح إلا على قوله (عالمها) وأن المراد به الشافعي وأطال في ذلك .

ولعل المراد بالعذاب الذي ذاق أول قريش القتل كحمزة وجعفرابن أبي طالب رضي الله عنهما وغيرهما من قريش .

والنوال العطاء ولعل المراد به ما حصل لهم بعد ذلك من الغنائم وكون الإمارة فيهم وهم المتصرفون في ذلك والله أعلم .

وقال ﷺ (لم يزل هذا الأمر في قريش ما لم يحدثوا أحداثا ثم يزيحه الله عنهم ويلحاهم كما يلحى هذا القضيب لقضيب في يده) .

قولـه : (لن يزال هذا الأمـر في قريش الـخ) ذكـر فيـما تقدم في باب الولاية والإمارة حديثين :

أحدهما : (لا يزال هذا الأمر ـ يعني الولاية ـ في قريش ما دام فيهم رجلان فأشار بأصبعيه ولكن الويل لمن افتتن بالملك) .

والثاني : قال رسول الله ﷺ لقريش (لن يزال الأمر فيكم وأنتم ولاته

ما لم تحدثوا فإذا فعلتم سلط الله عليكم أشرار خلقه يلحونكم كما يلحى هذا القضيب . لقضيب كان في يده) وتقدم الكلام عليه بما فيه الكفاية فليراجع .

وقال ﷺ (إن أمر عليكم عبد حبشي مجدع الأنف فاسمعوا له وأطيعوه ما أقام فيكم كتاب الله) .

قوله : (إن أمر عليكم عبد حبشي مجدع الأنف فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله) لفظ الحديث في البخاري والجامع (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) .

وفي الجامع رواية أخرى لفظها (الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها وفجارها أمراء فجارها وإن أمرت عليكم قريش عبدا حبشيا مجدعا فاسمعوا له وأطيعوا ما لم يخير أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه فإذا خير بين إسلامه وضرب عنقه فليقدم عنقه) .

ولم يكتب شارحه عليه شيئا إلا على قوله (مجدع) قال بالجيم والدال والعين المهملتين قطع الأنف أو الأذن أو الشفة وهو بالأنف أخص فإذا أطلق غلب عليه .

وكتب ابن حجر على الرواية الأولى ما لفظه :

قوله : (اسمعوا واطيعوا وإن استعمل) بضم المثناة على البناء

للمجهول أي جعل عاملا بأن أمر إمارة عامة على البلد مثلا أو ولى خاصة فيها ولاية كالإمامة في الصلاة أو جباية الخراج أو مباشرة الحرب فقد كان في زمن الخلفاء الراشدين من تجمع له الأمور الثلاثة ومن يختص ببعضها .

وكتب على قوله (حبشي) قال : بفتح المهملة والموحدة بعدها معجمة منسوب إلى الحبش .

قال العلقمي قال الدميري قال القاضي عياض وغيره : أجمع العلماء على وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وعلى تحريمها في المعصية لقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) .

قال العلماء المراد بأولي الأمر من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء ، هذا قول جماهير السلف والخلف المفسرين والفقهاء وغيرهم .

وقيل هم العلماء وقيل الأمراء والعلماء (وأما من قال الصحابة خاصة فقد أخطأ) وفي الحديث الحث على السمع والطاعة إذ بذلك تجتمع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب فساد أحوالهم في دينهم ودنياهم .

وقال العلماء تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس مما ليس بمعصية فإن كان معصية فلا سمع ولا طاعة كما هو مصرح به في الأحاديث فتحمل الأحاديث المطلقة على وجوب طاعتهم على موافقة تلك الأحاديث مصرحة بأن لا سمع ولا طاعة في المعصية قال انتهى .

أقـول : وقـد تقـدم الكـلام على هذا أيضا قال ابن حجر في قوله : (كأن رأسـه زبيبـة) واحـدة الـزبيب المعروف المأكول الكائن من العنب إذا جف ، وإنـما شبـه رأس الحبشي بالـزبيبة لتجمعها ولكون شعره أسود وهو تمثيل في الحقارة وبشاعة الصورة وعدم الاعتداد بها .

ونقل ابن بطال عن المهلب قال : قوله (اسمعوا وأطيعوا) لا يوجب أن يكون المستعمل للعبد إلا إماما قرشيا لما تقدم أن الامامة لا تكون إلا في قريش ، وأجمعت الأمة على أنها لا تكون في العبد .

قال ابن حجـر : قلت ويحتمـل أن يسمى عبـدا باعتبـار ما كان قبل العتق وهـذا كله إنـما يكـون عنـد الاختيار وأما لو تغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة فإن طاعته تجب إخمادا للفتنة ما لم يأمر بمعصية الله كما تقدم تقريره .

وقيـل : المـراد أن الإمـام الأعظم إذا استعمـل العبد الحبشي على إمارة بلد مثلا وجبت طاعته وليس فيه أن العبد الحبشي يكون هو الإمام الأعظم .

وقال الخطابي قد يضرب المثل بما لا يقع في الوجود ـ يعني وهذا من ذاك ـ أطلق العبـد الحبشي من مبـالغة في الأمر بالطاعة وإن كان لا يتصور شرعا أن يلي ذلك .

قال العلقمي : قلت ومن شاهد بلاد الحجاز رأى غالب أمور قراها

المتولي لأمرها عبد إما أسود وإما حبشي وكذا غالب بلاد الوجه القبلي وكذا إقليم المنوفية وتصدر منهم أحكام خارجة عن الضبط والقياس .

وقال ﷺ (يا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة محمد اشتر يا أنفسكما من الله فإني لا أملك لكما من الله شيئا) فإذا قال ﷺ هذا لابنته وعمته فكيف يطمع من سواهن أن يغفر له وهو مقيم على الفجور غير تائب منه .

قوله : (يا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة محمد الخ) ومثله ما ذكره الشيخ إسماعيل رحمه الله في شرح النونية عند قوله :

ومن يتكل على الشفاعة آمنا
بلا عمل أخسر به في ذوي الهون

حيث قال بعد كلام على الشفاعة وأنها خاصة بالمؤمنين ما نصه : وأما من لقي الله فاجرا فليس له شفيع .

وفي الأثر : وحدث عبد الله بن الآدمي أن رسولَ الله ﷺ قعد على المنبر ثم قال : الصلاة جامعة رحمكم الله ثم قال (يا عباس عم رسول الله ﷺ ويا فاطمة بنت محمد ويا آل محمد جميعا إني والذي نفسي بيده عند ربي لمطاع مكين فلا تغرن امرأ نفسه يقول أنا عم رسول الله ﷺ أو تقول بنت محمد أو من آل محمد اشتروا أنفسكم من الله فإنكم إن لم تفعلوا هلكتم مع من عرفتم هلاكه إني على الحوض يوم القيامة فارط فيرد على

ناس من أصحـابي ثم يأتيني رجـل قد عرفته من أصحابي ليختلجن بفروة رأسـه عظم ثم لآخـذن بحجزته فأقول : أرسلوه إنه من أصحابي فليؤخذ بيـدي فكـا كا أرسـل أرسـل فإنـه والله مامشى من بعدك قدما ولكنه مشى القهقري ليدخل جهنم فلا أستطيع له شيئا الحذر الحذر يا آل محمد) .

وذكـر جابـر بن زيـد رضي الله عنـه أنـه لما نزلت (وأنـذر عشـيرتك الأقـربـين) جعل رسول الله ﷺ يتفخذ فخاذ قريش فخذا فخذا حتى أتي على بني عبـد المطلب فقـال : يا بني عبـد المطلب إن الله أمرني أن أنذركم ألا وإني لا أغـني عنكم من الله شيئـا ألا وإن أوليـائي منكم المتقـون ألا لأعـرفن ما جاء النـاس غدا بالـدين وجئتم بالـدنيـا تحملونهـا على رقابكم يا فاطمـة بنت محمـد ويـا صفيـة عمـة محمـد اشتر يا أنفسكما من الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئا والله أعلم .

فكيف يطمع أهل الكبائر المصرون عليها مع هذا في شفاعة الرسول عليـه السـلام نسأل الله تعـالى بجوده وكرمه أن يجعلنا من أهل شفاعة نبيه عليـه السـلام ولـو علمنا أنها لأهل الكبائر ما سألنا الله يجعلنا من أهلها لأنا إذا سألنـاه من ذلـك فقـد سألناه أن يجعلنا من أهل الكبائر حتى يعطيها لنا وبالله التوفيق .

البـاب الثـالث السـنة فـي التعظيـم لله عـز وجـل

يعني بأن يقـال عنـد رؤ يـة ما يتعجب منه سبحان الله فيما روي عن النبي ﷺ وعن أصحـابـه والتابعين بإحسان . قال جابر عن ابن عباس أن رجـلا من بني عامـر بن ربيعة يقال له أربد جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمـد أخـبر ني من أي شيء ربك من ذهب أو من فضة أو من نحاس أو من حديـد ؟ وهـو يقول سبحان الله إذ جاءت رعدة وبرقة فأرعدت وأبرقت ثم جاءت حتى وقعت بحـذاء رأسـه فوقـع ميتـا قال الله عز وجـل (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) يعني العقاب .

قولـه : (جـاء إلى رسـول الله ﷺ قال : يا محمـد أخبر ني . . الخ) ذكر البغوي هذا الحديث بوجهين .

أحدهما : ما ذكره المصنف .

والآخر : غيره حيث قال : في قوله تعالى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقـة وهي العـذاب المهلك ينزل من البر ق فيحرق من يصيبه (فيصيب به من يشاء) كما أصاب أربد بن ربيعة .

وقـال محمـد بن على البـاقر : الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم يجادلون) يخاصمون في الله نزلت في شأن أربد بن

ربيعة حيث قال للنبي ﷺ مم ربك أمن در أمن ياقوت أمن ذهب ؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته .

وسئل الحسن عن قوله عز وجل (ويرسل الصواعق . . الآية) قال : كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفرا يدعونه إلى الله ورسوله فقال : لهم أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعوني إليه مم هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال : ارجعوا إليه فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى وقال : أجيب محمدا إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا : يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى وأخبث فقال : ارجعوا إليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول : في هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة وكانت فوق رءوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاءوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ فاستقبلهم قوم من الصحابة فقالوا لهم : احترق صاحبكم ؟ فقالوا : من أين علمتم ؟ فقالوا : أوحي إلى النبي ﷺ (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) الخ .

وذكر البيضاوي : في سبب نزول هذه الآية وجها آخر حيث قال : في قوله (وهم يجادلون في الله) حيث يكذبون رسول الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم والجدال الشديد في الخصومة من الجدل وهو الفتل ، والواو إما لعطف الجملة أو للحال .

فإنه روي أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد ـ وفدا ـ على

رسـول الله ﷺ قاصـدين لقتله فأخـذه عامـر بالمجـادلة ودار أربد من خلفه ليضـربـه بالسيف فتنبـه له الـرسـول ﷺ فقـال : اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسـل الله تعـالى على أربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات في بيت سلولية وكان يقول : غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية فنزلت .

قولـه : (وهـو شديـد المحـال) يعني شديـد العقاب ، هذا قول أبي عبيـد . وقـال علي : شديـد الأخـذ . وقـال ابن عباس : شديد الحول . وقال الحسن : الحقد وقال مجاهد : شديد القوة .

وقيل : شديد المكر والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة قاله البغوي .

وقـال البيضـاوي : المحـال المماحلة والمكايدة لأعدائه من محل فلان بفـلان إذا كاده وعـرضـه للهـلاك ، ومنـه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة ولعل أصله المحل بمعنى القحط وقيل فعال من المحل بمعنى القوة الخ .

جابر بن زيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سألت اليهود رسـول الله ﷺ عن صفـة الله فسكت قليـلا رجاء أن ينزل عليهم عذابه ، ونزل عليه جبريل عليه السلام بسورة الإخلاص (بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

قولــه : (سألت اليهــود رســول الله ﷺ فسكت . . الــخ) ذكــر البيضاوي أن سبب نزول سورة الإخلاص أن قريشا قالوا يا محمد صف لنا ربك الذي تدعونا إليه فنزلت .

وذكـر البغـوي ما ذكـره المصنف رحمه الله وما ذكره البيضاوي وزيادة حيث قال : روي أبـو العـاليـة عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله هذه السورة .

وروي أبـو ضبيـان وأبـو صالـح عن ابن عباس أن عامر ابن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر إلى من تدعونا يا محمد ؟ قال إلى الله تعـــال قال صفـه لنـا أمن ذهب هو أم من فضـة أم حديـد أم خشب ؟ فنزلت هذه السورة فأهلك الله أربد بالصاعقة وعامرا بالطاعون وذكرناه في سورة الرعد .

وقـــال الضحـــاك وقتـادة ومقـاتـل جاء ناس من أحبـار اليهـود إلى النبي ﷺ فقـالـوا : صف لنـا ربـك لعلنـا نؤمن بك فإن الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا من أي شيء هو؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث ؟ وممن يورثهـا ؟ فأنـزل الله هذه السـورة (قـل هو الله أحـد) ولا فرق بين الـواحد والأحـد يدل عليـه قراءة عبد الله ابن مسعود قل هو الله الواحد إلى أن قال عن أبي هريـــرة عن رسـول الله ﷺ قال : (قـال كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلـك وشتمني ولم يكن له ذلـك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهـون علي من إعـادتـه ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

وقال ﷺ (تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنه لا يدرك إلا بتصديقه) .

قولـه : (تفكـروا في الخلق ولا تتفكـروا في الخـالق) الـخ ذكر فيه في الجامع روايات :

منهـا (تفكـروا في كل شيء ولا تفكـروا في ذات الله فإن بين السـماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك) .

ومنها (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا) .

ومنها (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره) .

ومنها (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله) ومنها (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله) .

ولم يكتب الشـارح على هذه الـروايـات شيئـا ولكن كتب الشيـخ إسماعيل رحمه الله في شرح النونية في هذا ما فيه الكفاية حيث قال في شرح قوله :

فكـل الـذي أضحى على البال سانحا
فذلـك غير الله فانـف عن الـذهـن

بعد كلام طويل ما نصه فصل : فكل ما تخيل في وهمك أو تكيف في

عقلك أو تمثل في نفسك أو تلون في فكرك فاعلم أن الله سبحانه وصفاته بخلاف ذلك فإنه لا يدرك ببصر ولا بصيرة لأن الله عز وجل لا يشبه المخلوقات في شيء من الصفات ، ولا يوصف بالسكون ولا الحركات .

فكل حادثة في الوجود لا تخلو من ثلاث تقييدات الجنس ، والزمان والمكان ، فهذه التقييدات هي منتهى العقول لا تتعداه وهو العجز عن التكييف ليس للعقول وراء ذلك مجال تجول فيه إلا غموض الوحدانية وصفات الربوبية لا يطلع على ذلك إلا الجبار الأعظم لا شريك له ، ليس البصر والبصيرة له بلاحظات ، ولا الأوهام له بلاحقات ، ولا العقول له بمكيفات ، ولا النفوس له بممثلات ، ولا الأ فكار له بالمخيلات ، ولا الأذهان له بمدركات ، ولا الألسن له بواصفات بجميع مالا يطلق به من الصفات ولا الآذان له بسامعات ، ولا الفوقيات له برافعات ، ولا التحتيات بواضعات ، ولا السموات له بكانفات ، ولا فوقيات العرش له بمحاورات ، ولا تحتيات الثرى له بمقابلات ، ولا جوانب الحوادث له بمحاذيات ولا الأعراض له بمحركات ، ولا الجواهر له بمجانسات ، بل هو الرفيع الدرجات عن جميع المحدثات حي قيوم في الأرض والسموات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) .

قال الربيع أخبرنا بشير عن إسماعيل بن علي عن داود بن أبي عقيل عن أبي هند عن الشعبي قال : كنت عند عائشة رضي الله عنها قالت : ثلاثة من تكلم منهن فقد أعظم على الله الفرية من زعم أن محمدا رآى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال : وكنت متكئا فجلست فقلت يا أم المؤمنين أنظري ولا تعجلين ألم يقل الله ولقد رآه نزلة أخرى ولقد رآه بالأفق

المبين فقالت عائشة أنا أول هذه الأمة سألت النبي ﷺ عن ذلك قال ذلك جبر يـل عليـه السـلام لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ورأيته قد هبـط من السـماء فسـدَّ جسمه ما بين السماء والأرض ألم تسمع لقوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) .

قال مســروق تفسـير هذه الآيــة دليـل على ما روت عائشـة عن النبي ﷺ يقــول ما كذب الفــؤاد ما رآى من آيـات ربـه الكـبرى ثم عاد الحديث إلى ابن عيينه فقال : قالت عائشة ومن زعم أن محمدا ﷺ لم يبلغ ما أنـزل إليـه من ربـه فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمـك من النـاس) ومن زعم أن محمـدا يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفـريـة لأن الله تعالى يقول (لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون) .

قوله : (من زعم أن محمدا رآى ربه فقد أعظم على الله الفرية) أي الكذب قد تقدم الكلام عليه في ذكر الشرك والكفر وكيف يجمع بينها وبين ابن عبـاس رضي الله عنهـما في الـولايـة مع قولـه (إن محمدا رآى ربه بعين رأسه) وتقدم أن مراده بذلك أنه علمه بتميز واستدلال من عقل وأن الأطباء تزعم أن العقل في الرأس .

ومثـل روايـة الشعبي عن عائشة رضي الله عنها ما ذكره البغوي عن مسروق عن عائشة حيث قال : في قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رآى) .

واختلفوا في الذي رآه :

فقال قوم هو جبريل عليه السلام وهو قول ابن مسعود وعائشة . أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر إلى أن قال : عن عبد الله (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال : رأى جبريل له ستمائة جناح .

وقال آخرون هو الله عز وجل ثم اختلفوا في معنى الرؤية فقال بعضهم جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده وهو قول ابن عباس .

أقول : فعلى هذا القول من قال بعين رأسه زيادة على ما ذهب إليه ابن عباس والله أعلم .

عدنا إلى أن قال : وذهب جماعة إلى أنه رأى بعينه وهو قول أنس وعكرمة والحسن قالوا : رأى محمد ربه إلى أن قال :

فكانت عائشة تقول لم ير رسول ﷺ وتحمل الآية على رؤية جبريل إلى أن قال :

عن مسروق قال : قلت لعائشة يا أماه هل رأى محمد ربه قالت : لقد قب شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ثم قرأت (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من

وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت(وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثـك أنـه كتم فقـد كذب ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . . الآية) ولكنه رآى جبريل في صورته مرتـين إلى أن قال : في قولـه ولقـد رآه نزلـة أخرى يعني أنه رآى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلا من السماء نزلة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء عند سدرة المنتهى الخ .

قوله : (ومن زعم أن محمدا ﷺ لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه . . الخ) لفظـه في البخـاري عن الشعبي عن مسـروق عن عائشـة قالت : (من حدثـك أن النبي ﷺ كتم شيئـا من الـوحي فلا تصدقه إن الله تعالى يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) .

وذكـر روايـة أخري في محل آخر لفظها عن الشعبي عن مسروق عن عائشـة رضي الله عنهـا قالت : (من حدثـك أن محمدا رآى ربه فقد كذب وهـو يقـول (لا تدركه الأبصار) ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول : (لايعلم الغيب إلا الله) .

وفي رواية (ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت (وما تدري نفس ماذا تكسب غد) .

قال ابن حجـر ونقـل ابن التـين عن الـداودي قال قولـه : في هذا

الطريق (من حدثك أن محمدا يعلم الغيب ما أظنه محفوظا وما أحد يدعي أن رسول الله ﷺ كان يعلم من الغيب إلا ما علم) .

وذكر الرواية الأخري بلفظ قالت (ثلاث من قال واحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية من زعم أنه يعلم ما في غد الحديث) ثم ذكرها أيضا بلفظ آخر (وهو أعظم الفرية على الله من قال إن محمدا رآى ربه وإن محمدا كتم شيئا من الوحي وأن محمدا يعلم ما في غد) ثم رد ما نقله ابن التين عن الداودي من النفي حيث قال : وما ادعاه من النفي متعقب فإن بعض من لم يرسخ في الإيمان يظن ذلك حتى كان يرى أن صحة النبوة تستلزم اطلاع النبي على جميع المغيبات كما وقع في المغازي لابن إسحاق أن ناقة النبي ﷺ ضلت فقال زيد بن اللصيت ـ بصاد مهملة وآخره مثناة وزن عظيم ـ يزعم محمد أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ؟ فقال النبي ﷺ أن رجلا يقول كذا وكذا وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في شعب كذا قد حبستها شجرة فذهبوا فجاءوه بها .

فأعلم النبي ﷺ أنه لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله وهو مطابق لقوله تعالى (فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضي من رسول الآية) .

وقد اختلف العلماء في المراد بالغيب فقيل هو على عمومه ، وقيل ما يتعلق بالوحي خاصة ، وقيل ما يتعلق بعلم الساعة وهو ضعيف لما تقدم في تفسير لقمان أن علم الساعة مما استأثر الله بعلمه إلا أن ذهب قائل ذلك إلى أن الاستثناء منقطع وقد تقدم ما يتعلق بالغيب هناك .

قال الـزمخشـري في هذه الآيـة إبطـال الكـرامات لأن الذين يضاف إليهم - وإن كانـوا أوليـاء مرتضين - فليسوا برسل وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وتعقب بما تقدم .

وقال الإمام فخر الدين قوله على (غيبه) مفرد وليس فيه صيغة عموم فيصح أن يقال إن الله لا يظهر على غيب واحد من غيوبه أحدا إلا الرسل فيحمل على وقت وقوع القيامة ويقويه ذكرها عقب قوله (أقريب ما توعدون) .

وتعقب بأن الرسل لم يظهروا على ذلك .

وقال أيضا : يجوز أن يكون الاستثناء منقطعا أي لا يظهر على غيبه المخصوص أحدا لكن من ارتضى من رسول فإنه يجعل له حفظه .

وقال القاضي البيضاوي : يخصص الرسول بالملك في إطلاعه على الغيب ، والأولياء يقع ذلك لهم بالإلهام .

وقـال ابن المنـير : دعوى الزمخشري عامة ودليله خاص ، فالدعوى امتنـاع الكـرامـات كلها والدليل يحتمل أن يقال ليس فيه إلا نفي الإطلاع على الغيب بخلاف سائر الكرامات .

وتمـامـه أن يقـال : المراد بالإطلاع على الغيب ما سيقع قبل أن يقع

على تفصيله فلا يدخـل في هذا ما يكشف لهم من الأمـور المغيبـة عنهم ، ولا ما يخرق من العادة كالمشي على الماء وقطع المسافة البعيدة في مدة لطيفة ونحو ذلك .

وقال الطيبي : الأقرب تخصيص الإطلاع بالظهور والخفاء .

أقـول : المنـاسب أن يقـول تخصيص الإظهـار بالإطلاع التام الجلي دون الخفي فإطلاع الله الأنبياء على الغيب أمكن ويدل عليه الاستعلاء في (على غيبـه) فضمن يظهـر معنى يطلع فلا يظهـر على غيبـه إظهـارا تامـا وكشفـا جليـا إلا الـرسـول يوحي إليـه مع ملك وحفظتـه ولذلك قال (فإنه يسلك من بين يديـه ومن خلفـه رصدا) ، وتعليله بقوله ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم .

وأما الكرامات فهي من قبيل التلويح واللمحان وليسوا في ذلك كالأنبياء .

وقد جزم الأستاذ أبو إسحاق بأن كرامات الأولياء لا تضاهى بل هي معجزة للأنبياء .

وقال أبو بكر بن فورك : الأنبياء مأمورون بإظهارها والولي يجب عليه إخفاؤها ، والنبي يدعي ذلك بما يقطع به بخلاف الولي فإنه لا يأمن الاستدراج .

وفي الآيـة رد على المنجمـين وعلى كل من يدعي أنـه يطلع على ما سيكـون من حيـاة أو موت وغير ذلك لأنه مكذب للقرآن ، وهو أبعد شيء من الارتضاء مع سلب صفة الرسلية عنهم . . الخ .

ثم قال : في محل آخر فيما يتعلق بالتبليغ بعد كلام : فقال النبي ﷺ في خطبته (إنما أنا بشر رسول فأذكركم بالله إن كنتم تعلمون أني قصرت عن تبليـغ شيء من رسـالات ربي - يعني فقـولـوا : فقـالـوا نشهد أنك بلغت رسالات ربك وقضيت الذي عليك . . الخ) .

أقـول : أمـا الـرؤ يـة فقد كذب فيها بعضهم كما هو معلوم فتكذيبه ظاهـر وكـذلك القول بأنه يعلم الغيب فإنه زعم ذلك من لم يكن راسخا في الإيمان كما تقدم فتكذيبه أيضا ظاهر .

وأما عدم التبليغ فإنه لا يمكن أن يقول أحد إن الرسول لم يفعل ما أمر به من تبليغ الرسالة فلا يوجد أحد يحدثنا بذلك فما معنى قولها رضي الله عنهـا في هذه الصـورة (فقد أعظم على الله الفرية) اللهم إلا أن يقال على الفرض والتقدير لأن القضية الشرطية لا تقتضي الوقوع على حد قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) .

والحـاصـل أن التبليـغ مجمـع عليه لقوله تعالى (فتول عنهم فما أنت بملوم) . بعد قوله (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك الآية) غايته أنهم اختلفـوا في معنى التبليـغ فذهب المنكـر إلى أن معناه الإسماع فذهبوا

إلى أن النـاس كلهم قد سمعـوا في زمـانه فكذبوا في ذلك لأنه ﷺ لم يرسل إلى الجزائر الخالدات التي لا يؤتي منها ولا إليها وإلى يأجوج وماجوج مثلا مع أنـه أرسـل إلى النـاس كافة وقد بلغهم جمعيا ، ولذلك جعل أصحابنا رحمهم الله تبليغ الرسول ﷺ على ثلاثة أوجه :

الأول : هو ورسوله وكتابه وجه .

الوجه الثاني : عذره وتوسعته لمن كان على دين نبى قبله حتى يصله الخبر ببعثته ﷺ لقوله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) .

والوجه الثالث : قطع عذر من لم يكن على الدين أينما كان لقول الله عز وجل (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

وقيل هو وجه ورسوله وكتابه وجه وتوسعته لمن كان على الدين حتى يسمع ، وقطع عذر من لم يكن على الدين أينما كان وجه انتهى ، مختصرا من السؤالات .

قوله : (ومن زعم أن محمدا يعلم ما في غد) قال ابن حجر : في رواية البخـاري (ولا يعلم ما في غد إلا الله) إشـارة إلى أنواع الزمان وما فيها من الحوادث ، وعبر بلفظ غد لكون حقيقته أقرب الأزمنة ، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه مع إمكان الأمارة والعلامة فما بعد عنه أولى .

وفي قوله (ولا يعلم متى الساعة إلا الله) إشارة إلى علوم الآخرة فإن يوم القيامة أولها ، وإذا نفي علم الأقرب انتفى علم ما بعده إلى أن قال :

وقد يبين بقوله تعالى في الآية الأخرى وهي قوله (فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) أن الإطلاع على شيء من هذه الأمور لا يكون إلا بتوقيف . وأراد بالأمور الخمسة المذكورة في قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة الآية) .

قوله : (لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) يجوز في الاستثناء أن يكون منقطعا ورفع على لغة تميم ويجوز أن يكون متصلا والمراد بمن في السموات والأرض من تعلق علمه بها أو من يذكر فيها والله أعلم .

وأخبرنا أبو ربيعة زيد بن عوف العامري البصري قال أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي عثمان النهدي أن أبا موسى الأشعري قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فلما دنونا من المدينة كبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي ﷺ : يا أيها الناس إنكم لم تدعوا أصم ولا غائبا إن الذي تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم ثم قال ﷺ : يا أبا موسى هل أدلك على كنز من كنوز الجنة قال قلت ما هو يا رسول الله قال : لا حول ولا قوة إلا بالله قال جابر ومعنى قول النبي ﷺ عندنا أن الذي تدعونه بينكم وبين أعناق ركابكم وذلك أن الله تعالى يقول (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا) ، وقال (ونحن أقرب

إليه من حبل الوريد) والتشبيه والتحديد لا يكون إلا لمخلوق إذا قرب من موضع تباعد من غيره وإذا كان في مكان عدم من غيره لأن التحديد يستوجب الزوال والانتقال والله تعالى عن ذلك .

قوله : (عن أبي عثمان) قال ابن حجر : هوعبد الرحمن بن مل النهدي والسند كلهم بصريون .

قوله : (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر الخ) في بعض روايات البخاري عن أبي عثمان النهدي عن أبي موسى قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط في واد إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال : فدنا منا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيرا ثم قال : يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي رواية أخرى عن أبي عثمان عن أبي موسى الأشعري قال : أخذ النبي ﷺ في عقبة أو قال في ثنية قال فلما علا عليها فإذا رجل نادى فرفع صوته لا إله إلا الله والله أكبر قال ورسول الله على بغلته قال (فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا) ثم قال يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس (ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة قلت بلى قال لا حول ولا قوة إلا بالله) .

قوله : (في سفر) في بعض روايات البخاري في غزاة وذكر ابن حجر أنها غزوة خيبر .

قوله : (كبر الناس رفعوا أصواتهم) تقدم في رواية فإذا رجل نادى فرفع صوته الخ .

قال ابن حجر : ويجمع بأن الكل كبروا وزاد هذا عليهم بالتهليل .

وتقدم في رواية عبد الواحد ما يدل على أن المراد بالتكبير قول لا إله إلا الله والله أكبر .

وقال في قوله : (اربعوا) بفتح الموحدة أي ارفعوا ثم قال : قال يعقوب بن السكيت ربع الرجل يربع إذا رفق وكف إلى أن قال :

قال ابن بطال : كان عليه الصلاة والسلام محبا لأمته فلا يراهم على حالة من الخيرات إلا أحب لهم الزيادة فأحب للذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير أن يضيفوا إليها التبري ومن الحول والقوة فيجمعوا بين التوحيد والإيمان والقدرة وقد جاء في الحديث (إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدي واستسلم) .

قال قلت أخرجه الحاكم في حديث أبي هريرة بسند قوي وفي رواية (قال لي يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله قال تقول لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول الله أسلم عبدي واستسلم) وزاد في رواية له (ولا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه) .

قوله : (لا تدعون أصم) قال ابن حجر : أطلق على التكبير دعاء من جهة أنه بمعنى النداء لكون الذاكر يريد إسماع من ذكره الشهادة له .

قولـه : (على كنـز من كنوز الجنة) قال ابن حجر سمي هذه الكلمة كنزا لأنها كالكنز في نفاسته وصيانته عن أعين الناس .

وحاصله : أن المراد أنها من ذخائر الجنة أو من محصلات نفائس الجنة .

قال النـووي المعنى : أن قولهـا يحصـل ثوابا نفيسا يدخر لصاحبه في الجنة إلى أن قال :

عن أبي أيـوب أن النبي ﷺ ليلة أسـرى به مر على إبـراهيم عليـه السـلام قال : يا محمـد مر أمتك أن يكثروا من غراس الجنة قال وما غراس الجنة ؟ قال لا حول ولا قوة إلا بالله .

قولـــه : (لا حول ولا قوة الا بالله) قال ابن حجـــر معنى (لا حول) لا تحويـل للعبـد عن معصيـة الله ولا قوة له على طاعـة الله إلا بتـوفيق الله وقيل معنى لا حول لا حيلة .

وقال النووي : هي كلمة استسلام وتفويض وأن العبد لا يملك من أمـــره شيئـــا وليس له حيلة في دفـــع شر ولا قوة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى الخ .

قولـه : (إن الـذي تدعونه بينكم وبين أعناق رقابكم) بدله في رواية المصنف (إنـما تدعـون سميعـا بصـيرا) وزاد في بعض روايـات (قريبا) فهو بمنزلة قوله في رواية المصنف (بينكم وبين أعناق رقابكم) وليس المراد قرب المسافة لأنه منزه عن الحلول كما لا يخفى .

قولـه : (ونحن أقـرب إليـه من حبـل الوريد) قال البيضاوي : أي ونحن أعلم بحاله ممن هو أقرب إليه من حبل الوريد .

قال البيضـاوي : أي ونحن أعلم بحـالـه وممن كان أقـرب إليـه من حبل الوريد تجوز بقرب الذات القرب للعلم لأنه موجبه وحبل الوريد مثل في القرب قال : والموت أدنى لي من الوريد

والحبل العرق وإضافته للبيان ، والوريدان عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدمها يتصلان بالوتين يردان الرأس إليه . وقيل سمي وريدا لأن الروح ترده .

* البـــاب الرابـــع فـي ما علمني مـن غــرائب العــلم *

الـربيـع بن حبيب عن أبي عبيـدة عن جابـر بن زيد عن ابن عباس قال : جاء اعــرابي إلى النبي ﷺ فقـال علمني من غرائب العلم قال ومـا صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبـه ؟ قال : ومـا رأس العلم ؟ قال : معرفة الله حق معرفته قال : وما معرفة الله حق معرفته ؟ قال : بأن تعـرفـه بلا مثـل ولا ند واحدا أحدا ظاهرا باطنا أولا آخرا لا كفؤ له فذلك معرفة الله حق معرفته قال : ﷺ (إن الله لا يعرف بالأمثال ولا بالأشياء وإنما يعرف بالدلائل والأعلام الشاهدة على ربوبيته النافية عنه آثار صنعته) .

قوله : (بلا مثل ولا ند) المثل والند متقاربان أو متساويان كما يشعر به كلام الصحاح حيث قال : مثل كلمة تسوية يقال هذا مثله ومثله كما يقال شبهه وشبهه بمعنى الخ .

وقال : الند بالكسر المثل والنظير وكذلك النديد والنديدة الخ .

قوله : (واحدا أحدا) الواحد والأحد بمعنى واحد كما تقدم عن البغوي .

والواحد بحق الله على أربعة أوجه :

واحد في الذات بمعنى أن ذاته ليست بذات جسم فتقبل القسم والانعداد .

وواحـد في الصفـة بمعنى أنـه لا يوصف الله بما يوصف به الخلق ولا يوصف الخلق بما يوصف به الله .

وواحـد في الفعـل بمعنى أنـه لا أحـد يفعـل كفعـل الله من خلق السموات والأرض وإرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك .

وواحد في العبادة بمعنى أنه لا معبود على الحقيقة إلا هو .

وهـذه الأوجـه إذا علمهـا الإنسان لا يجوز له الرجوع عن علمها كما ذكره في السؤالات .

قوله : (ظاهرا باطنا أولا آخرا) يعني أنه الظاهر لخلقه بالدلائل التي عرف بها في كبـير الخلق وصغـيره أنـه الصـانـع . والباطن الذي لا يدركه خلقه بما يدرك به بعضهم بعضا بشيء من حواسهم قاله في شرح الجهالات .

وقـال أيضـا : والظاهر أي أن الدلائل عليه عز وجل ظاهرة فقيل : ظاهـر لظهـور الـدلائل عليه كما ذكر صاحب الكتاب ، والباطن أي أنه عز وجـل بطن عن إدراك الحـواس ومشـاهـدة الخلق فقيل : ظاهر على معنى وباطن على معنى الخ .

وقـال أيضـا : الأول هو الـذي لم يكن معه شيء قديم والآخر الذي ليس لآخريته آخر إليه ينتهى . إلى أن قال :

والأول تأويله في صفة الله عز وجل من تأويل قديم وكذلك الآخر في صفة الله عز وجل من تأويل باق لا يفنى إلى أن قال :

ومعني قولـه (أنـه ليس لآخريته آخر إليه ينتهى) أي أنه عز وجل باق ليس لبقـائـه نهاية ولا يجري عليه الفناء لأنه يستحيل الفناء في ما يستحيل عليه الحدوث .

ثم قال بعد ذكر معني الأول والآخر والظاهر والباطن وهذا النوع من الـوصف لله عز وجـل مما يوهم السـامع ممن لا علم له بأنه وصف متضاد ، وليس فيه من تضاد ولا اختلاف وليس شيء منه يمانع لغيره من الوصف .

فقـولـك أول لا ينفي أن يكـون آخـرا كما أن قولك آخرا لا ينفي أن يكون أولا لأن معنى أول على حدة من معنى آخر كما فسرنا قبل ، وكذلك قولـك ظاهـر لا يمنـع القول بأنه باطن ولا ينفيه لأن معنى ظاهر على حدة من معنى باطن ولكـــل وصف من هذه الأوصـاف معنى لا يمنـع صاحبـه فاعلمـوا ذلـك والأول هو القـديم والآخر هو الباقي والظاهر هو الذي يعلم ولا يخفي والباطن هو الذى يعلم ولا يشاهد ولا يجاهر تعالى الله عن مماثلة البرية سبحانه الخ .

وذكر أهل التفسير لهذه الأوصاف معاني متعددة من جملتها أن الظاهر بمعنى الغالب العالي على كل شيء ، والباطن بمعنى العالم بكل شيء ، قال البغوي هذا قول ابن عباس .

قولـه : (لاكفـؤ له) أي لا مثـل ، قال البيضاوي في الآية : أي ولم يكن أحـد يكـافئـه أي يماثله من صاحبـة أوغيرها الخ ، وفيه ثلاث لغات كفـء بسكـون الفـاء والهمـز وكفـو بضـم الفاء من غير همز وكفؤ بضم الفاء والهمز وقرىء بهن جميعا ومعناه المثل .

قولـه : (إن الله لا يعـرف بالأمثـال ولا بالأشياء إلى آخره) ، قال في السـؤالات : وعن عبـد الله بن عبـاس رضي الله عنهـما أن نجدة بن عمر الملقب بالحروري أتاه فقال له يا ابن عباس : أخبرني عن معرفة ربك فإن من قبلنـا قد اختلفـوا علينـا فقـال : (اعـرفـه بما وصف به نفســه من غير رؤيـة ، واصفـه بما وصف به نفســه من غير شبـه صورة لا يدرك بالحواس ولا يقـاس بالنـاس ، معـروف بغـير تشبيـه ، متـدان في بعده ولا نظير له لا يتـوهم ديمـومته ، ولا يمثل بخلقه ، ولا يجور في أقضيته فالخلق إلى ما علم منهم منقادون ، وعلى ما سطر في كتابه المكنون ما ضون ، لا يعلمون بخــلاف ما منهم علم ، ولا إلى غيره يريـدون فهـوقريب غير ملتـزق ، وبعيد غير منفصل ، يحقق ولا يمثل ، يوحد ولا يبعض يعرف بالآيات ، ويثبت بالعـلامـات كذلـك الله رب العـالمـين) فقام نجدة مفحوما مخصوما متعجبـا بقـول ابن عباس رضي الله عنه . وستأتي روايته في كلام المصنف رحمه الله لكن كتبته قبل الاطلاع عليه .

قولـه : (النـافيـة عنـه آثـار صنعتـه) يعني أنـه لا يوصف بشيء من صفات خلقه لأن صفات الخلق من حيث ما دارت فهي نقص وصغر وذل وحاجة وعجز وذلك كله عن الله منفي ، وهو عن ذلك كله عظيم لا يليق به .

* البــاب الخــامس فــي النهــي عــن الفكــر في الله *

تقدم الكلام فيها عن الشيخ إسماعيل رحمه الله بما فيه كفاية .

قال جابر بن زيد حدثنا رجل من أئمة أهل الكوفة يُكنَّى أبا أمية أن النبي ﷺ خرج على قوم وهم يتذاكرون فلما رأوا النبي ﷺ سكتوا فقال : ما كنتم تقـولـون ؟ فقـالـوا نتـذاكـر في الشمس وفي مجراهـا قال : كذلكم فافعلوا تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق .

وزاد فيـه الحسن أن الله لا تنـالـه الفكـرة قال : وأخـبر ني محمـد بن يعـلي بن سليـمان العـامـري عن عطـاء بن حبيب عن ابن عبـاس قال (لا تتفكـروا في الله ولكن تفكـروا في خلقـه فإنه لا يعرف بالأشياء والأمثال ولكن بتصديقه) .

وأخـبرنـا جويـبر عن الضحاك أن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (لا تتفكروا في الله فإن التفكر في خلقه شاغل فإنه لا تدركه فكرة متفكر إلا بتصـديقـه ثم قال رسـول الله ﷺ (إن أقـواما من الأمم السالفة أتوا نبيا ليعنتوه فسكت عنهم انتظارا من الله فنزلت عليهم صاعقة فأحرقتهم) .

قولـه : (إن الله لا تنـالـه الفكـرة) قال صاحب الايضاح رحمه الله : وندين بأن معرفة الله لا تنال بالتفكير ولا بالاضطرار وإنما تنال بالاكتساب والتعلم وذلك إنما يصح بعد مخبر ومنبه على ذلك .

قولـه : (ولكن بتصـديقـه) أي بالإذعان له من غير تفكر في ذاته ، ولذلك قالوا في حقه سبحانه العجز عن الإدراك إدراك والله أعلم .

وفي كلام بعض علماء بني اسـرائيـل (قسنـا ودبـرنـا ونظـرنا ووجدنا حواسنـا وجـوارحنـا لا تدرك إلا مخلوقـا لأنهـا مخلوقـة ولا تعرفه إلا بتحقيق الإيــمان بالغيب) قال لهم العــالم : الآن حين عرفتم ربكم حين لم تبلغــه جوارحكم انتهى ، من شرح النونية .

قولـه : (وان التفكـر في خلقـه شاغل) المراد ـ والله أعلم ـ التفكر في خلقه شاغل عن التفكر فيه فيجب التفكر في خلقه والله أعلم .

وفي بعض النســخ فإن التفكـر في الله شاغـل وهـذا هو المتبـادر من السيــاق ، والسيــاق والمعنى أن التفكــر في الله شاغـل لكم عما تريـدون ولا تحصلون به شيئا فإنه لا ينال بالتفكر والله أعلم .

الشـرك أخفى من دبيب النمـل ، قال أخـبرنا محمد بن المنكدر عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال (يأتي على الناس زمان الشرك أخفى فيه من ذرة سوداء على صخـرة سوداء في ليلة ظلماء) قال جابـر بن زيـد حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال (يوشك أن الشرك ينتقل من ربع إلى ربع ومن قبيلة إلى قبيلة قيل يا رسول الله وما ذلك الشرك قال (قوم يأتون بعدكم يحدون الله حدا بالصفة .

قوله : (يأتي على الناس زمان الشرك فيه أخفى من ذرة سوداء الخ)

كلام الشيخ إسماعيل رحمه الله تعالى صريح في أن المراد بهذا الشرك هو الرياء حيث قال : في آخر تقسيم الشرك إلى وجوه ومنها شرك الرياء ومعناه أن يرائي العبد بعمله الناس ويزين به إليهم رياء وسمعة وهو الشرك الأصغر ولذلك قال النبي عليه السلام (الشرك أخفى في أمتي من ذرة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء) الخ .

زاد في شرح النونية بعد هذا الحديث : وفي بعض الكتب قال أبو بكر الصديق عند ذلك (إنا لله وإنا إليه راجعون) فقال رسول الله ﷺ (ألا أعلمك شيئا إذا قلته خلصت من الشرك بإذن الله ؟ قال : بلى يا رسول الله قال : قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفر لما لا أعلم) .

قال جابر : وكلام المصنف رحمه الله في آخر الحديث الثاني ربما يدل على أنه غير شرك الرياء وأن الشرك المبوب له هو ما ذكر في آخر الحديث الثاني من حد الله بالصفة ، اللهم إلا أن يقال هذا في الشرك الذي يوشك أن ينتقل من ربع إلى ربع الخ ، والأول في شرك الرياء وهذا هو الظاهر جمعا بين الكلامين .

وفي البخاري فيما يتعلق بالرياء من سمع سمع الله به ومن يراء الله يراء الله به .

قال ابن حجر : الرياء بكسر الراء وتشديد التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها .

والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر .

وقال الغزالي المعنى طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة والمرائى هو العامل .

وقال ابن عبد السلام : الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس .

ثم قال : وفي حديث استحباب إخفاء العمل الصالح لكن قد استحب إظهاره لمن يقتدي به على إرادة الاقتداء به ويقدر ذلك بقدر الحاجة .

قال ابن عبد السلام : يستثنى من استحباب إخفاء العمل من يظهره ليقتدي به أو ينتفع به ككتابة العلم ومنه حديث سهل الماضي في الجمعة لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي .

قال الطبري كان عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجدون في مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدى بهم قال فمن كان إماما يستن بعمله ، عالما بما لله عليه ، قاهرا لشيطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده ، ومن كان يخالف ذلك فالإخفاء في حقه أفضل وعلى ذلك جرى عمل السلف .

فمن الأول حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال سمع النبي ﷺ رجلا يقرأ ويرفع صوته بالذكر فقال (إنه أواب) فإذا هو المقداد بن الأسود الكندي أخرجه الطبري .

ومن الثاني حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قام رجل يصلي فجهر بالقراءة فقال له النبي ﷺ (لا تسمعني واسمع ربك) أخرجه أحمد وابن أبي خيشمة وسنده حسن .

قوله : (يحدون الله حدا بالصفة) أي يصفونه بصفة المخلوقين كما بينه بعد في قوله خلق الله آدم على صورته .

قال حدثنا الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : سألت رسوا الله ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك والله العدل) ومثله حديث البخاري مع زيادة حيث قال بعد ذكر الاسناد قال النبي ﷺ (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يقولها حتى قلت ألا يسكت .

وفي رواية أخرى : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أوسئل عن الكبائر فقال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين فقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور أو قال شهادة الزور ، قال شعبة وأكثر ظني أنه قال شهادة الزور .

وتكلم عليه ابن حجر بما يطول ذكره وذكر الخلاف في الذنوب هل فيها الكبائر والصغائر أو كلها كبائر ، وذكر أن الجمهور على الأول .

قال : وشذت طائفة منهم الأستاذ أبو إسحاق الاسفراييني فقالوا ليس في الذنوب صغيرة بل كل ما نهى الله عنه كبيرة ، ونقل ذلك عن ابن عباس وحكاه القاضي عياض عن المحققين واحتجوا بأن كل مخالفة لله فهي بالنسبة إلى جلاله كبيرة .

ونسبه ابن بطال إلى الأشعرية فقال : انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر قول عامة الفقهاء .

وخالفهم الأشعرية أبوبكر بن الطيب وأصحابه فقالوا : المعاصي كلها كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها كما يقال القبلة صغيرة بإضافتها إلى الزنا وكلها كبائر إلى أن قال :

قال النووي قد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على القول الأول .

وقال الغزالي في البسيط إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه إلى أن قال :

وقال القرطبي : ما أظنه يصح عن ابن عباس أن كل ما نهى الله عنه

كبيرة لأنه مخالف لظاهر القرآن في الفرق بين الصغائر والكبائر في قوله (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) وقوله (أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فجعل في المنهيات كبائر وصغائر وفرق بينهما في الحكم إذ جعل تكفير السيئات في الآية مشروطا باجتناب الكبائر ، واستثنى اللمم من الكبائر والفواحش فكيف يخفي ذلك على حبر القرآن .

ثم ذكر الخلاف في حد الكبيرة وأطال فيه إلى أن قال : في قوله (أكبر الكبائر) ليس على ظاهره من الحصر بل (من) فيه مقدرة فقد ثبت في أشياء أخر أنها من أكبر الكبائر الخ .

فذكر من ذلك قتل النفس والزنا بحليلة الجار واليمين الغموس واستطالة المرء في عرض رجل مسلم ومنع فضل الماء ومنع الفضل وسوء الظن ومن ذهب يخلق كخلق الله إلى غير ذلك مما أطال فيه .

والظاهر أنه لا حاجة إلى تقريرها في ما الكلام فيه لأن الإشراك بالله أعظمها على الإطلاق .

وقال في رواية البخارى : الإشراك بالله المساوية على كلامه لرواية المصنف أن تجعل لله ندا ما نصه قال ابن دقيق العيد : يحتمل أن يراد به مطلق الكفر ويكون تخصيصه بالذكر لغلبته في الوجود لا سيما في بلاد العرب فذكر تنبيها على غيره من أصناف الكفر .

ويحتمل أن يراد به خصوصه إلا أنه يرد على هذا الاحتمال أنه قد يظهر أن بعض الكفر أعظم من الشرك وهو التعطيل فيترجح الاحتمال الأول على هذا .

وأراد بالكفر ما نسميه شركا لأنهم يخصونه به فكفروا بذلك كفر نفاق كما هو معلوم .

قال وأخبرنا سفيان بن عيينة عن مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال : جاء إلى النبي ﷺ قال : يا محمد لقد غلب أصحابك اليوم قال : بأي شيء ؟ قال سألتهم اليهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة النار ، قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا قال النبي ﷺ (نِعْم ما فعلوا قوم يسألون عما لا يدرون فقالوا لا ندري حتى نسأل نبينا) ثم قال ﷺ (يا أعداء الله ولكن ألم تسألوا نبيكم أن يريهم الله جهرة فأنبأهم ﷺ إذ سألوه أن يجاهروا الله أن الله لا يرى جهرة) .

قوله : (قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا) انظر لم توقفوا رحمهم الله في ذلك مع قول الله تعالى في سورة المدثر (عليها تسعة عشر) وهي مكية والسؤال الظاهر أنه وقع بالمدينة لأن اليهود إنما كانوا بها لا بمكة والله أعلم .

ولعل المسئولين لم يتعلموا السورة أو تعلموها ولكن لما وقع الإجمال بحذف التمييز توقفوا لأن المفسرين اختلفوا في تقدير التمييز .

فقيل ملكا ، وقيل صنفا من الملائكة ، وذكروا لكونهم تسعة عشر حكما ومناسبات يطول ذكرها فليراجع .

قوله : (أن يريهم الله جهرة) قال البيضاوي عيانا وهي في الأصل مصدر لقولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤ ية أو حال من الفاعل أو المفعول .

قال الربيع : وبلغنا عن أبان بن عياش عن أنس بن مالك قال : خرج النبي ﷺ على قوم جلوس فقال ما أجلسكم فقالوا : نتفكر في الله فقال ﷺ (لا تتفكروا في الله فإنه لا مثل له ولا شبيه ولا نظير فلا تضربوا لله الأمثال ولا تصفوه بالزوال فإنه بكل مكان وتفكروا في خلقه ولأخبرنكم ببعض خلقه إن ملكا من الملائكة له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب قد خرقت رجلاه الأرضين السفلى ورأسه في السماء السابعة) .

قوله (فلا تضربوا لله الأمثال) قال البيضاوي : فلا تجعلوا لله مثلا تشركون به أو تقيسونه عليه فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال .

وقال الشيخ إسماعيل رحمه الله في شرح النونية في هذه الآية : فالمثل يضرب على وجهين :

أحدهما : تشبيه الشيء بالشيء على جهة المدح كقول القائل فلان كالأسد في شجاعته وكالبحر في سخائه وكالجبل في عظمه وكالشمس في حسنه فهذا تشبيه الشيء بالشيء فلا تضرب لله الأمثال فيقال كذا وكذا .

والـوجـه الثاني : تشبيه الشيء بالشيء على جهة الذم كقوله تعالى (فمثله كمثـل الكلب . . إن هـم إلا كالأنعـام) وقـال (كمثـل الحمار يحمل أسفارا الآية) فهذان المعنيان عن الله عز وجل منفيان .

قوله : (فإنه بكل مكان) يعني بالعلم والحفظ والقدرة .

قال الشيـخ عامـر رحمـه الله في عقيدته التي ألفها لعمنا حازم بن نوح المـرسـاوني رحمـه الله : ونـدين بأنـه في كل مكـان بالحفظ والقدرة وكونه في الأشيـاء ومـع الأشيـاء بالإحـاطـة لها والـزيـادة والنقصان لا على الحلول والتمكن والاجتنان .

وقال الشيخ إسماعيل رحمه الله في شرح النونية ويقال : الله عز وجل في كل مكان فإن قال ما معنى قولك(بكـل مكـان ؟) قيل ذلك على معنى الإحـداث لها والـزيادة فيها والنقصان منها وهو مشاهد لذلك لا يغيب عنه شيء من الأشياء ولا يغيب عن شيء من الأشياء كالصانع لا يغيب عن صنعته .

ويقال الله في كل مكان وفي كل الأشياء وفي كل الخلق وفي كل العالم كله جائـز ، ويقـال هو في السموات وفي الأرض كما قال تعالى (وهو الله في السمـوات وفي الأرض) ولا يقـال هو في الـدنيا ولا هو في الليل ولا في النهار ولا في السنـة ولا في الشهـر ولا في اليـوم ولا في الوقت ولا تمر عليه الأوقات والأيام يتعالى عن ذلك .

ولا يقـال هو في الأجسـام والأعـراض قال : مسألـة فإن قال قائـل أخبر ني عن الله عز وجل أليس هو عندك في كل مكان ؟ قيل له نعم ، فإن قال أو ليست الأماكن كلها محدودة عندكم وهو غير محـدود ؟ قيل له نعم ، فإن قال كيف يكون غير المحدود في المحدود ؟ أو ليس كونه في المحدود مما يوجب أنـه محدود ؟ قيـل له ليس كونـه في الأشيـاء على ما توهمت من كون الشيء في الشيء على الـوعـاء والظـرفية إنما كونه في الأشياء على الاحاطة والتدبير والزيادة والنقصان إلى آخر ما أطال فيه فليراجع .

ما روي عن علي ابن أبي طالب في التعظيم لله عز وجـل بلغني عن ابن مسعـود عن عثمان بن عبـد الـرحمن المـدني عن أبي إسحاق والشعبي قال : كان علي ابن أبي طالب يقـول في تمجيـد الله عز وجـل الحي القـائـم الـواحـد الـدائم فكّـاك المقادم ورزاق البهائم القائم بغير منصبة ، الدائم بغير غاية الخالق بغير كلفة فأعرفُ العباد به الذي بالحدود لا يصفه ولا بما يوجد في الخلق يتوهمه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

قوله : (القائم بغير منصبة له) منصب في الصحاح والمنصب الأصل الخ ولم يذكر المنصبة والله أعلم .

خطبـة علي قال : وأخـبر نـا أبـان قال حدثنـا يحيى بن إسماعيل عن الحارث الهمداني قال : بلغ عليا أن قوما من أهل عسكره شبهوا الله وأفرطوا قال فخطب على الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس اتقوا هذه الفـارقـة فقـالـوا يا أمـير المؤمنين وما الفارقة ؟ قال الذين يشبهون الله

بأنفسهم فقالوا وكيف يشبهون الله بأنفسهم ؟ قال يضاهون بذلك قول الذين كفروا من أهل الكتاب إذ قالوا خلق الله آدم على صورته سبحانه وتعالى عما يشركون بل الله ليس كمثله شيء استخلص الوحدانية والجبروت ، وأمضى المشيئة والإرادة والقدرة والعلم بما هو كائن لا منازع له في شيء ولا كفء له يعادله ، ولا ضد له ينازعه ، ولا سمى له يشبهه ، ولا مثل له يشاكله ولا تبدو له الأمور ، ولا تجري عليه الأحوال ، ولا تنزل به الأحداث ، وهو يجري الأحوال وينزل الأحداث على المخلوقين ، لا يبلغ الواصفون كنه حقيقيته ، ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته لأنه ليس له في الخلق شبيه ولا له في الأشياء نظير لا تدركه العلماء بألبابها ، ولا أهل التفكير بتدبيرها وتفكيرها إلا بالتحقيق إيمانا بالغيب لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين ، وهو الواحد الذي لا كفء له (وأن ما تدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير) .

قوله : (ولا سمى له يشبهه) قال البيضاوي في قوله تعالى (هل تعلم له سميا) مثلا يستحق أن يسمى إلها أو أحدا سمى الله فإن المشركين وإن سموا الصنم إلها لم يسموه الله قط وذلك لظهور أحديته تعالى ذاته عن المماثلة بحيث لم يقبل اللبس والمكابرة ، وهو تقدير للأمر أي إذا صح أن لا أحد مثله فلا يستحق العبادة غيره لم يكن بد من التسليم لأمره ، والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها .

قوله : (ولا تبدو له الأمور) يعني خلافا للجهمية ومن قال بقولهم من الروافض في زعمهم أن علم الله محدث وأنه لا يعلم الأشياء حتى تكون ،

وأنه تبدو له البدوات تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وتعلقوا في وصفهم له بالبداء بقوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت) .

وأطال صاحب الموجز رحمه الله في الرد عليهم ثم قال : والذي قال هؤلاء الضعفاء ترك لنص القرآن مواجهة مع ما يلزمهم في قولهم أن علم الله محدث بأن يقال لهم هل يخلو هذا العلم المحدث من أن يكون الله هو الذي استحدثه لنفسه ؟ أو يكون غير الله أحدثه لله ؟ فإن كان الله هو الذي استحدثه لنفسه فهو من قبل أن يستحدثه كان جاهلا والجاهل لا يستحدث علما ولا غير علم ، وإن كان استحدثه له غيره فالذي استحدثه له أولى بالعلم والربوبية منه ، تعالى الله عن هذا القول علوا كبيرا ، ولما بطل أن يوصف الله جل جلاله باستحداث العلم بطل لذلك ما ذهبوا إليه من وصفهم إياه بالبدا الخ فأجاب عما احتجوا به على استحداث العلم إلى أن قال :

وهذه المقالة أوهن الأقاويل شوكة وأدحضها حجة .

قصة اليهود مع علي ابن أبي طالب : قال وأخبرنا اسماعيل بن يحيى قال حدثنا أبو سفيان عن الضحاك قال : جاء يهودي إلى علي ابن أبي طالب فقال : يا علي متى كان ربنا ؟ فقال علي : إنما يقال متى كان لشيء لم يكن فكان ، فهو كائن بلا كيونة كائن كان بلا كيف ، ليس له قبل وهو قبل القبل فلا غاية ولا منتهى غاية ولا غاية تنتهي إليها غايته ، انقطعت الغاية عنده وهو غاية الغايات .

قوله : (بلا كينونة كائن) لعله مكون والرواية في شرح النونية (والله

تعالى كائن بلا كينونة كان كائن بلا كيف الخ وهي غير ظاهرة أيضا فليراجع .

والمعنى ظاهر ـ والله أعلم ـ وفي روايته مخالفة لبعض ألفاظ رواية المصنف وزاد بعدها ، وقال النبي ﷺ (إن الله لا يعرف بالأمثال ولا بالأشياء وأنه إنما عرف بالدلائل والأعلام الشاهدة على ربوبيته النافية عنه آثار صنعته .

قال رحمه الله : والكينونة مصدر كان كونا وكينونة والكون فاعل التكوين والتكوين فعله .

قال : ويجوز على الله كان قبل الأشياء بغير حال ـ ويقال كان الله ولا شيء معه ثم كوَّن الأشياء ـ ويقال كان قبل الأوقات وقبل الأحوال والأزمنة ، والله عز وجل مُكَوِّن الكائنات ، وكائن قبل الكائنات والكينونة فيها قولان .

قوله : (ليس له قبل وهو قبل القبل بلا غاية الخ) قال في شرح النونية عند قوله (كما كان قبل الخلق قد كان بعده الخ) اعلم أن الله عز وجل قديم أزلي موجود على الإطلاق ليس لقدمه بداية أوجد منها نفسه ، ولا لدوامه نهاية ينتهي إليها ، غير مقيد بزمان ولا مخصوص بجهة ولا مكان ، قاهر فوق عباده فوقية إجلال وعظمة ، وكمال وعزة واقتدار ، ولا تحيط به الجهات والأقطار ، منزه عن الأماكن والجهات ، غني عن جميع

الكائنات متعال عن الحلول على العرش والسموات ، ليس بمتصل فتمسه صفحات الأجرام ولا بمنفصل فتدركه لمحات أبصار الأجسام ، لا يوصف بالحركة ولا السكون ، ولا تعتريه وساوس الظنون تعالى عن العيوب والآفات ، وتنزه عن نقائص العاهات ولا تبدو له البدوات ولا يوصف بالجوارح والأدوات ولا تحله دعاوي الخطرات ، ولا يوصف بنوم ولا سبات ، عالم بما كان وما يكون أن لو كان كيف كان يكون ، علم ذلك بنفسه وبذاته ، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول قادر بلا تكلف ولا جهل ، حي حياته من غير نفس متردد ، سميع بلا أذان ولا آلة سمع ، بصير بلا حدقة ولا إطباق جفن ولا تكيفه العقول ولا تمثله النفوس ، ولا تلحقه الأوهام ، ولا تحيط به الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير خلق الخلق على غير مثال ، ودبر الأمور على غير تمثال ، فبقدرته تصورت الكائنات وبحكمته انتظمت الموجودات ، وبإرادته تألفت المصنوعات لا يشغله سمع عن سمع ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في خفض ولا رفع ، ولا يعجز عن كشف ضر ولا إيجاد نفع ليس له شريك منازع ولا كفء ولا مدافع ولا ند يعادله ، ولا شكل يشاكله ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ولا تغيب عنه مكونات الأمور ، خلق كل شيء فقدره ، واخترع الإنسان وصوره ، يعلم ما توسوس به نفسه وما يجلب إليه حسه ، باق بعد فناء الفانيات ، متقدس عن الأمد والنهايات ، محيط بجميع المعلومات والأمور الخافيات ، وجلت القلوب لمهابته ، وخضعت الرقاب لعزته ، وذلت الملوك لجبروته ، وتواضعت الأشياء لعظمته ، فسبحان من ليس له شبيه ولا نظير ، ولا يجري عليه حكم ولا تقدير ، ولا زوال

ولا تغيير ، صانع لجميع المصنوعات بلا معالجة ولا آلات ، ولو كان صنعه بمعالجة لتناهت له القدرة على المقدورات ، ولو كان علمه باستدلال لخفيت عنه الأشياء الغامضات ، ولو كان سمعه بحاسة لعجز عن درك جميع المسموعات ، ولو كان في جهة من الجهات لكان من جملة المتحيزات ، ولو جاز السؤال عنه بكيف لا تصل بالمثال ، ولو جاز بمتى لاتصف بالأزمنة والأحوال ، ولو جاز بأين لاتصف بالمكان فكيف يتصف بالمكان من هو حيث لا أين ولا مكان ، ولا أنس ولا جان ، تعالى عن أن تتناها له القدرة على مقدوراته ، أو يحصى العلم بمعلوماته ، أو تشبهه مخلوقاته فالخلق إلى ما علم منهم منقادون ، وعلى ما أراد وشاء يعملون هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين .

قصة القصاب مع علي بن أبي طالب

أخبرنا أبو قبيصة عن عبد الغفار الواسطي عن عطاء أن علي ابن أبي طالب مر بقصاب يقول : (لا والذي احتجب بسبع سموات لا أزيدك شيئا قال فضرب بيده على كتفه فقال : يا لحام إن الله لم يحتجب عن خلقه ولكن حجب خلقه عنه فقال : أكفر عن يميني ؟ فقال : لا لأنك إنما حلفت بغير الله) .

قوله : (إن الله لم يحتجب عن خلقه ولكنه حجب خلقه عنه) قال ابن وصاف رحمه الله في شرح قول الدعائم : وهو السلام الذي في ملكه احتجبا ومعنى قوله (احتجب) أي امتنع عن أن تراه العيون، وليس كما زعم

أهل الجهل والإلحاد أن الله احتجب عن خلقه بحجب ساترة له ليس بينه وبين خلقه حجاب ، ولو كان محتجبا بالحجب لم يحتجب عن الحجب لأن الحجب خلق من خلقه والله تعالى لم يحتجب بخلقه عن خلقه ، ولو جاز أن يحتجب بخلقه أو بشيء غيره ، كان لما احتجب به مفتقرا وإليه محتاجا ، ومن وصف الله بذلك لزمه الضعف والحاجة والعجز وهذا الكفر في التحديد لأن من كان محجوبا كان محدودا .

فإن قال قائل فما له لا يرى إذا لم يكن محجوبا ؟ فقل له لأن نفسه نفس لا ترى لا لعلة من الأشياء فلما كان نفسه لا ترى كان لا يرى في آخرة ولا دنيا لأنه عز وجل لا يتغير أبدا .

وقال في شرح النونية بعد رواية هذه القصة : والحجاب في لغة العرب المنع ، ومنه الحجب في الميراث ، ومنه قوله تعالى (وقالوا قلوبنا في اكنة) إلى قوله (ومن بيننا وبينك حجاب الآية) والحجب في لغة العرب قد يقع عن معروف السلطان وخيره وقد يراه ويحجبه عن خيره بل يأمر بضرب عنقه وقد لا يراه وينال خيره ، ومعنا حجاب الروية لقوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

وذكر قبل ذلك في قوله تعالى (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فقد روي عن علي وابن عباس في ذلك أنه لم يزل يحجبهم عن رحمته وثوابه ولا ينظر إليهم برحمته وروي عن مجاهد مثله .

ما روي عن ابن عباس فالتعظيم لله عز وجل والتنزيه له سبحانه

أخبرنا أبو قبيصة عن عمير عن محمد بن يعلي عن جبير عن الضحاك عن ابن عباس أن نجدة الحروري أتاه فقال : يا ابن عباس كيف معرفتك بربك فإن من قبلنا قد اختلفواعلينا فقال : ابن عباس أعرفه بما عرف به نفسه ، وأصفه بما وصف به نفسه ، من غير شبه صوره ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، معروف بغير تشبيه ، متدان في بعده لا ينظر ، ولا تتوهم ديمومته ، ولا يمثل بخلقه ولا يجور في قضيته ، فالخلق إلى ما علم منقادون ، وعلى ما سطر في المكنون من كتابه ماضون ، لا يعملون بخلاف ما منهم علم ، ولا إلى غيره يريدون ، وهو قريب غير ملتزق ، بعيد غير منفصل يحقق ولا يمثل ، يوحد ولا يبعض ، يعرف بالآيات ويثبت بالعلامات ، قال فقام نجدة معجبا غير محضر متعجبا بما جاء به ابن عباس رضي الله عنه .

قوله : (أعرفه بما عرف به نفسه) الرواية في السؤالات أعرفه بما وصف به نفسه ، وعلى هذه الرواية يقرأ عرف بالتشديد ، وذلك أن الله عز وجل عرف نفسه لعباده بالدلائل المشاهدة والعلامات الظاهرة كما هو معلوم .

قوله : (فالخلق إلى ما علم منقادون الخ) يعني أنهم لا يختارون إلا ما سبق لهم في علم الله ، ولا يعلمون ما سبق لهم إلا بعد الوقوع فلا جبر ولا جبل كما يدل عليه قوله رحمه الله ولا إلى غيره يريدون ، وقد تقدم الكلام على هذا بما فيه كفاية .

قصة نافع ابن الأزرق مع ابن عباس قال : وأخبرنا محمد بن علي

الكوفي عن أبي بكر الهذلي عن سعيد بن جبير قال : لما رأى ابن الأزرق أنه لا يسأل ابن عباس عن شيء إلا أجابه قال : ما أجرأك يا ابن عباس ، قال وما ذاك يا ابن الأزرق ؟ قال أراك لا تسأل عن شيء إلا أجبته قال : ويلك وهو علم عندي أخبرني عمن كتم علما عنده ورجل تكلم بما لا يعلم قال فكل ما تقول به تعلمه ؟ قال : نعم إنا أهل بيت أوتينا الحكمة قال نافع : أسألك عن الذي تعبده كيف هو ؟ قال فسكت عنه ابن عباس استعظاما لما قال ثم قال له : أخبرك أن الله هو الواحد بغير تشبيه ، والواجد بغير تفكير ، والخالق بغير تكييف ، العالم بغير مثال الموصوف بغير تشبيه ، الدائم بغير غاية ، المعروف بغير تحديد البائن بغير نظير عزيز قدير لم يزل ولا يزال ، وجلت القلوب لمهابته ، وذلت الأرباب لعزته ، وخضعت الرقاب لقدرته ، لا يخطر على القلوب مبلغ كنه عظمته ، ولا تنعقد القلوب على ضمير بلغه ، ولا تبلغه العلماء بألبابها ولا المتكلمون بتدبير تفكيرها ، فأعلم الخلائق له الذي لا يصفه بصورة ، ولا بمثل فيقع الوهم للخلائق عليه ، قال نافع صدقت يا ابن عباس ، قال النبي ﷺ (اللهم فقه ابن عباس في الدين وعلمه التأويل) .
جابر قال جاء نافع ابن الأزرق إلى ابن عباس فقال له أخبرني عن ربك كيف هو وأين هو فقال ابن عباس : ثكلتك أمك يا ابن الأزرق إن الله لا كيف له غير الخلق ، خلق الخلق وهو خالق لكيفهم وهو بكل أين ، يعني بكل مكان قال فسكت ابن الأزرق .

قوله : على ضمير بلغه أي وصل إليه فكيفه يعني فالقلوب لا تشتمل على مثل هذا الضمير والله أعلم .

قوله : وعلمه التأويل زاد بعده في السؤالات واجعله من عبادك الصالحين .

قوله : ثكلتك أمك أي فقدتك قال في الصحاح الثكل فقدان المرأة ولدها وكذلك الثكل بالتحريك وامرأة ثاكل ثكلي وثكلته أمه ثكلا وأثكله الله أمه والثكول التي ثكلت ولدها ويقال رمحه للوالدات مثكلة كما يقال للولد مبخلة ومجبنة اخره .

قوله : ان الله لا كيف له غير الخلق قال في السؤالات أي فعل وهو الخالق ليكيفهم قال في شرح النونية عند قوله وجل عن التكييف ما نصه : والكيف يجرى على وجهين على الألوان يقول كيف هو فيقال أحمر أصفر والثاني يجرى على الحدود والأحداث أن تقول كيف هو فيقال طويل عريض صحيح سقيم فهذان الوجهان لا يجريان على الله عز وجل فإن قال قائل من أي السبل يعرف قيل له إنما يعرف بالدلائل الدالة على ربوبيته ولا يعرف من جهة ما يعرف الخلق لأن الخلق إنما يعرف كل شيء منهم من قبيل سبيله فالخلق كله خمسة أصناف صنف منه الألوان وسبيلها الذي بها تعرف هي الأبصار وصنف منه الأصوات وسبيلها الأسماع وصنف منه الطعموم وسبيلها الأذواق وصنف منه الأرايح وسبيلها الأشمام وصنف منه الملموسات وسبيلها الإلماس لعله اللمس فهذه الأشياء تعرف من هذه الأسباب فإذا أدركت الأشياء المختلفة من قبل هذه الأسباب فهذه دلائل على معرفة الرحمن الرحيم الذي ليس كمثله شيء . أما الأسباب التي تدرك بها الدلائل فلا يدرك الرب تعالى بها وذلك لأن البصر ليس إليه

سبيـل لأنـه تعـالى ليس بلون وإنـما سبيـل البصر إلى اللون خاصة وسبيل السمـع إلى الصـوت خاصـة وليس هوبصـوت وسبيـل الذوق إلى الطعم خاصـة والله تعـالى ليس يطعم وسبيـل الشم إلى الرائحة والله تعالى ليس كذلـك وسبيـل اللمس إلى الليـانـة والخشـونة والحرارة والبرودة فليس هو بشيء من هذه الأشيـاء تعـالى الله عن ذلـك علوا كبـيرا وإنـما يعـرف ربنا بالآيـات ويثبت بالعـلامات التي جعلها في كبير الخلق وصغيره الدالة على ربـوبيتـه ووحـدانيته فإن قال فكيف يعتقد قلبي مالا يدركه وينطوي على مالا يكيفـه قيـل له أتقـدر على تكييف روحـك وعقلك وفعلك وصحتـك وحياتك وسائر المخلوقات المركبة فيك من الغضب والحزن والفرح وسائرها أم تقــدر على وصف شيء من ذلــك فإن وصفت شيئـا من هذه الأشيـاء بكيفيـة تدل عليهـا كابرت عقلك وإن أقررت بالعجز عن تكييف المخلوق الـذي له أمثـال فكيف بمن ليس كمثله شيء أن تشبهـه صنعتـه والصنعة لا تشبه الصانع علما عقليا لا سبيل إلى دفعه .

قال ابن عبـاس لا تمضي الليـالي والأيـام حتى يتفق قوم في الشرائع وهم عن توحيد الله غافلون قوم يصفون ربهم بالبشر ويسمون من خالفهم كافرين فهم أولى بذلك وهم الظالمون يختلفون من بعد ما جائتهم البينات ويأخـذون بالشبهـات والمشابهات وروايات أهل الكتاب ويسمون المتفقهة وليسـوا كذلـك وعنـد ذلـك تمنـع السـماء قطرها والأرض نباتها وتنقص من أطـرافهم وعنـد ذلـك يحبـط الله أعـمالهم ويسلط عليهم من يسومهم سـوء العـذاب قال جابـر بن زيـد قال ابن عبـاس يقـول الله (أنا ربكم لا تعبدوا غيري ولا تشـركـوا بي شيئـا ولا تجعلوا لي شبيهـا يكون في السماء والأرض فإنكم لن تروني) .

قولــه : يصفـون ربهم بالبشـر أي بصفـة البشـر كما هو الـروايـة في السؤالات وفي شرح النونية بصفات البشر .

قولـه : وتنقص من أطـرافها ذكر البغوي في قوله تعالى : (أولم يروا أنـا نأتي الأرض ننقصهـا من أطرافها) تأويلين أحدهما لا يناسب المراد هنا والثـاني ينـاسبـه حيث قال : قولـه تعـالى (أولم يروا يعني أهـل مكة الذين يسألـون محمـدا ﷺ الآيـات) أنـا نأتي الأرض ننقصهـا من أطـرافهـا أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك بأن ما زاد في الإسلام فقد نقص من دار الشرك يقول أولم يروا أنا نأتي الأرض نقصدها ننقصها من أطرافها فنفتحها لمحمد أرضا بعد أرض حوالي أرضهم أفلا يعتبرون هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة . وقال قوم هو خراب الأرض معناه أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخـربها ونهلك أهلهـا فلا يخافون أن نفعل بهم ذلك ؛ قال مجاهد هو خراب الأرض وقبض أهلها وعن عكرمة قال قبض الناس وعن الشعبي مثله وقال عطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء الخ .

قولـه : من يسـومهم سوء العـذاب قال البيضـاوي في قولـه تعـالى (يسومونكم) يبغونكم من سامه خسفا إذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء (سـوء العـذاب) أفظعـه فإنـه قبيح بالاضافة إلى سائره ، والسوء مصدر ساء ونصبه على المفعولية ليسومونكم الخ .

قولـه : (خلق آدم على صورتـه) قال : وأخـبرنـا بشر المريسي عن محمـد بن يعـلي قال : أخـبرنا الحسن بن دينار عن خصيب عن جحدر بن إسحـاق بن عبـد الله أن الحارث بن نوفل قال : قلت لابن عباس سمعت

أبا هريرة يقول (خلق الله آدم على صورته التي في علمه أن يخلقه عليها لم يحوله منها إلى غيرها) قال بشر : ومعنى آخر خلق الله آدم على صورته التي كان في علمه أن يخلقه عليها بالعالم ينقله من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغطة إلى عظام ، ومعنى آخر : وذلك أن الله كان ولا شيء غيره وقد علم ما يخلق من الصور والبقاع والأرواح والرسل واصطفى الله آدم على صورته في الصورة المصطفاة المعلومة ، واتخذ من البقاع الحرم وجعله نسكا لعباده بالطواف حوله والحج إليه وقيل بيت الله الذي اصطفاه واصطفى من الأرواح روحا ، وقيل روح الذي اصطفاه .

قواه : (قال بشر : ومعنى خلق الله آدم على صورته التي كان في علم الله أن يخلقه عليها الخ) هذا المعنى هو المعنى الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنه ولذلك لم يحكه في شرح النونية رحمه الله واقتصر على ما ذكره ابن عباس .

قوله : (ومعنى آخر وذلك أن الله كان ولاشيء غيره) الرواية في شرح النونية ومعنى آخر (وهو أن الله الخ) .

الفرق بين هذا المعنى والذي قبله أن الضمير في صورته على هذا المعنى راجع إلى الله والاضافة للتشريف كبيت الله وروح الله وإلا فالصور كلها لله والبيوت كلها لله والأرواح كلها لله كما هو معلوم .

قوله : (وقيل روح الله الذي اصطفاه) الرواية في شرح النونية أي

اصطفاه وزاد بعده في تأويل الحديث ما نصه : وزعم بعضهم أن سبب هذا الحديث ما روي أن رجلا ضرب عبدا له حسن الصورة فنهاه ﷺ عن لطمه وقال (إن الله خلق آدم على صورته) فعلى هذا فإن الهاء راجعة إلى العبد المنهي عن ضربه والله أعلم وأحكم .

ووجدت في الأثر : أن رجلا حدث جابر بن زيد رحمه الله عن الحسن أنه قال (إن الله خلق آدم على صورته) فسأل جابر الحسن عن ذلك فحلف الحسن أنه لم يقله قط ولا كان ذلك من رأيه فقال جابر : أظن أن الشيطان تخيل لهذا الرجل في صورة الحسن كذلك الشيطان يتخيل في صورة الفقهاء من الصحابة والتابعين يتحدث عنهم بالكذب ليضل الناس كما تخيل للمشركين يوم بدر في صورة سراقة بن جشعم وقال (لا غالب لكم اليوم من الناس) وغير هذه من مناكير الأحاديث تركت ذكرها لئلا يطول الكتاب بلا فائدة يحصل معناها .

قال الربيع قال أبو عبيدة بلغني عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس إنه كائن قبل الساعة زمان أهل الجهلة علماؤهم السفهاء وأمراؤهم المتكبرون وقراؤهم المتصنعون فعند ذلك يضع الشيطان مصائده إذا تفكروا في الخالق شبهوه بالمخلوقين يأتون بروايات فيذكرون أنها عن النبي ﷺ يحدون الله حدا يصفونه بصفات المخلوقين فإذا رأيتم تلك الفتنة فلا فتنة أضر منها فاعتصم منها بالقرآن فإن فيه النور من الظلمة ، والبيان من الشبهة ، والفتنة ، والنجاة من الهلكة وفيه الهدى من الضلالة .

قال : بلغني عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : قال

رسول الله ﷺ (تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإن فتنة كل أمة بعد نبيها تفكيرها وكذلك فتنة أمتي بعدي) .

قولـه : (علماؤهم السفهـاء) جمـع سفيـه وهـو ضد الحليم ، في الصحـاح السفـه ضد الحلم وأصله الخفـة والحـركـة يقـال تسفهت الريح الشجر أي مالت به الخ .

وقال البيضاوي : في قوله تعالى (سيقول السفهاء من الناس) الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر الخ .

قولـه : (وأمـراؤهم المتكـبرون) أي المتعظمـون ، قال في الصحاح التكبر والاستكبار التعظم .

قال البغـوي في قولـه تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) .

قال ابن عبـاس : يريـد الـذين يتجـبرون على عبـادي ويحـاربون أوليائي الخ .

قوله : (وقراؤهم المتصنعون) أي المتكلفون حسن السمت أي الهيئة الحسنة . قال في الصحاح : والتصنع تكلف حسن السمت الخ . وقال في محل آخر والسمت هيئة أهل الخير يقال ما أحسن سمته أي هديه . . الخ .

قولـه : (فعنـد ذلك يضع الشيطان مصائده) يعني والله أعلم يلقيها ويترك الاصطياد بها من قولهم وضعت الشيء من يدي وضعا وذلك لعدم من يصطاده لحصولهم في حزبه حين تفكروا في الخالق وشبهوه بخلقه فوضع المصائد إنما هو بالنظر إليهم لا مطلقا كما هو المشاهد والله أعلم .

ويحتمـل أن يكـون يضعهـا مطلقـا لأن المسلمـين لا قدرة له عليهم والباقي قد صاروا من جنده والله أعلم فليحرر .

ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود في التنـزيـه لله سبحـانه وتعالى قال الربيع عن ابن عمر عن أبيه عمر أنه سأل كعبـا فقـال يا كعب ما تستطيـع أن تصف من عظمـة ربـك ؟ قال يا أمير المـؤمنـين في ما ذكـر الله في كتـابه من التعظيم لنفسه مما هو كاف قال الله عز وجل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فقال عمر ما يعني بقوله (والظاهر والباطن) ؟ قال كعب : الظاهر الذي ليس ما ظهر من الأشياء بأقرب إليه مما بطن منها وما بطن من الأشياء ليس بأبعد عنه مما ظهر منها كما أنه ليس ما ظهر من الأشياء بأعلم منه مما خفي منها .

قوله : (الظاهر الذي ليس ما ظهر من الأشياء بأقرب إليه مما بطن .الخ) .

تقدم الكلام على الأول والآخر والظاهر والباطن بما فيه كفاية عن الموجز .

وقد ذكر الشيخ إسماعيل رحمه الله في شرح النونية ما يقضي منه العجب وما أظنه ترك لأحد قولا حيث قال : والأول الله تعالى كان قبل كل شيء بلا حد ولا إبداء وهو من تأويل القديم ووجدت في تفسير قول الله عز وجل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) الأول الذي كان قبل كل شيء ولا شيء معه موجود ، والأحسن بعد كل شيء بلا انتهاء وهو من تأويل الباقي .

والظاهر الغالب العالي على كل شيء ، وقيل : العالم بما ظهر ، والباطن العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه ، وقيل هو العالم بما يكون مما بطن علمه عن الخلق .

هذا معنى قول ابن عباس كما تقول فلان يبطن أمر فلان أي يعلم دخيلة أمره .

وفي أثر أصحابنا رحمهم الله تعالى : الأول في آخريته والآخر في أوليته الظاهر في ابطانه الباطن في إظهاره ، فالظاهر لخلقه بالدلائل ، والباطن عن الحواس .

وقال ابن عمر : الأول بالخلق ، والآخر بالرزق ، والظاهر بالأحياء ، والباطن بالأمانة .

وقال مجاهد أول الأول وآخر الآخر وأظهر الظاهر وأبطن الباطن .

وقال مقاتل هو الأول بلا تأويل ، الآخر بلا تأخير ، والظاهر بلا إظهار أحد والباطن بلا إبطان أحد .

وقال يمان هو الأول القديم والآخر الرحيم والظاهر الحكيم والباطن العليم .

وقيل الظاهر الغالب من قوله تعالى (فأصبحوا ظاهرين) والباطن المستولي على السرائر .

وقيل الظاهر هو العالم نسخه القائم بما ظهر وما بطن ، والباطن القاهر لما ظهر وبطن .

وقيل الظاهر فوق كل شيء فوقية إجلال ، والباطن القريب من كل شيء .

وقال مجاهد بن الفضل : الأول ببره ، والآخر بعفوه ، والظاهر بإحسانه ، والباطن بستره .

وقال أبو بكر الوراق هو الأول بالأزلية والآخر بالأبدية ، والظاهر بالأجدية ، والباطن بالصمدية .

وقال عبد العزيز بن يحيى الواوات مقحمة أي هو الأول الآخر

الظاهر الباطن لأن من كان من الخلق أولا لا يكون آخرا ، ومن كان ظاهرا لا يكون باطنا .

وقال الحسين بن الفضل : هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء والظاهر بلا اقتران والباطن بلا احتجاب .

وقيل الأول السابق إلى فعل الخير والمتقدم على كل محسن إلى فعل الإحسان ، والآخر الباقي بعد فناء الخلق ، والظاهر الغالب القاهر لكل أحد ومن غلب على شيء فقد ظهر عليه ، والباطن الذي يعلم الظواهر ويطلع على السرائر ، والظاهر أيضا الذي ظهر للعقول بالإعلاء وللأرواح باليقين وإن خفي عن أعين الناظرين ، والباطن الذي عرف المغيبات وأشرف على المستترات ، والباطن أيضا الذي خفي على الظواهر فلم يدرك بالسرائر .

قال السدي هو الأول بمجده إن عرفك بتوحيده ، والآخر بجوده إن عرفك التوبة على ما جنيته ، والظاهر بتوفيقه أن عرفك السجود له ، الباطن بستره إذا عصيته عامدا .

وقال ابن عطاء الأول بكشف أحوال الدنيا حتى لا ترغبوا فيها ، والآخر بكشف أحوال الآخرة حتى لا تشكوا فيها ، والظاهر على قلوب أوليائه حتى عرفوه ، والباطن على قلوب أعدائه حتى أنكروه .

وقيل الأول قبل كل معلوم ، والآخر بعد كل محتوم ، والظاهر فوق كل شيء موهوم ، والباطن بإحاطته بكل مكتوم .

وقيل الأول بإحاطة علمه بذنوبنا ، قبل وجود ذنوبنا ، والآخر بستره علينا في عقبانا ، والظاهر بحفظه إيانا في دنيانا ، والباطن بتصفية أسرارنا وتيقظ أذكارنا .

وقيل : الأول بالتكوين وبيانه (كنتم خير أمة أخرجت للناس) والآخر بالتثبيت وبيانه (يثبت الله الذين آمنوا) والظاهر بالتبيين وبيانه (يريد الله ليبين لكم) والباطن بالتزيين وبيانه (وزينه في قلوبكم) .

وقال الترمذي : الأول بالتعريف ، والآخر بالتكليف ، والظاهر بالتصريف ، والباطن بالتعريف .

وقال الجنيد هو الأول وعلمه بالباطن كعلمه بالظاهر ، وقيل هو الأول بالهيبة والسلطان ، والآخر بالرحمة والإحسان ، والظاهر بالحجة والبرهان ، والباطن بالعصمة والامتنان .

وقيل : هو الأول بشرح القلوب ، والآخر بغفران الذنوب ، والظاهر بكشف الكروب ، والباطن بعلم الغيوب .

وسأل عمر رضي الله عنه كعبا عن هذه الآية فقال : إن علمه بالأول كعلمه بالآخر بالعطاء ، والآخر بالجزاء ، والظاهر بالثناء ، والباطن بالوفاء .

وقيل : هو الأول بالبر والكرم ، والآخر بتحلة القسم ، والظاهر بإسباغ النعم ، والباطن بدفع النقم .

وقيـل : هو الأول بالهـدايـة والآخـر بالكنـايـة ، والظاهر بالولاية ، والباطن بالرعاية .

وقيـل : هو الأول بالإنعـام ، والآخـر بالإتمام ، والظاهر بالإكرام ، والباطن بالإلهام .

وقيل : هو الأول بتسمية الأسماء ، والآخر بتكملة النعماء ، والظاهر بتسوية الأعضاء ، والآخر بدفع اللأواء أي الشداء .

وقيـل : هو الأول بإنشـاء الخـلائق والآخر بإفناء الطرائق ، والظاهر بإظهار الحقائق ، والباطن بعلم الدقائق .

وقـال سرى السقطي لم يدع للخلق يقينـا بعد ما أخبر عن نفسه أنه الأول والآخر والظاهر والباطن .

وقال الشبلي في هذه الآية : الأشياء ساقطة فإني أول آخر ظاهر باطن والله أعلم بتأويل كتابه ومعاني خطابه .

ثم ان كعبـا بكى بكـاء شديـدا فقـال عمـر : ومـا يبكيـك يا أبـا إسحـاق ؟ أبكـاني حديث سمعتـه عن داود النبي ﷺ كان يقـول في دعائه إلهي إن ارتفعت فوق سبع سموات فأنت ثم وإن كنت في أسفل أرضه كان ثم فهل يستطيع أهل الخطايا أن يستتروا بخطاياهم دونك وأنت معهم أينما

كانـوا ؟ ثم قال : لأن في التـوارة مكتـوبـا الثور يعرف مربطه والحمار يعرف آريه وبنو إسرائيل لا يعرفون ربهم حيث يشبهونه بخلقه سبحانه وتعالى عما يصفون .

وحـدثنـا إسـماعيـل بن صالح المكي قال : سمعت الحسن يقول : سمـع عمـر بن الخطـاب رضي الله عنه رجلا يقول : والله حيث كان فقال عمـر : ويحـك كأنك تلتمسه إن الله بكل مكان ، وفي حديث حماد بن زيد فعلاه بالدرة فقال أوليس بكل مكان . قال الربيع بلغني عن الضحاك قال عمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه مرذات ليلة برجـل.وهـو مستقبـل القبلة فقـال : ما تخلفـك هذه السـاعـة ؟ فقـال صليت يا أمـير المؤمنين العشاء وصليت ما قضي لي فجلست أتفكـر في الله فعـلاه بالـدرة فقـال : ثكلتك أمـك أفي الله أمـرت بالتفكر أم في خلقه ثم تلا عمر (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) .

وقـال ابن عبـاس ما عرف الله من شبهـه بخلقـه ، وقالت عائشة أم المـؤمنـين والحسن من شبهـه بخلقـه ، عن الضحاك عن حازم قال : قال رجــل لابن مسعــود : كيف أعــرف الله ؟ قال اعـرفـه أنـه خالق الخلق ولا تتوهم أنه يشبهه شيء من خلقه ولا تدع قلبك يتهمه بشيء من الأشياء لأنــه ليس كمثـله شيء . قال : وأخــبر ني عن أبي بلال الــراسبي قال شهـدت الحسن فأتـاه عبـد الله بن رواحة المدني فقال : يا أبا سعيد أتنعت ربك ؟ فقال الحسن : بغير صفة ولا مثال ولا صورة تعالى من لا عدل له ولا ند له كما قال (الذين كفروا بربهم يعدلون) فمن شبهه بخلقه فقد عدل به .

قوله : (يعرف مربطه) يجوز فيه فتح الباء وكسرها من ربطت الشيء أربطه وأربطة أي شددته يعني بكسر الباء وضمها في المضارع .

قولـه (آريـه) أي محبسه يعني بهمزة ممدودة وراء مكسورة وياء مشددة كما ضبطه في الصحاح بعد قوله أولا أرى السحاب درته والآري العسل الخ يعني على وزن فعـل ثم قال : ومما يضعـه النـاس في غير موضعـه قولهم للمعلف آري وإنما الآرى محبس الدابة الخ .

ماروي عن ابن عبـاس رضي الله عنـه في قولـه تعـالى (وجوه يومئذ ناضـرة إلى ربهـا ناظرة) قال بلغني عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه خرج ذات يوم فإذا هو برجل يدعو ربه شاخصا ببصره إلى السماء رافعا يده فوق رأسـه فقـال له ابن عبـاس : ادع ربـك بأصبعـك اليمنى واسأل بكفـك اليسـرى واغضض بصـرك وكف يدك فإنك لن تراه ولن تناله فقال الـرجـل ولا في الآخـرة فقال : ولا في الآخرة فقال الرجل وما وجه قول الله تعـالى (وجـوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال ابن عباس ألست تقرأ قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال ابن عباس (إن أولياء الله تنضر وجوههم يوم القيامة وهو الإشراق ثم ينظرون إلى ربهم متى يأذن لهم في دخول الجنة بعد الفراغ من الحساب) .

قولـه : (تنضـر وجوههم يوم القيامة) وهو الإشراق المناسب أن يقول من النضرة أو النضارة وهي الإشراق .

قال في الصحـاح : والنضـرة الحسن والـرونق وقـد نضر وجهه ينضر نضرة أي حسن يعني بالفتح في الماضي والضم في المضارع .

قال : ونضـر الله وجهـه يتعدى ولا يتعدى ويقال نضر بالضم نضارة وفيـه لغـة ثالثـة نضر بالكسر حكاها أبو عبيد يقال نضر الله وجهه بالتشديد وأنضـر الله وجهـه بمعنى وإذا قلت نضـر الله امـرأ يعني نعمه وفي الحديث (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها الخ) .

وقـال : (وجـوه يومئـذ ناضرة) يعني كالحة (تظن أن يفعل بها فاقرة) قال : يتوقعون العذاب بعد العذاب ، وكذلك قوله (إلى ربها ناظرة) ينتظر أهل الجنة الثواب والكرامة بعد الكرامة قال : حدثنا أفلح بن محمد بن أبي معمر السعدي عن على بن أبي طالب في قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظـرة) تنضـر وجـوهم وهو الإشراق إلى ربها ناظرة قال ينتظرون متى يأذن لهم ربهم في دخول الجنة ولا يعني الرؤ ية بالأبصار لأن الأبصار لا تدركه كما قال (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) .

قولـه : (يتـوقعـون العـذاب بعد العذاب) قال البيضاوي في تفسير هذه الآية نظن تتوقع أربابها (أن يفعل بها فاقرة) داهية تكسر الفقار .

وقـال البغـوي تستيقن أن يفعل عظيم من العذاب والفاقرة الداهية العظيمة والأمر الشديد يكسر فقار الظهر .

قال سعيد بن المسيب : قاصمة الظهر قال ابن الأزهر دخول النار الخ .

وزاد في شرح النـونيـة بعـد قولـه يتـوقعـون العذاب بعد العذاب ما

نصه : وحكى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في جواب سؤال الرجل الشاك الذي سأله في تفسير هذه الآية قال معاذ رحمه الله فأما معنى قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال معاذ : ذلك بعد ما يفرغ من الحساب وردوا عينا تسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه فتنضر وجوههم ويذهب الله عنهم كل قذى أو قذر أو دنس فإذا فعل ذلك بهم وقعوا ينتظرون وهو معنى ينظرون متى يأذن لهم ربهم في دخول الجنة وذلك معنى قوله (إلى ربها ناظرة) وليس يعني بنظرها أنها تراه ولا أن الأبصار تدركه ولا أن العلم يحيط به كذلك قال (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) يعني لطف بخلقه حتى عرفوه من غير أن يروه وهو الخبير الذي أخبرهم بعلمه وتدبيره وقوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) أي أنه لا ينبغي للخالق أن يفوته خلقه ولا يدركه تبارك ربنا وتقدس وليس يرى ربنا تبارك وتعالى أحد من خلقه فهذا ما وجدته عن معاذ بن جبل رحمه الله ، وروي عن علي ابن أبي طالب ومثل ذلك عن محمد بن المنكدر وقال محمد ما رأيت أن أحدا له عقل . . الخ .

روي مكنف المدني قال بلغني عن أم حازم قال كنت عند محمد بن المنكدر جالسا فذكروا عنده أن العباد ينظرون إلى ربهم قال محمد ما رأيت أحدا له عقل يقول إن الله يراه أحد من خلقه وتلا هذه الآية (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) .

وقال مكنف أيضا كنت جالسا عند مالك بن أنس فسأله سائل هل يرى الله أحد من خلقه فتلا هذه الآية (لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة) .

قوله : (وعتوا عتوا كبيرا) وروي في شرح النونية عن مالك بن أنس أنه تلا هذه الآية إلى آخرها فقال أشركوا شركا عظيما .

عن ابن عباس رضي الله عنه في النظر أيضا قال : وأخبرني أبو نعيم عن العباس عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن نافع بن الأزرق سئل ابن عباس عن قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال الذي لا كفء له أي لا ينظر إلى أهل النار برحمته وأهل الجنة ينظرون إليه في ثوابه وكرامته ورحمته ولا يرونه بأبصارهم لأنه قال (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

قال : وقال إبراهيم ومجاهد ومكحول والزهري ينظرون الثواب ولا يرى الله أحد من خلقه .

قال الحسن : (ناظرة إلى سلطان ربها وقدرته وتدبيره) وقال : ناضرة نضرة في الوجوه وسرور في القلب .

وقال سعيد بن جبير ناضرة بهجة إلى ربها ناظرة ثواب ربها ولا يرى الله أحد .

وقال سعيد بن المسيب ناضرة نعمة ناظرة تنظر ثواب ربها ولا يرى الله أحد .

وقال عطاء بن يسار مثله ، وقال سفيان بن عيينة بن الأعمش عن

أبي راشد أن مولاة لعتبة بن عمير قالت إنما أنظر إلى الله وإليك فقال لها : لا تقولي كذلك ولكن قولي إنما أنظر إلى الله ثم إليك .

قوله : (قولي إنما أنظر إلى الله ثم إليك) ومن المعلوم أن النظر هنا إنما هو إلى الرحمة والإحسان مثلا ولكن لا يجوز الجمع بين الله وبين غيره في ذلك ولا في شيء من الأشياء ، وهذا نظير ما ذكروه في التوكل أيضا من أنه إنما يقال (توكلت على الله ثم على فلان) .

وقال علي ابن أبي طالب وعبد الله بن العباس وعائشة ومجاهد وإبراهيم النخعي ومكحول الدمشقي وعطاء بن يسار وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم وأبو صالح صاحب التفسير وعكرمة ومحمد بن كعب وابن شهاب الزهري : (أن الله لا يراه أحد من خلقه) .

قوله : (وقال علي ابن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس الخ) هذا هو الحق في الرواية عن ابن عباس رضي الله عنه : وأنه لا فرق بينه وبين عائشة رضي الله عنها في القول بأن الله لا يرى ، فالظاهر إنما يرويه المخالفون عن ابن عباس من أنه قال : إن محمدا رآى ربه بعين رأسه إنما هو مفتر عليه وإن ثبت فقد تقدم أن مراده بذلك به علمه بتمييز واستدلال من عقل ، وأن الأطباء تزعم أن العقل في الرأس ، وتقدم عن البغويّ في تفسير قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رآى) أن مذهب ابن عباس أن الله عز وجل جعل بصر محمد في فؤاده فرآه بفؤاده أقول والرؤية بالفؤاد لا تكون إلا علما .

والحاصل أن مذهب ابن عباس أن الله لا يرى كما هو مذهب أهل الحق .

ورواه محمـد بن الشيبـان أن النبي ﷺ سئل هل ترى ربـك فقـال (سبحـان الله وأني أراه) وروي فضيـل بن عيـاض وجليـل بن عبد الحميد الطـائي وعـمار بن أخت سفيان الثوري ومنصور بن المعتمر بن سليمان عن أبيه عن وكيع بن الجراح وأسباط بن محمد وعن يحيى بن زكريا بن زياد عن اسرائيل بن يونس وعيسى بن يونس عن ليث بن مجاهد أن الله لا يراه أحد من خلقه ، وقال الربيع مصداق ما قالوا جميعا في كتاب الله ولغة العرب أن الله تعالى أخبر عن نفسه (أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فنفي عن نفسـه أن تدركـه الأبصـار لأنه لو أدركته لكان قد سواها لأن كل مدرك محاط به محدود موصـوف عز الله وجـل عما يحله المبطـلون قال عز وجـل (لا تدركه الأبصار) فأخبر أنه لا تناله الأبصار .

قال جابر سئل ابن عباس عن الله هل يخلو منه مكان ؟ قال الله (ما يكـون من نجـوى ثلاثـة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) . فأخبر عز وجل أنه لا يخلو منه مكـان وأنـه شاهـد لكـل مكـان حاضـر لكل مكان على الإحاطة والتدبير لا يغيب عنـه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السماء قال (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وقال (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) وقال أبو موسى وهارون (إنني معكما أسمع وأرى) وقال (يـستخفـون من النـاس ولا يستخفـون من الله وهـو معهم إذ يبيتـون مالا يرضى من القول) وقال (ولا يحيطون به علما) .

قوله : وروي محمد ابن الشيباني الرواية في شرح النونية ، وقد روي محمد الشيباني أن النبي ﷺ سئل هل رأى ربه فقال (سبحان الله أراه أي كيف أراه) وكانت عائشة وعكرمة ينكران ذلك إنكار شديدا فيما بلغنا وفي كتاب الجهالات (من قال إن محمدا رأى ربه فهو كافر مشرك . . الخ) .

قوله : (محاط به محدود) الرواية في شرح النونية محاط به وكل محاط به محدود الخ ، ثم رأيته كذلك في بعض النسخ .

قوله : (على العرش استوى) سيأتي بيانه .

وقال : (إليه يصعد الكلم الطيب) .

قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقوله (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي) وقوله (تعرج الملائكة والروح إليه) فالجواب في ذلك أن كل الأمور تصير إليه حسنها وقبيحها يجازي بها ويعفو عمن يشاء من ذلك ، فالأمور كلها إليه تصير ومنه تجيء إلى خلقه وليس ذلك ما ظن الجاهلون ، والجاهلون هم المشبهة الذين يتوهمون أن إلههم في السماء دون الأرض يتعلقون بهذه الآية التي تلاها صاحب الكتاب وأمثالها من القرآن ومن الحديث ، وذلك أن الله عز وجل جعل السماء مسكنا للملائكة ، ومهبطا لوحيه ، وموضع تدبير أموره ، فلذلك يقول عز وجل (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ولعيسى (إنى متوفيك ورافعك إلي) ليس على أنه عز وجل في السماء دون الأرض ، وقد قال (وهو الله في السموات وفي الأرض) و (معكم أينما كنتم) في أمثالها الآى التي

تلونـاهـا في غير موضـع والأحـاديث التي روينا في مثل ذلك عن النبي ﷺ وأصحـابـه والتـابعين من بعدهم والعلماء المشهورين من الصدر الأول وقد قال الله عز وجـل (فأتى الله بنيـانهم من القـواعد) فيجب هذا أن يكون في السفلى من العالم دون العلو وقد استقصينا هذا الباب بغاية الاستقصاء في كل موضع .

قال بعض أهـل التغـير : إن العمـل الصـالح هو الذي يرفع الكلم الطيب والكلم الطيب عنـدهم ، التـوحيد ولا يقبل إلا بالعمل الصالح ، فعلى هذا المعنى إن رفوعه لذلك هو القبول له والله أعلم .

وقد قال بعض العلماء : إن الجنة في السماء ولذلك قال لعيسى (إني متوفيك ورافعك إلي) أي إلى الجنة والله أعلم .

وكـذلـك قولـه (تعـرج الملائكة والروح إليه) أي التدبيرُ من الله عز وجـــل للأمـور هو في الســماء ولـذلـك قال (إليـه) وهـو معنى قول صاحب الكتاب إن الأمور كلها إليه تصير ومنه تجيء إلى خلقه .

أقـول : لكن لابـد في تخصيص الصعود بالكلم الطيب . . الخ من نكتة وهي القبول أو نحوه .

قال البيضاوي : وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إياهما أو صعود الكتبة بصحيفتها .

قال : والضمـير المستكن في (يـرفعـه) للكلم الطيب فإن العمـل لا يقبـل إلا بالتـوحيـد ، ويـؤيـده أنـه نصب العمـل أوللعمل فإنه يحقق الإيمان ويوقيه ، أولله وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة إلى أن قال :

وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن .

وعنـه عليـه السـلام (هـو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيى به وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل . وفيه شيء) .

وقـال : (أأمنتم من في السـماء) وقـال (يـدبـر الأمـر من السـماء إلى الأرض) ونحو ذلك من القرآن فأخبر عنه أنه تعالى لا يخلو من الله مكان في السمـوات العلى والأرضـين السفلى ، ولا يجوز أن يأخـذوا ببعض القرآن دون بعض لأنه يصدق بعضه بعضا وهو (على العرش استوى ـ وهو على كل شيء شهيـد ـ وهـو بكـل شيء محيـط) بلا تكييف ولا تحديد ولا تمثيل ولا تشبيه ولا توهيم .

قوله : (أأمنتم من السماء) يحتمل أن المراد بمن الملائكة فلا دليل فيه ولا حاجة إلى التأويل .

ويحتمل أن المراد به الباري جل وعلا فيكون فيه الدليل ويحتاج إلى التأويل .

قال البيضاوي في قوله : (أأمنتم من في السماء) يعني الملائكة الموكلين على تدبير العالم أو الله تعالى على تأويل من في السماء أمره وقضاؤه أو على زعم العرب فإنهم زعموا أنه الله تعالى في السماء الخ) .

قوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قال البيضاوي : يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلى الأرض ، وقال البغوي : يدبر الأمر يقضيه ، وقال في الصحاح : والتدبير في الأمر أن تنظر ما تئول إليه عاقبته الخ .

ولكن الظاهر أن هذا إنما هو بالنظر إلى الخلق والله أعلم .

* فصـــل فـي النظـر فـي اللغـــة *

قال الـربيـع ومصـداق ما روينا عن أصحاب النبي ﷺ ، والتابعين بإحسان من أن النظر هو الانتظار قول الله عز وجل (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) يعني ما ينتظرون وليس يعني النظر بالأبصار) .

قولـه : (مـا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) قال البيضـاوي : ما ينظـرون ما ينتظرون إلا صيحة واحدة هي النفخة الأولى تأخذهم وهم يخصمون يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمر ما ، لقوله (فأخذتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) :

أقـــول : التـلاوة (هـل ينظـرون إلا السـاعـة أن تأتيهم بغتـة وهم لا يشعرون) وفي آية أخرى (أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) .

قال في قوله (يخصمون) وأصله يختصمون فسكنت التاء وأدغمت ثم كسر الخاء لالتقاء الساكنين .

ورورى أبو بكر بكسر الياء للاتباع .

وقـرأ ابن كثـير وورش وهشام بفتح الخاء على القاء حركة التاء إليها وأبو عمر وقالوا به مع الاختلاس .

وعن نافع الفتح فيه والاسكان وكأنه جوز الجمع بين الساكنين إذا كان الثاني مدغما . وقرأه حمزة يخصمون من خصمه إذا جادله .

قوله : (ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) قال البيضاوي : وما ينظر هؤلاء ، وما ينظر قومك والأحزاب فإنهم كالحضور ولاستحضارهم بالذكر وحضورهم في علم الله (إلا صيحة واحدة) النفخة (ما لها من فواق) من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين أو رجوع وترْداد في ترجيع اللبن إلى الضرع وقرأ حمزة والكسائي بالضم وهما لغتان .

قوله :(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) قال البيضاوي : أي ما ينظرون يعني أهل مكة وهم ما كانوا منتظرين لذلك ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين إلا أن تأتيهم الملائكة ، ملائكة الموت أو العذاب الخ .

قوله : (ومصداق ذلك في اللغة قول القائل الخ) قال في شرح النونية : وأما قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فقد تقدم تفسيرها وليس لهم فيه (حجة) إذ النظر يخرج على وجوه فكل محتمل فهو ساقط من يد المحتج به :

منها نظر على وجه الانتظار وهو كثير في القرآن كقوله تعالى (فناظرة بم يرجع المرسلون) وقوله (انظرونا نقتبس من نوركم الآية) ومنها نظر على وجه الاتكال كقول القائل (إنما أنظر إلى ما يرزقني الله) أي فأنا أتكل على ذلك .

ومنها نظر على وجه الاختيار كقول القائل (اللهم انظر إلي) ومنها نظر على وجه الحكم كقول القائل (انظر بيننا) .

ومنها نظر على وجه التثبت كقول القائل (انظر ما تقول) أي تثبت .

ومنها نظر العلم كقوله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) أي اعلم وكقولهم (انظر ما يقول فلان) .

ومنها نظر جهرة ورؤية وذلك عن الله سبحانه منفي ، فإذا كان النظر يخرج على ما ذكرنا فلم لم تحمل المشبهة النظر في هذه الآية إلى ما يليق في صفة الله تعالى .

ونظر الله تعالى إلى خلقه على وجهين : أحدهما مشاهدته إياهم لا يخفون عنه .

والثاني : نظر صلة وفائدة كقوله تعالى (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أي برحمته ونظر الخلق إليه انتظار رزقه ورحمته . والله أعلم .

قال : (فصل) قال بعض من يثبت الرؤية أن النظر ينقسم معناه في اللغة ولكن يعتوره وسائط مختلفة على حسب اختلاف معانيه :
فقال : إن أريد به الانتظار استعمل من غير صلة كما قال الله تعالى (انظرونا نقتبس من نوركم) .

قال : وإن أريد به الفكر استعمل بفي كقولك (نظرت في الأمر) .

قال : وإن أريد به الترحم وصل باللام فيقول (نظرت لفلان) وإذا أريد به الإبصار والرؤ ية وصل بإلى .

قال : والنظر في هذه الآية وصول بإلى ، خبر عن الوجوه الناضرة . قيل له إن الأمر كما ذكرت في النظر ولكن النظر الذي بمعنى الانتظار تارة يوصل بإلى وتارة يستعمل بغير صلة وهو في هذه الآية موصول بإلى ؛ الدليل على ذلك قول الشاعر :

وجوه ناظرات يوم بدر
إلى الرحمان تنتظر الخلاصا

وذلك موجود في لغة العرب ألا ترى إلى قول القائل إنما أنظر إلى الله ثم إليك ولا يذهب وهم أحد إلى قوله (إنما أنظر إليك) أنه أراد نظر رؤ ية وإنما معناه انظر إلى ما يأتي من قبلك من الرزق والرحمة .

وقال (ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وقال (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) ونحوه من القرآن ومصداق ذلك في اللغة قول القائل إنما أنظر إلى الله ثم إليك يعني أنه ينتظر ما يأتيه من قبله وأما الرؤ ية فتكون بمعنى التبصر .

قوله : وأما الرؤ ية فتكون بمعنى التبصر أي العلم كما يدل عليه

آخر كلامه . قال في شرح النونية والرؤ ية تخرج على معنى العلامة ورؤ ية الـدلالـة وقـد يقول الرجل لصاحبه أرني على ما قلت برهانا قال الله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) يريد ألم تعلم . قال الكميت بن زيد شعرا :

رأيـت الله إذ سـمـى نـزارا
وأسـكـنهـم بمـكـة قاطـنيـنـا

وكثـيرا ما يستعمـل النـاس فيـما بينهم عبـارة الـرؤ يـة على العلم كقـولهم : رأيت لفـلان فهـما وعلما وأدبـا . فأمـا الجهـرة فلا تذكـر إلا عند الملاقاة بالأبصار ؛ فمن زعم أن الله يرى يوم القيامة فهوكافر ومن قال يرى في الدنيا في كتب شيوخ أهل المغرب انتهى ، ولعل تمامه أنه مشرك كما هو المصرح به في الموجز وغيره .

قال رحمـه الله (فصـل) : فإن قال قائـل من الحشـويـة إن الأمـر كما ذكرتم أن الله لا يدرك جهرة وإنما يرى رؤ ية لأن الإدراك من شأنه الاتصال والرؤ ية ليس من شأنها الاتصال بالمرئي قلنا صدقتم وكذلك يسمع بالآذان ويشم بالأنـوف لأن السمـع والشم ليس من شأنهـما الاتصـال فعجبا منكم معـاشـر الحشـويـة دون إخوانكم المشبهة زعمتم في بدء أمركم أن معبودكم لا يوصف بصفات الأجسام ولا يسمى باسم الأجسام كأسماء إخوانكم من أهـل التجسيم والتعطيـل فنقضتم أصلكم بعـد ذلك فزعمتم أن معبودكم تعـالى استـوى على العـرش بذاته وأنه يرى بالأبصار جهرة . وَيْحَكُمْ ، أو

ليس الحلول من الأجسام ورؤ ية البصر لا تقع إلا على الألوان القائمة والأشباح الماثلة .

فلعمرى لو قلتم يسمع بالآذان ولا يرى بالأبصار لكان أقيس على أصلكم الذي بنيتم عليه مذهبكم كما قلتم في القرآن من أنه كلام الله قديم أزلي وهو مع ما وصفتموه به يسمع بالآذان لقوله تعالى (فأجره حتى يسمع كلام الله) ولكن لما ضويقتم بالدلائل العقلية والاحتجاجات الضرورية نصبتم له هيولى خيالا وهو العبارة بما حوججتم به من صفات الخلق الموجودة في القرآن من الاتصال والانفصال والمتشابه والمتماثل وغيرها من صفات الخلق .

قلتم صدقتم غير أن ذلك يتوجه إلى العبارة فلو قلتم في معبودكم إنه يسمع بالآذان إذا كان المسموع لا تقع عليه الأبصار ولا يوصف بلون من الألوان ولا شيء من معاني الأجسام لأنه عرض من الأعراض لكان أشبه بمذهبكم ولكنكم عكستم فقلتم يرى بالأبصار جهرة وأنه على العرش دون ماسواه من الأمكنة جرأة منكم وسوء الظن لعاقبة أمركم فلكم الويل مما تصفون وإلى ما إليه تولون .

اعلموا معشر المسلمين أن القوم ليسوا على شيء وإنما بنيت أصولهم على التشبيه للذات والتعطيل للصفات فلا يغرنكم تأليفهم في الكلام بالإكثار وكثرة ما صنفوه من الأسفار فقد صنفت الفلاسفة وسائر الملحدة أكثر من ذلك وأطول والله المستعان وبه الحول والتوفيق الخ .

فشرع في الرد عليهم في التفرقة بين الدنيا والآخرة في الرؤ ية وسألهم

عن إخبار الله بأنه لا تدركه الأبصار هل هو خبر عن الذات أو عن وقت دون وقت ؟ إلى آخر ما أطال فيه وسيأتي نقل كلامه بعد إن شاء الله .

قال الله عز وجل (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) .

قوله : (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) أبدى فيه البيضاوي ثلاث احتمالات .

اثنان منها حمل الرؤية فيهما على النظر ، الأول منهما على تقدير مضاف ، والثاني على تغيير الأسلوب .

وواحد منها حملها فيه على العلم حيث قال (ألم تر إلى ربك) ألم تنظر إلى صنعه كيف مد الظل كيف بسطه ؟ أو لم تنظر إلى الظل كيف مده ربك ؟ فغير النظم إشعارا بأن المعقول من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه ، أو ألم ينته علمك إلى ربك كيف مد الظل فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيب الأحوال فإن الظلمة الخالصة تنفر الطبع وتسد النظر وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة فقال وظل ممدود .

وقال : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) .

قوله : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) قال البيضاوي :

تعجب من محاجة نمرود وحماقته أن أتاه الله الملك لأن أتاه أي أبطره إيتاؤه الملك وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك ، وحمله على المحاجة أو حاج لأجله شكرا له على طريقة العكس كقولك عاديتني لأني أحسنت إليك أو وقت أن أتاه الله الملك وهو حجة على من منع ايتاء الله الملك الكافر من المعتزلة .

(ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) .

قوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) قال البيضاوي : ألم تر تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ قد يخاطب من لم يسمع فإنه صار مثلا في التعجب إلى الذين خرجوا من ديارهم يريد أهل داوردان : قرية قبل واسط وقع فيهم طاعون فخرجوا هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله وقدره ، أو قوما من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم وهم ألوف أي ألوف كثيرة قيل عشرة وقيل ثلاثون وقيل سبعون الخ .

وقوله : (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) .

قوله (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) قال البيضاوي : تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر ، وفيه تقبيح بليغ لإنكاره حيث عجب منه وجعله إفراطا في الخصومة بينا ومنافاة لجحود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بداية خلقه ، ومقابلة النعمة ـ التي

لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفا مكرما ـ بالعقوق والتكذيب .

وروي أن أبي بن خلف أتي النبي ﷺ بعظم بال يفتته بيده وقال : أترى الله يحيي هذا بعدما رم ؟ فقال عليه السلام نعم ويبعثك ويدخلك النار فنزلت ، وقيل معنى (فإذا هوخصيم مبين) فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا مميز منطيق قادر على الخصومة معرب عما في نفسه .

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) وإنما يعني بهذا كله وأشباهه العلم واليقين ولا يريد رؤ ية الأبصار ومصداق ذلك لغة العرب لقول القائل لقد رأيت لفلان عملا وورعا ، وفهما وعلما ، ورأيت له أدبا ومعرفة وهذه أشياء لا تعاين بالأبصار ولكنها تعرف وتعلم بما ظهر من أعلامها الدالة عليها ، وإذا رأيت رجلا عالما بما يأتي وما يذر حكيما في أمره مصيبا في فعله قلت رأيت لفلان عقلا ومعرفة وأنه كان كافا عن المحارم فرأيت له ورعا وأدبا صالحا قال الكميت بن زيد :

رأيت الله إذا سمى نزارا
وأسكنهم بمكة قاطنينا

أي مقيمين قال أيضا :

رأيت الله أهلك قوم عاد
ثمود وقوم نوح أجمعينا

تعجب من محاجة نمرود وحماقته أن أتاه الله الملك لأن أتاه أي أبطره إيتاؤه الملك وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك ، وحمله على المحاجة أو حاج لأجله شكرا له على طريقة العكس كقولك عاديتني لأني أحسنت إليك أو وقت أن أتاه الله الملك وهو حجة على من منع ايتاء الله الملك الكافر من المعتزلة .

(ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) .

قوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) قال البيضاوي : ألم تر تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ قد يخاطب من لم يسمع فإنه صار مثلا في التعجب إلى الذين خرجوا من ديارهم يريد أهل داوردان : قرية قبل واسط وقع فيهم طاعون فخرجوا هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله وقدره ، أو قوما من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم وهم ألوف أي ألوف كثيرة قيل عشرة وقيل ثلاثون وقيل سبعون الخ .

وقوله : (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) .

قوله (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) قال البيضاوي : تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر ، وفيه تقبيح بليغ لإنكاره حيث عجب منه وجعله إفراطا في الخصومة بينا ومنافاة لجحود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بداية خلقه ، ومقابلة النعمة ـ التي

لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفا مكرما ـ بالعقوق والتكذيب .

وروي أن أبي بن خلف أتي النبي ﷺ بعظم بال يفتته بيده وقال : أترى الله يحيي هذا بعدما رم ؟ فقال عليه السلام نعم ويبعثك ويدخلك النار فنزلت ، وقيل معنى (فإذا هو خصيم مبين) فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا مميز منطيق قادر على الخصومة معرب عما في نفسه .

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) وإنما يعني بهذا كله وأشباهه العلم واليقين ولا يريد رؤ ية الأبصار ومصداق ذلك لغة العرب لقول القائل لقد رأيت لفلان عملا وورعا ، وفهما وعلما ، ورأيت له أدبا ومعرفة وهذه أشياء لا تعاين بالأبصار ولكنها تعرف وتعلم بما ظهر من أعلامها الدالة عليها ، وإذا رأيت رجلا عالما بما يأتي وما يذر حكيما في أمره مصيبا في فعله قلت رأيت لفلان عقلا ومعرفة وأنه كان كافا عن المحارم فرأيت له ورعا وأدبا صالحا قال الكميت بن زيد :

رأيت الله إذا سمى نزارا
وأسكنهم بمكة قاطنينا

أي مقيمين قال أيضا :

رأيت الله أهلك قوم عاد
ثمود وقوم نوح أجمعينا

قولـه : (ولقـد كنتم تمنـون الموت من قبل أن تلقوه وقد رأيتموه وأنتم تنظـرون) ظاهـر البيضاوي أنه حمل الرؤ ية هنا على رؤ ية البصر خصوصا اذا كان المـراد بالمـوت الحـرب حيث قال : (ولقـد كنتم تمنـون المـوت) أي الحرب فإنها من أسباب الموت .

أو المـوت بالشهـادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وتمنوا أن يشهدوا مع رسـول الله ﷺ مشهـدا لينـالوا مانال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحـد على الخـروج . من قبـل أن تلقوه من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته فقـد رأيتمـوه وأنتم تنظرون أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب ونسبوا لها ثم جبنوا وانهزموا عنها أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار .

وحـــدثنـا أبـو قبيصـة عن عمـير بن إسـماعيـل عن أبي سنـان عن الـضـحـاك عن علي وابن عبـاس في قولـه (كـلا إنهم عن ربهم يومئـذ لمحجوبون) فلم يزل حجبهم عن رحمته وثوابه ولا ينظر إليهم برحمته .

قوله : (فلم يزل يحجبهم عن رحمته وثوابه الخ) يعني أنه على حذف مضاف والقرينة عليه الاستحالة .

قال : البيضـاوي : أولا بنـاء على اعتقـاده الفـاسـد محجوبون فلا يرونه بخلاف المؤمنين ثم قال ومن أنكر الرؤ ية جعله تمثيلا لإهانتهم بإهانة من يمنع عن الدخول على الملوك ، أو قدر مضافا مثل رحمة ربهم أو قرب ربهم .

عن عمـــير بن سفيـان الثـوري عن مجاهـد مثله في قولـه : (للذين أحسنـوا الحسنى وزيـادة) قال جابـر بن زيـد سئـل ابن عبـاس عن قوله : تعالى (للذين أحسنوا الحسني وزيادة) قال غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب ، قال وحدثني موسى بن جبير عن عبد المجيد والفضيل بن عياض عن منصـور بن المعتمـر عن الحكم بن عيينـة عن علي ابن أبي طالب مثـل قول ابن عباس قال الربيع روي أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال : قال رسـول الله ﷺ (إن أهـل الجنـة لا يزالـون متعجبـين مما هم فيه حتى يفتـح لهم المـزيـد فإذا فتح الله لهم كان لا يأتيهم منه شيء إلا ما كان أحسن مما في جنتهم قال الله تعالى (ولدينا مزيد) قال جابر قال ابن عباس والحسن البصـري الحسنى بالحسنـة والـزيـادة التسع قال الله عز وجل (من جاء بالحسنـة فله خير منهـا ـ ولـه عشـر أمثـالهـا) وقال مجاهد مثله الحسنى والـزيـادة قال مغفـرة ورضـوان ، وقـال الشعبي الـزيادة دخول الجنة وقال محمـد بن كعب الـزيـادة التي يزيـدهم الله الكـرامـة والثـواب ، وقال عبد الـرحمن بن أبي ليلى أحسنـوا وحـدوا الله والحسنى هي الجنـة والـزيـادة ما يزيـدهم الله من فضله ورحمتـه ، وقال أبو حازم المدني الزيادة نعم الله التي أنعم الله بها عليهم أعطاهم إياها لم يحاسبهم بها ولم يصنع بهم مثل ما صنع بالآخرين أغمرهم بالنعيم .

قولـه : (للذين أحسنـوا الحسنى وزيـادة) قال الشيخ إسماعيل رحمه الله في شرح النـونيـة : وأما تأويل المشبهة في الزيادة المذكورة في قوله تعالي (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقوله (ولدينا مزيد) فإنما تعسفوا في تأويلها تعسفـا شديـدا واستخـراجا قبيحا ولم يعتبر وا فيها معنى الزيادة المذكورة في

غيرها من القرآن كقوله تعالى (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) .

وقوله : (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) في مثله من الآيات غير أن القوم متى سمعوا بذكر شيء قريب أو بعيد من الذي بنوا عليه اعتقادهم ذهبت إليه أهواؤهم قاتلهم الله أني يوفكون .

فأما قوله (للذين أحسنوا الحسنى) قال ابن عباس والحسن الخ فذكر ما ذكره المصنف رحمه الله وقال ومعنى هذه الأقاويل معنى واحد لأن ذلك كله ثواب .

قوله : (أحسنوا) أي وحدوا الله يعني مع الوفاء بدينه كما هو معلوم .

قوله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) قال جابر بن زيد سئل ابن عباس عن قول الله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) الآية فقال : كانت اليهود أعداء الله أتوا النبي ﷺ فقالوا : يا محمد صف لنا ربك قال : كيف أستطيع أن أصف ربي الذي خلق السموات والأرض ؟ قالوا : لو كنت نبيا لوصفته ثم قالوا : هل هو كذا وكذا فأنزل الله تكذيبا لقولهم (وما قدروا الله حق قدره) أي وما عظم الله حق عظمته (والأرض جميعا قبضته) أي في قدرته (والسموات مطويات بيمينه) أي في ملكه كيف يستطيع أن يصفني هؤلاء الفسقة ولم يروا سماواتي ولا أرضي ثم نزه نفسه فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون) لأن الصفة التي كانت منهم شرك ، قال ابن عباس

فمن زعم أن لله خنصرا فقد أشرك لأن الله ليس كمثله شيء ، ولو كان ما قالت اليهود لما قال (سبحانه وتعالى عما يشركون) ولكنهم وصفوه بغير صفته فنزه نفسه عما يقولون . وقالوا إن قول الله (وما قدروا الله حق قدره) أي وما عظم الله حق عظمته إذ قالوا إن الأرض جميعا قبضته وعنوا الأصابع (وما قدروا الله حق قدره) إذ قالوا (والسموات مطويات بيمينه) على ما ذكروا على التحديد والتشبيه قال الله (سبحانه) فنزه نفسه عما يشركون .

قوله : في القبضة شرَّك ابن عباس من ذهب إلى أن القبضة غير الملك لقوله (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقد قال الله (يقبض ويبسط) يعني يعطي ويمنع وقال في آية الظل (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وقالت العرب قبض الله فلانا إليه أي أماته ويقولون (قبض فلان داره وأرضه) يعنون بذلك حازهما ومنعهما ويقولون ما فلان إلا في قبضتي من جهة القدرة عليه ويقولون الخلق متقلبون في قبضة الله .

قوله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) قوله (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) أي في قدرته (والسموات مطويات بيمينه) أي في ملكه .

قال في شرح النونية : (فصل) وكذا قول الله عز وجل (لأخذنا منه باليمين) وقوله (والسموات مطويات بيمينه) محمول على القوة والقدرة لا على ما تأولته المشبهة ، ألا ترى إلى قوله عز وجل (أوما ملكت أيمانكم) ولو ساغ لنا أن نأخذ بظاهر الآية لقلنا هذا في من له أيمان كثيرة ، ولساغ لنا أيضا أن نجعلها خاصة فيمن له اليمين دون الأقطع من المنكب فلما صح ما

ذكرنا كان معنى قول الله عز وجل (والسموات مطويات بيمينه) على جهة الملك والاقتدار لا على هيئة قبض وإمساك للشيء بالجارحة .

والقبضة ها هنا بمعنى الملك : ألا ترى إلى قول القائل (قد قبضت هذه الدار) وربما يكون في المشرق والدار في المغرب فيسوغ له هذا القول لأنه لما اشتراها وجرى عليها سلكه كان بمنزلة من قبض عليها بكفه فجاز ذلك في اللغة تشبيها وتمثيلا الخ ، فذكر رواية جابر عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال البيضاوي : في قوله عز وجل (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) تنبيه على عظمته وحقارة الأفعال العظام التي يتحير فيها الأوهام بالاضافة إلى قدرته ، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل ، القبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة بضم القاف وهو المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرىء بالنصب على الظرف تشبيها للموقّت بالمبهم ، وتأكيد الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية أو الغابرة وقرىء مطويات على أنها حال ، والسموات معطوفة على الأرض منظومة في حكمها .

وقال في شرح النونية أيضا في قوله (والسموات مطويات بيمينه) أي فانيات ذاهبات بقدرته لأنه تعالى أخبر عن شأنه يوم القيامة وعظمة أهواله فأخبر أنه يوم يزول فيه سلطان كل أحد ، ويزول عن أهل السموات

والأرض ما كانوا خولوه فتطوى السموات، والأرض ويحدث إليه فيهما من جلائل قدرته ما يعلم معه العباد أنه مالكها وأن الأرض بذلك في قبضته والسموات مطويات بيمينه على جهة الملك والاقتدار لا على القبض والإمساك بالأصابع . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقد شرَّك ابن عباس رضي الله عنه من ذهب إلى أن القبضة غير الملك ألا ترى الله كيف نزه نفسه عن مقالة اليهود لعنهم الله فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون) لأن الصفة التي كانت منهم شرْك ؛ فقال ابن عباس رضي الله عنه : من زعم أن لله خنصرا أو بنصرا فقد أشرك ، وكذا قول الله عز وجل (لأخذنا منه باليمين) أي بالحق (ثم لقطعنا منه الوتين) يعني نياط القلب .

في اليد قال جابر بن زيد سئل ابن عباس رضي الله عنه عن قول الله عز وجل (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) فقال : قالت اليهود بل رزقه محبوس ، قال الحسن : قد حبس الله رزقه قال الله (بل يداه مبسوطتان) أي بل رزقه مبسوط على جميع خلقه ينفق كيف يشاء يعطي أقواما ويمنع آخرين وهو قوله (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) بقوله لنبيه عليه السلام (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) فنهى عن التقتير والتبذير ، وقال الضحاك (يداه مبسوطتان) بل نعمتاه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

قوله : (يعنون بذلك ملكه وقدرته الخ) قال في شرح النونية وأما

تفسير اليد فإنها تخرج في كلام العرب على وجوه كثيرة تكون اليد القوة قال الله تعالى (والسماء بنيناها بأيد) ، ويكون اليد النعمة قال الله تعالى (بل يداه مبسوطتان) أراد نعمتاه ، واليد القدرة قال الله تعالى (مما عملت أيدينا أنعاما) أراد مما عملنا ، واليد الملك قال الله تعالى (تبارك الذي بيده الملك) ، ومثال ذلك قول القائل (هذه الدار في يدي) أي في ملكي ، وتقول قعدت بين يدي الدار وليس للدار يدان ، واليد في إطلاق كلام العرب هي اليد المركبة فإذا قال القائل هذه الدار علمنا أنه أراد الملك ، وإذا قال لفلان عندي يد بيضاء علمنا أنه أراد المنة ، وإذا قال فلان كتب هذا الكتاب بيده علمنا أنها الجارحة فبالقرائن والصلات يتبين المراد .

فلما نطق القرآن بما قدمنا من الآى وقارنت كل آية منها قرينة تبين معناها حملنا اليد على ذلك المعنى ألا ترى إلى قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) إنما أرادوا رزقه محبوس تعالى عن ذلك ، فلما قال (ينفق كيف يشاء) علمنا أن قوله (يداه مبسوطتان) أراد نعمة الدين والدنيا .

نظيرها قول الله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وكذلك قول الله (يد الله فوق أيديهم) أراد منة الله عليهم أن هداهم فوق منتهم أن قبلوا الإيمان لا يذهب وهم أحد إلى حمل اليد في هذه الآيات على الجارحة ، ولما وجدنا قول الله تعالى (لما خلقت بيدي) وقوله (مما عملت أيدينا) قارنته قرينة الخلق ، والخلق لا يقع إلا بقدرة حملنا اليد ها هنا على التوكيد والقدرة ، والكل سائغ فلما وجدنا اليد التي هي الجارحة مركبة في البدن مؤلفة نفينا الجارحة عن الله عز وجل إذ العقل من وراء هذا .

ذلك كله ظاهر إلى أن قال : والعرب تذكر اليد والذراع وغير ذلك من الأعضاء وتريد بها غير الجوارح كما قال :

سبــط اليــدين بما في رحــل صاحبـه
جعــل الـيــديــن بما في رحـله قطــط

يصفه بالسخاء في مال غيره وبالشح في ماله وقال آخر :

لـه نـار تهـب بكـل ريح
إذ الظــلمــاء حللت الــقــنــاعــا
فمـا إن كان أكــثــرهــم ســوامــا
ولــكــن كان أرحــبــهــم ذراعــا

يريـد سعـة الاحتـمال على قلة مالـه . منعنا عن الاستشهاد بالشعر على كل لفظة حب الاختصار.

قولـه : (لقطعنـا منـه الـوتين) (نياط القلب) في الصحاح : والنياط عرق علق به القلب من الوتين فإذا قطع مات صاحبه وهو النيط أيضا الخ .

وقال في محل آخر : الوتين عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه .

وذكر البيضاوي في اليمين تفسيرين : أحدهما : إبقاؤه على ظاهره من الجارحة والمراد بها يمين النبي ﷺ .

والثـاني : التأويـل بالقدرة حيث قال : (لأخذنا منه باليمين) بيمينه (ثم لقطعنـا منـه الـوتـين) أي نيـاط قلبه بضرب عنقه وهو تصوير لإهلاكه بأفظـع ما يفعله الملوك بمن يغضبـون عليـه وهـو أن يأخـذ القتـال بيمينـه ويكفحه بالسيف ويضرب جيده ، وقيل اليمين بمعنى القوة .

قوله : (قالت اليهود رزقه محبوس الخ) قال البيضاوي في قوله تعالي (وقـالت اليهـود يد الله مغلولـة) أي هو ممسـك مقـتر بالـرزق ، وغـل اليد وبسطهـا مجاز عن البخـل والجود ولا قصد فيه إلى إثبات يد وغل وبسط ، ولذلك يستعمل حيث لا يتصور ذلك كقوله :

جـاد الحـيي بسـط اليـدين بوابـل
شكـرت نداه تلاعـه ووهـاده

التـلاع مجاري أعلى الأرض إلى بطـون الأوديـة واحـدهـا تلعـة ، والـوهـاد جمع وهـده وهي المكـان المطمئن . من الصحـاح بخطه رحمه الله ونظيره من المجازات المركبة شابت لمة الليل .

وقيل : معناه أنه (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنيـاء غلت أيـديهم ولعنـوا بما قالـوا) دعـا عليهم بالبخل والنكد أو بالفقر والمسكنة أو بغل الأيدي حقيقة إلى أن قال : (بل يداه مبسوطتان) ثني اليد مبالغةً في الرد ونفي البخل وإثباته لغاية الجود فإن غاية ما يبذله السخي من مالـه أن يعطيـه بيـده وتنبيهـا على منـح الـدنيـا والآخـرة وعلى ما يعطي

للاستدراج وما يعطي للاكرام (ينفق كيف يشاء) تأكيد لذلك أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته لا على تعاقب ضيق وسعة في ذات يد إلى أن قال :

والآية نزلت في فنحاص بن عازوراء فإنه قال ذلك لما كف الله عن اليهود ما بسط عنهم من السعة بشؤم تكذيبهم محمدا ﷺ وأشرك فيه الآخرون لأنهم رضوا بقوله .

قوله : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) قال البيضاوي : تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر نهي عنهما أمرا بالاقتصاد بينهما الذى هو أكرم (فتقعد ملوما) عند الله وعند الناس بالاسراف وسوء التبذير (محسورا) نادما ومنقطعا بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه .

وعن جابر : بينما رسول الله ﷺ جالس إذ أتاه صبي فقال : إن أمي تستكسبك درعا أي قميصا فقال : من ساعة إلى ساعة فعد إلينا فذهب إلى أمه فقالت قل له إن : أمي تستكسبك الدرع الذي عليك فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا الصلاة فلم يخرج فأنزل الله تعالى ذلك ثم تلاه بقوله عز وجل (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي يوسعه ويضيقه بمشيئته التابعة للحكمة الخ .

في قوله الله (نور السموات والأرض) قال جابر بن زيد سئل ابن عباس رضي الله عنه عن قول الله (الله نور السموات والأرض) قال ابن

عباس والحسن وقتادة وعمرو بن محمد وأبو مسلم المكي ومجاهد : الله عدل السموات والأرض وهو هادي من في السموات والأرض كقوله (مثل نوره) ليس له مثل إنما يعني عدله ، وأما قوله (إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) فإن الكلبي روي عن أبي صالح يأتيهم بأمره وقضائه . وبقضائه فيفصل بينه وهو قول الحسن ومجاهد ، وكذلك قوله (وجاء ربك) يعني بأمره وقضائه ، قال ابن عباس والحسن وأبو صالح وعمرو (وجاء ربك) وجاء أمر ربك وقضاؤه ، وقال الله عز وجل (ولقد جئناهم بكتاب) يعني جاءتهم الرسل والدليل على ذلك قول الله عز وجل في الآية الأخرى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك) وسئل هشيم عن ذلك فقال : كانوا يقولون وجاء أمر ربك أي قضاؤه وقال الله تعالى (ألم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) وقال (فأتي الله بنيانهم من القواعد) وقال (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) .

قوله (الله عدل السموات والأرض وهو هادي من في السموات والأرض) زاد في السؤالات معنى ثالثا وهو أن النور بمعنى المنور حيث قال : وان قال (الله جسم) فقد أشرك ، كذلك جسم لا كالأجسام وكذلك إن قال (نور) أو قال (نور لا كالأنوار) أو قال (يانور النور) فقد أشرك في هذا كله .

وإن قال (الله نور السموات والأرض) فذلك توحيد إلى أن قال :

وقوله عز وجل (الله نور السموات والأرض) أي عدل السموات والأرض ، وقيل : هادي من في السموات والأرض .

وقيل : منور السموات والأرض وأنه خلق نورهما مثل نوره أي مثل هداه .

وقال في شرح الجهالات في تفسير هذه الآية فقد قال أهل التفسير ، ابن عباس وغيره أي أنه هادي من في السموات ومن في الأرض وكذلك قال صاحب كتابنا هذا إذ يقول بالهداية لأهلها والتبصرة له فقال عز وجل (نور السموات والأرض) بمعنى أنه يهديهم ويدلهم ، ألا ترى إلى قوله (مثل نوره) يعني فجعل المثل النور والله عز وجل ليس له مثل وقد قال عز وجل (لا تضربوا لله الأمثال) .

وقال أهل التفسير أي هداه في قلب المؤمن (كمشكاة) وهي الكوة غير النافذة فيها مصباح مثل قلب المؤمن ومثل المصباح الذي هو نور وضياء بالهدى والإيمان الذي في القلب الخ .

أقول : (الظاهر أن في قوله ومثل المصباح الذي هو نور وضياء الخ) قلبا لأن المراد تشبيه الهدى والإيمان المسميين بالنور والضياء الحالين في قلب المؤمن المشبه بالكوة الغير النافذة بالمصباح الذي فيها لأن المراد تشبيه المعقول بالمحسوس فالمناسب أن يقول مثلا ومثل الهدى والإيمان اللذين هما نور وضياء في القلب بالمصباح المضيء في الكوة الغير النافذة والله أعلم بحقيقة التفسير .

عدنا قال : وذكر الزجاجة زيادة في الإشراق ، ثم ذكر الزيت الذي

يستمد منه المصباح ، والزيت مثله مثل ما يمد الله به قلب المؤمن من البيان والدلائل والشواهد التي لا غاية لامداد الله قلب المؤمن بها هكذا ذكر أهل التفسير من أهل العلم إلى أن قال :

وليس يحتاج إلى الإكثار في هذا المعنى لبيانه ووضوحه ، غير أن القوم متى سمعوا كلاما من كتاب الله عز وجل أو من سنة رسول الله ﷺ ذهبوا به إلى ما في أنفسهم من تشبيههم الله عز وجل بخلقه ، وذلك لقصور علمهم عن الفهم من كتاب الله والسنة ، ألا تسمع إلى قول صاحب هذا الكتاب وليس ذلك على ما يظن الجاهلون ، وذكر البيضاوي في تفسير هذه الآية أمرا عجيبا يطول ذكره فليراجع .

قوله (أي يأتيهم بأمره وقضائه فيفصل بينهم) قال في شرح النونية ومما تعلقوا به يعني المشبهة من قول الله عز وجل (وجاء ربك والملك صفا صفا) وقوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) في أمثالها من الآيات فحملوا المعنى على المجيء والانتقال تعالى الله عن ذلك ، بل المعنى في قوله (وجاء ربك) أي أمر ربك وقضاؤه الفصل وحكمه العدل .

ومن شائع كلام العرب التعبير عن الأمر بذي الأمر في إرادة التعظيم يقول قائلهم (إذا جاء الأمير بطل من سواه) وليس الغرض انتقاله بل المراد اتصال أوامره وزواجره وهو قول الحسن ومجاهد وأبي صالح صاحب التفسير في قوله (وجاء ربك) .

وكذلك عن ابن عباس في قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أي أمره وقضاؤه فيفصل بينهم .

فلو ساغ تأويل المشبهة أن المجيء هو الانتقال لساغ مثل ذلك للغير في قوله (ولقد جئناهم بكتاب) وقوله (فأتي الله بنيانهم من القواعد) تعالى عما قالوا علوا كبيرا فهكذا ، هذا الفن في جميع ما تعلقوا به إذ العقل من ورائه ظهير .

وقال البيضاوي : في قوله (إلا أن يأتيهم الله) يأتيهم أمره أو بأسه لقوله تعالى (أو يأتي أمر ربك) (فجاءهم بأسنا) أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله (إن الله عزيز حكيم) الخ .

قوله : (فأتي الله بنيانهم من القواعد) قال البيضاوي : أي فأتاها أمره من جهة العمد التي بنوا عليها بأن ضعضعت فخر عليهم السقف من فوقهم وصار سبب هلاكهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون لا يحتسبون ولا يتوقعون وهو على سبيل التمثيل .

وقيل المراد به نمروذ بن كنعان بني الصرح ببابل سمكه خمسة آلاف ذراع ليترصد به أمر السماء فأهب الله عز وجل الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا .

قوله : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) قال البيضاوي في قوله (فأتاهم الله) أي عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء .

وقيل الضمير للمؤمنين أي فأتاهم نصر الله وقرىء (وأتاهم) أي العذاب أو النصر الخ .

في قوله : (رب أرني أنظر إليك) قال جابر سئل ابن عباس رضي الله عنه عن قوله تعالي (رب أرني أنظر إليك) فقال ذلك وجه الاعتذار لقوله ليريهم الله آية من آياته فييأسوا من رؤ ية الله .

عمير بن إسماعيل عن إبراهيم قال : حدثنا أبو صالح عن ابن عباس عن جويبر عن الضحاك في قوله تعالى (سبحانك تبت إليك) أي من مسألتي أني أنظر إليك (وأنا أول المؤمنين) المصدقين بأنك لا يراك أحد وقال مجاهد مثل ذلك وقال الحسن (لن تراني) ولا ينبغي لبشر أن يراني قال الربيع بن حبيب لن حرف من حروف القياس عند النحو بين وأهل اللغة أي لن يراه أحد في الدنيا ولا في الآخرة وإنما قوله (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) أي فلما تجلى ببعض آياته فلم يحتملها الجبل حتى صار دكا وخر موسى صعقا فلما آفاق قال سبحانك تبت إليك من مسألتي وأنا أول المؤمنين فإنه لا ينبغي لبشر أن يراه قال مجاهد تجلى أمره للجبل فجعله دكا ، وقال ابن عباس أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا ولا في الآخرة .

قوله (رب أرني أنظر إليك) قال في شرح النونية فيما يتعلق بسؤ ال موسى ربه الرؤ ية ما نصه : فإن قال أو ليس إنما أشركت اليهود لجحودهم بنبينا محمدا ﷺ وبسؤالهم موسى عليه السلام أن يريهم ربهم جهرة - قيل له نعم .

فإن قال : أو ليس كل من سأل مثل ما سألت اليهود فقد أشرك قلنا نعم .

فإن قال : وقد سأل موسى أن يرى ربه قلنا إن موسى عليه السلام لم يسأل أن يرى ربه عيانا مثل ما سألت اليهود وإنما قال (رب أرني أنظر إليك) فقال هذا على وجه الاعتذار إلى قوله ليريهم آية من آياته فييأسوا من رؤ يته عز وجل هكذا روي جابر بن زيد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو ترجمان القرآن والناس عليه كما قال الله تعالى (لن تراني) ولا ينبغي لبشر أن يراني ، المناسب لأحد (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فهذا على قطع الرجاء أي فكما أن الجبل لا يستقر فكذلك لن تراني ، ونظيره (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) أي ثقبة الابرة والله أعلم .

قال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) أي تجلى ببعض آياته فلم يتحملها الجبل فصار دكا (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك) عن ابن عباس من مسألتي إياك أن أنظر إليك (وأنا أول المؤمنين) المصدقين بأنك لا يراك أحد ، وقال مجاهد مثل ذلك .

فإن قال قائل : فإن كان موسى عندكم غير مخطيء فمم إذاً تاب ؟ ومن ماذا أخذته الصاعقة ؟ . .

قيل له إن أهل التفسير قالوا إن ذلك لتقدمه بين يدي الله تعالى بالمسألة قبل أن يؤمر بذلك .

فإن زعموا أن الصاعقة وأن التوبة إنما كانتا من أجل طلبه الرؤ ية .

قيـل لهم فإن الصـاعقـة لا تصيب أحـدا إلا على أمـر لا يجوز له ولا يحل فكذلك التوبة لا تكون من صاحبها إلا على أمر غير جائز له فهذا داخل عليكم أجمع .

اعلموا أنه ليس عند أهل الرؤ ية من المشبهة في كتاب الله عز وجل آية هي أوثق في أنفسهم من هذه الآية المتقدمة التي يذكر فيها مسألة موسى ربه عز وجل والآية التي يذكر فيها النظر وأما الآية التي يذكر فيها الزيادة فإنما تعسفوا في تأويلها تعسفا كما قدمنا قبل هذا .

ونعكس عليهم المسألة فيقال لهم : إن كان موسى عليه السلام إنما سأل الـرؤ يـة عندكم على حقيقة الرؤ ية فكيف حتي لم يشرك موسى عليه السـلام ـ حاشـاه من ذلـك ـ كما أشـركت اليهـود بسؤالها مثل الذي سأل فكيف أن يرخص لموسى عليـه السـلام في أمـر شدد فيه على غيره وقد قال تعالى (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم .

قال أهل التفسير (بشركهم) ففي هذا أوضح الدلالة على أن الذي سأل موسى عليه السلام ليس هو من المعنى الذي سألت اليهود في شيء ، فينبغي على قيـاد قول المشبهـة وأصحـاب الـرؤ يـة أن يكـون موسى عليه السـلام مشـركـا مستحقـا أن تأخـذه الصـاعقـة بظلمه فحاشا لرسول الله وصفيه وكليمه من مقالة أهل الخطأ .

وقـال في محل آخـر : فصـل : ويقـال لهم : أخـبر ونا لأية علة صار

معبودكم يرى في دار المعاد ولا يري في الدنيا أَلِذّات ذلك أم للخبر ؟ فإن قلتم لِلذات فالذات لا تتغير وإن قلتم للخبر فما ذلك الخبر .

فإن قلتم وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة قلنا هذا الخبر للرؤ ية عندكم في المعاد فأين الخبر الذي لا يرى به في الدنيا ؟ فلستم تجدونه إلا أن تقولوا قوله (لا تدركه الأبصار) .

فإن قالوا ذلك قيل لهم هذا الخبر خبر عن الذات أوخبر عن وقت دون وقت .

فإن قالوا : خبر عن الذات قلنا قد قلتم إن الذات لا تتغير صفة القديم إلى صفة المحدث .

فإن قلتم عن وقت دون وقت فيلزمكم أن تقولوا بمثل ذلك في جميع ما أخبر الله به عن نفسه في القرآن من قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يئوده حفظهما) (ولا يعزب عنه مثقال ذرة) فتكون هذه الأخبار من كتاب الله وما شاكلها في صفة الله تعالى إنما هي لوقت دون وقت .

فإن قالوا : قد استثنى في قوله (لا يجليها لوقتها إلا هو) (ولا يعلمها إلا هو) (ولا يعزب عنه مثقال ذرة) في جميع ما أخبر به عن نفسه أنه يعلمه بقوله (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) بقوله (حتى يعلم المجاهدين منكم) في أمثالها فيكون على هذا الوجه لا يعلم شيئا مما يكون حتى يكون .

فإن قالوا : إن في هذا وصفا لله بالجهل واستحداث العلم وذلك من صفات المحدث المخلوق . تعالى الله عن ذلك . قلنا وكذلك الوصف له بأنه يرى بالأبصار ويدرك بالعيان وصف له بأنه لون من الألوان المركبة في الأجسام المحدثة في مكان دون مكان وذلك من صفات المحدث المخلوق ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والظاهر أن في أثناء كلامه سقطا أو تحريفا فليراجع والله اعلم .

وأما (قولهم إنه يرى بلا كيف) فهو تستر بالمحال ، وإخراج للبصر عما طبعه الله عليه ، فالإدراك الذي لا كيف معه لا يسمى إدراكا بالبصر وإنما هو علم في حق الله تعالى بحقيقة المعرفة .

وقال في شرح النونية أيضا : فصل : فإن قال قائل ما تنكرون أن يكون الله عز وجل يزيد في أبصار أوليائه من القوة ما يدركونه بها في الأخرة ؟ قلنا له لا تخلوا هذه الزيادة من أن تكون مخرجة عن معانيها فتعود حيئذ غير أبصار فإذا خرجت الأبصار عن معانيها بطل عنها أن تكون ترى وتبصر أو تكون القوة الزائدة غير مخرجة للأبصار عن معانيها فإذا كانت كذلك فالأبصار لو قويت بكل قوة فهي مطبوعة لا تدرك إلا لونيا من الألوان وشخصا من الأشخاص ألا ترى أن الأسد إنما كان يرى ويبصر في ظلمة الليل مالا يرى غيره من الحيوان لقوة بصره وشدة نظره ، وكذلك النار لو زادت حرارتها لا تخرجها تلك الزيادة عن أن تكون محرقة ، وكذلك الثلج لو زاد برودة وجمودة لا تخرجه تلك الزيادة عن معنى ما هو فيه ، وكذلك كل خلق طبعه الله على ما هو فيه لو زاد في معناه ما عسى أن يزيده ، لما

أخـرجتـه تلك الـزيادة عن صفته التي هو لها ولا تنقله عن طبعه الذي طبع عليه ، والقول في سائر الحواس غير البصر كالقول في البصر .

وكذلك لو سأل عن الحاسة السادسة قيل له لا تخلو من أن تكون في معنى البصر أو في غير معناه على ما أجبنا في مسألة البصر والزيادة فيه سواء .

وقال بعده : فصل : فإن قال ما أنكرتم أن يكون الله عز وجل يرى بالأبصـار في دار المعـاد ؟ قيـل له أنكرنا ذلك لوجوه قوله (لا تدركه الأبصار الآية) فهذه مدحة امتدح الله تعالى بها فلا ينبغي أن تنفي عنه في وقت من الأوقـات ، ولأنـه تعـالى عظم قول من سأله ذلك فقال (فقد سألوا موسى أكـبر من ذلـك) فعجل لهم العقوبة على ذلك فلو كانت الرؤ ية تجوز عليه جهرة لما استعظم ذلك وعاقب عليه .

فإن قال لتعجلهم الـرؤ يـة في دار الـدنيـا قيـل له جاء الخـبر بنفي الـرؤ يـة على العمـوم في الـدنيا والآخرة أيضا فإن قال العقول تقتضي أن لا يدرك بالبصـر في الـدنيـا والآخـرة ولا بشيء من الحـواس لأن كل شيء أدرك جهرة لا يخلو أن يدرك كله أو بعضه ففي تناقض الوصف له بالكل أو البعض ما يدل على أنه لا يدرك جهرة .

وأيضـا لو جاز أن يدرك جهـرة كان المـدرك له لا يعدو منزلتين إما أن يدركه في كل مكان أو في مكان دون مكان ، وإدراك الخلق له في كل مكان

يستحيل وذلك أنه ليس في خلقتهم إدراك للأشياء في جميع الأمكنة في حالة واحدة لأن الخلق لا يدركون إلا ما لاقى أبصارهم وحاذى حواسهم وذلك أنهم محجوبون بخلقتهم عن إدراك ما وراءهم ، ولو كان الخلق يدركونه في مكان دون مكان فالحاسة إنما وقعت على شيء دون شيء فلا وجه لتبعيض الشيء لادراكه في بعض أماكنه التي هو فيها دون بعض فمن كان هكذا فهو متجزىء متبعض . تعالى الله عن جميع ما وصفوه به علوا كبيرا .

قوله : (جعله دكا) أي مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان وقرىء دكاء أي أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء التي لا سنام لها وقرىء (دُكاء) أي قطعا جمع دكاء .

قوله : (وخر موسى صعقا) أي مغشيا عليه من هول ما رآى .

قوله : (تبت إليك) من مسألتي أي من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن في قوله (الرحمن على العرش استوى) قال جابر بن زيد سئل ابن عباس عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قال ارتفع ذكره وثناؤه على خلقه ، وثناؤه على خلقه لا على ما قال المتنددون أن له أشباها وأندادا تعالى الله عن ذلك . قال وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال حدثنا الليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبد الله بن عمر أنه سئل عن الصخرة التي كانت في بيت المقدس فقال له : إن ناسا يقولون فذكر قوله (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبير) فارتعد ابن عمر فرقا وشفقا حين وصفوه

بالحـــدود والانتقـال فقـال ابن عمـر الله أعظم وأجـل أن يوصف بصفـات المخلوقـين وهـذا كلام اليهـود أعـداء الله إنـما يقـول (الرحمن على العرش استوى) يقول أمره وقدرته فوق بريته قال الليث قال محمد بن الحنفية قاتل الله أهل الشام ما أكفرهم أو قال ما أضلهم يقولون : وضع الله قدمه على صخـرة بيت المقـدس وقـد وضـع عبد من عباده يعني إبراهيم عليه السلام قدمـه على حجـر فجعله قبلة للنـاس تكـذيبـا لقـولهم وردا لباطلهم وقال الحسن ارتفع ذكره وثناؤه ومجده على خلقه ولا يوصف تبارك وتعالى بزوال من مكان إلى مكان . قال : وسئل هشام عن ذلك وكان أصحابنا يقولون فهـو العـرش وقـال الحسن في قولـه (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) أي استوى أمره وقدرته إلى السماء وقوله (ثم استوى على العرش) استوى أمره وقـدرتـه ولطفه فوق خلقه ولا يوصف بصفات الخلق ولا يقع عليه الوصف كما يقـع على الخلق ، وكـان عبـد الله بن مسعـود وعـائشة وابن عمر وابن الحنفيـة وعـروة بن الـزبير ينكرون ما يقول أهل الشام في الصخرة وينهون عنه ويشددون فيه في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) .

قوله : (قال جابر بن زيد سئل ابن عباس الخ) ذكر الشيخ إسماعيل رحمـه الله في شرح النـونيـة جميـع ما رواه المصنف في تأويـل الاستـواء الـخ باختصار ثم ذكر شبهة المشبهة الحشوية ثم كر عليهم بالرد في جميع ما تعلقوا به وأنقل غالب كلامه لما فيه من الفوائد مع طوله .

قال : رحمـه لله بعـد كلام المشبهـة بأسـرهـا : فيما وجدت تزعم أن معبـودهـا حال على العـرش . تعـالى الله عن جميـع ما قالوه علوا كبيرا . قال : فصل : فكان مما احتجوا به فيما بلغنا من كتاب الله عز وجل أن قالوا

إن الله عز وجل وصف نفسه في كتابه فقال (خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) قالوا والعرش معلوم أنه جسم من الأجسام ، قالوا والاستواء في معقول الكلام هو الاستقرار لقوله تعالى (واستوت على الجودي) و(على) في لغة العرب للاستعلاء . قالوا وليست في لغة العرب للاستئناف فدل أنه استوى على العرش بعد ما خلق السموات والأرض .

ويدل على ما قلنا في العرش أنه جسم من الأجسام وأنه على ما يعقل من العرش وأن العرش مشتق منه ومشبه به وأنه كالسرير قوله تعالى (وكان عرشه على الماء) وقال (رب العرش العظيم) وزعم سعيد المشبه فيما وجدت عنه وقال : ومن قال بما قال به الصادون عن الله تعالى أن كون الله تعالى بذاته على السموات والأرض وعلى العرش كون واحد ، وأن معنى استوى استولى فنسب إلى معبوده أنه كان غير مستول على العرش قبل ذلك قال وقد أخبر الله عز وجل باستوائه عليه بعد تكوينه إياه ، قال فبطل بذلك أن يكون معنى استوى استولى ، قال وقد كان العرش كائنا قبل خلق السموات والأرض ، قال : فلو كان استواء على العرش كاستوائه على ما سواه قال لسقط معنى ثم قال : ألا ترى لو أن ملاقيا لاقى زيدا في حال ملاقاته عمرا لم يجز أن يقول لاقى زيدا ثم عمرا إذ كانت ملاقاته لهما جميعا معا قال فمن ادعى خلاف ما قلنا كابر العيان وجوز الرد على الله عز وجل ، قال : لأن الله تعالى إنما خاطب رسوله بما تفصحه العرب واستدل على صحة قوله في (ثم) يقول الله عز وجل (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقوله (فلا اقتحم العقبة إلى قوله ثم كان من الذين آمنوا الآية) قال إنما يعني به الذين داموا على إيمانهم ودوامهم على إيمانهم إنما يكون بعد تقدم إيمان . قال فذلك تحقيق ما ذكرنا في (ثم) .

قال وكذلك معنى قولِهِ (ثم اهتدى) والله أعلم .

وأحكم الرد عليهم وبالله التوفيق قال الله تعالى (ثم استوى على العرش) اعلموا إنما احتجاج المشبهة في الاستواء يدورعلى هذه الأربع كلمات ثم استوى وعلى العرش فهم مطالبون بتأويل هذه الكلمات .

فصل : أما قول المشبهة أن (ثم) لا تكون أبدا إلا للاستئناف واحتجوا بقول الله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وبقوله (فلا اقتحم العقبة إلى قوله ثم كان من الذين آمنوا) ثم بمعنى الاستدامة والجواب فيما وجدت في لغة العرب أن (ثم) تكون للتراخي والمهلة وتكون بمعنى الواو واستدل على التراخي بما هوظاهر ، ثم قال وأما كونها بمعنى الواو فكقول الشاعر :

سألت ربيعة من خيرها
أبا ثم أما فقالت لمه

وقال آخر :

أن من ساد ثم ساد أبوه
ثم قد ساد قبل ذلك جده

فثم ها هنا بمعنى الواو ، ونظيره من كتاب الله عزوجل قوله (ثم

لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن (عتيا) ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) وكذلك قوله (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) فالإحكام ها هنا جامع للتفصيل وغير التفصيل لأن الله تعالى لا يفصله بعد ما أحكمه فكانت ثم ها هنا بمعنى الواو ، وكذلك قوله تعالى (وبعهد الله أوفوا ـ إلى قوله ـ ثم آتينا موسى الكتاب) فإيتاء الكتاب لموسى عليه السلام قبل مبعث نبينا عليه السلام .

وقال تعالى (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) فثم بمعنى الواو ، وكذلك قوله الآية التي احتجوا بها (فلا اقتحم العقبة إلى قوله ـ ثم كان من الذين آمنوا) إن ثم ها هنا بمعنى الواو لأنه لم يرد أنه فعل ما فعل ثم كان بعد ذلك من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وكذلك قوله (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) إلا مهتديا فنعكس عليهم المسألة فيقال لهم أخبرونا عن قوله (ثم اهتدى) هل تخلو ثم ها هنا من إحدى منزلتين إما أن تكون موجبة لعدم الاهتدى قبل وجودها بحسب ما كانت ثم عند قوله (ثم استوى) إنها دالة على عدم الاستواء قبل وجودها إلى أن قال :

كذبتكم الأمة بأسرها مع الإجماع منها على فساد ما ذهبتم إليه .

وذلك أنه يقال لكم كيف يمكن أن يكون من تاب وآمن وعمل صالحا غير مهتد فمن تاب وآمن وعمل صالحا فهو من أهل الجنة عندنا أجمعين ، فينبغي على قولكم أن يكون قوله عز وجل (ثم اهتدى) أن ثم ها هنا دالة على عدم الاهتداء قبل وجودها ممن تاب وآمن وعمل صالحا كما

كان قولـه (ثم استـوى) أن ثم دالـة على عدم الاستـواء قبل وجودها على حسّب ما ذكرتم من ذلك ، وهذا مالا سبيل إلى دفعه .

فإن زعمتم أن قولـه (ثم اهتـدى) أن ثم ها هنـا موجبة لمعنى الدوام على إيـمانـه قيـل لكم فهلا زعمتم أن ثم في قوله ثم استوى إنما هي بمعنى الدوام فبطل ما اعتلوا به والله أعلم (وأحكم) .

وأمـا الاستـوى في لغـة العـرب فهـوعلى ضروب مختلفـة فذكـرهـا واستدل عليها بالقرآن وكلام العرب شعرا ونثرا بما يطول ذكره .

ومن جملتها أنه يكون بمعنى القهر والغلبة إلى أن قال :

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قال استولى وابن عباس صاحب التأويل والناس عليه فيه عيـال إلى أن قال فاستـواؤه عز وجـل على عرشـه إنـما هو استيـلاؤه عليه بالملك والسلطان لا شريك له .

فإذا ثبت بهذه الشـواهـد العقليـة والاحتجـاجـات الضـروريـة أن الاستـواء على ضروب متفـاوتـة فلم تعمـد المشبهـة إلى أرفعها منزلة ، وأعلاها درجة ، وأبعدها تنزيها فتصف الله تعالى به إذ كان عز وجل بعيدا من صفات الخلق ومعاني النقص .

ولـو كان استـواؤه على المعقـول لكـان تصـويره لما في الأرحام على المفهوم وإتيانه بنيانهم على المعقول تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فلما كان الأمر على ما ذكرنا ثبت أن الله عز وجل لم يزل مستوليا على عرشه قبل خلقه إياه واختراعه له بأن يوجده في أي وقت شاء ومستوليا عليه في ايجاده بأن كان ممسكا له ومبقيا له بأن يحدث له البقاء الذي بقي به في كل وقت خلافا لما قال إن (ثم) ها هنا في معنى الاستئناف وتقدير في قوله (خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) أي هو مع خلقه السموات والأرض لم يزل مستوليا على العرش وغيره بالقهر والغلبة .

فأما على فإنها تتصرف على وجوه فذكرها واستدل عليها أيضا بالقرآن وكلام العرب نظما ونثرا بما يطول ذكره إلى أن قال :

ووجه آخر كقوله تعالى (والله غالب على أمره) وقوله (الرحمن على العرش استوى) وقوله (وهو القاهر فوق عباده) بالقهر والغلبه نظيره (وإنا فوقهم قاهرون) وقوله (يدعون ربهم من فوقهم) أي بالقهر والغلبة لا بالمكان والجهة تعالى الله عن ذلك . فإذا كان يخرج على ما ذكرنا فلم لا يكون قوله على (على العرش استوى) بالقهر والغلبة دون ما ذهبت إليه المشبهة من الالتزاق والفوقية تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا والله عال على العرش وجميع الخلق بالغلبة والسلطان فالعرش وجميع الخلق في تدبيره عز وجل ، وتقديره ألا ترى أن الناس يقولون فلان على بني فلان إذا كان يلي أمورهم ومصالحهم والله أعلم وأحكم .

وأما العرش فقد اختلف المتكلمون فيه فقال بعضهم فيما بلغنا أن ذكر الله تعالى للعرش على المجاز والمثل المضروب فليس عندهم في السماء

عرش إنما ذلك كقول العرب (قد ثل عرش فلان) إذا انحط من عز إلى ذل فاستشهد لذلك إلى أن قال :

وقالوا في الكرسي مثل ذلك وزعموا عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله (وسع كرسيه السموات والأرض) أنه قال علمه واستدلوا بقول الشاعر :

كراسي بالأحداث بيض وجوههم
كأنهم في الساجيات كواكب

أي علماء والله أعلم ، وهؤلاء فروا من شيء لا ينقض عليهم من كلامهم شيئا ، وليس في كون العرش جسما ما يوجب الجلسة عليه كما يقال بيت الله لا على أنه يسكنه ، ومساجد الله لا على أنه يصلي فيها ، وسماؤه وأرضه وبحاره لا على أنه يسكن شيئا من ذالك . تعالى الله عن ذلك .

وكذا العرش وإن كان جسما من الأجسام فليس في ذلك ما يوجب الجلسة عليه كما قالت المشبهة وزعموا أنه لا فرق بين قوله (ورفع أبويه على العرش) وبين قوله (ثم استوى على العرش) وقوله (أهكذا عرشك) وليس في ذكره عز وجل سماء ولا أرضا ولا بيتا ولا مسجدا ولا عرشا ما يوجب التشبيه له بخلقه عز وجل عن ذلك وقد قال عز وجل (حافين من حول العرش) وقال (الذين يحملون العرش) وقال (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وقال (وكان عرشه على الماء) وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال (اهتز العرش لموت سعد بن معاذ) والاهتزاز لا يكون إلا

للأجسام ، وجاء في الحديث عنه عليه السلام قال (أذن لي أن أحدث عن ملك من الملائكة يحمل زاوية من زوايا العرش على كاهله الحديث) في حديث كثير مثله يدل على أن العرش جسم يدار به ويطاف حوله .

وأما تخصيصه عز وجل العرش بالاستواء فإنه لما كان أسفل الأشياء الثري وما تحت الثري وكان أعلى الأشياء السماء وما فوق السماء السابعة كالعرش والكرسي ، وكان الله عز وجل قد جعل للأعلى في القلوب من التعظيم والقدرة الشرف ما لم يجعله للأسفل كما عظم بعض الشهور وبعض الأيام وبعض الليالي وبعض الساعات وبعض البقاع على بعض وقد جعل للعرش ما لم يجعل مثله للكرسي ، وجعل للكرسي ما لم يجعل مثله للعرش ، وجعل للعرش والكرسي ما لم يجعل للسماء فذكر العرش والكرسي والسماء بما لم يذكر به شيئا من خلقه فذكر مرة العرش والكرسي والسماء في جملة الخلق وأنه عال على جميعها بالقدرة والسلطان والقوة حيث يقول والله على كل شي قدير (وهو على كل شيء قدير) فأوجب بذلك أن علوه على ذلك إنما هو بالقدرة والسلطان .

وإنما خصه بالذكر إذ كان مخصوصا عندنا بالشرف والتعظيم وأنه فوق جميع الخلق لأن من قدر على أعالي الأشياء فهو قادر على أسافلها وليس من قدر على أسافلها أن يكون ذلك موجبا له القدرة على أعاليها فمتى ما ذكر الله تعالى أنه عال على العرش ظاهر عليه فهو دليل على أنه عال على كل شيء فمرة يذكر العرش ومرة يذكر الكرسي دون العرش ومرة يذكر السماء دون الأرض ومرة يذكرهما جميعا كقوله (وهو الله في السموات

وفي الأرض) (وهـو الـذي في السماء إله وفي الأرض إله) ومرة يقول (أأمنتم من في السـماء أن يخسف بكم الأرض) وتـرك ذكـر الأرض فلوكان في ذكـره السماء دون الأرض دليل على أنه ليس في السماء دون الأرض لكان في ذكره العرش دليل على أنه ليس في السماء وقد قال (أأمنتم من في السماء) ولكن الله تعـالى يذكـر جملة الأشيـاء بالتـدبـير فيها والقدرة عليها ويذكر العرش والكـرسي تارة بالتخصيص لهما والتفخيم كما ذكـر الأنبيـاء والملائكة عليهم السلام جملة وخص منها من يصلح للتخصيص الخ فذكر جملة من عطف الخاص على العام لشرف الخاص إلى أن قال :

وكذلك العرش والكرسي أبانهما من جملة الخلق لشرفهما عندنا وعلو قدرهما فمـرة يذكـر معـاظم الأمـور وجـلائـل الخلق وكبـار الأجسام وأعالي الأجـرام ومـرة يذكر الشخص حيث كان وأين كان في قوله (وهومعكم أينما كنتم) إلى أن قال : (فيقال للمشبهة على ماذا تحملون ما ذكرنا من اخبار الله تعالى ولونه في هذه الأشياء على المعقول من كون الجسم بالمكان ؟

فإن قالوا نعم قيل : لهم وقد قال على العرش استوى وأمنتم من في السـماء وهـو في الأرض إلـه وفي المشرق عند نجوى الثلاثة وفي المغرب عند نجـوى الخمســة وفي القطر الآخر عند أدنى وفي الآخر عند أكثر لأنه تعالى قال إلا هو معهم أينما كانوا فإن حملوه على أنه معنى الإحاطة والعلم أوغير ذلـك من التأويـل قلنـا فقـد رجعتم إلى السـائـغ المحمول وتركتم الظاهر المعقــول فلم أنكــرتم علينـا حمل الاستـواء على القهـر والغلبـة والحفـظ والإحاطة إذ كان ذلك سائغا في اللغة وهو الأليق بصفات المتفرد بالربوبية .

فإن قالـوا فهـلا أجـريتم الآية على ظاهرها من غير تعرض لتأويلها مصيرا إلى أنها من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله ؟ .

قلنـا أجـراء الاستـواء على المعقـول يئـول إلى التجسيم والتعطيـل والـتـشـكـك فيهـا يكـون في حكم التصميم على اعتقـاد التجسيم ، والإعـراض عن التأويـل يجر إلى اللبس والإيهـام واسـتزلال بقوام تطريق المشبهات إلى أصول الدين ، وتعريض كتاب الله إلى رجم ظنون الزائغين .

على أن بعض العلماء فيما بلغنا ذكر في قوله تعالى (وأخر متشابهات) أنهـا مراجعـة منكري البعث لرسول الله ﷺ في استعجال الساعة والسؤال عن منتهاها .

وزعـم أيضا أن المراد بقوله سبحانه (وما يعلم تأويله إلا الله) أي وما يعلم ما له إلا الله واستشهد على ذلك بقوله تعالى (هل ينظرون إلا تأويله الآية) .

زعم أن التأويـل ها هنـا محمـول على السـاعـة باتفـاق الجماعة فيما زعـم . والله أعلم وأحكم .

قال : فصـل : ويقـال للمشبهـة حدثـونـا عن العـرش هل له غاية وتحديد ونهاية أم ليس بذي غاية ولا نهاية ؟

فإن زعموا أنه ليس بذي غاية ولا نهاية فقد سووه بالقديم جل وعلا وكان ذلك هو الشرك بالله صراحا .

فإن قالوا إنه ذو غاية ونهاية قيل لهم فهو في السماء دون الأرض ؟

فإن قالوا نعم قيل لهم فالعرش ذو جهات ست أمام وخلف ويمين وشمال وفوق وتحت ؟

فإن قالوا نعم ولابد من ذلك قيل لهم فمعبودكم على هذا العرش بمعنى الحلول دون ما سواه من الأمكنة ؟

فإن قالوا نعم قيل لهم فيجب من ذلك حتما أن معبودكم ذو قدر من الأقدار ولا يخلو أن يكون مثل العرش أو أصغر منه أو أكبر .

فأيما قالوه من هذه الثلاثة فلابد من مخصص خصصه فكل مخصوص متناه وذلك علم على الحدوث تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فأينما ذهبوا خوصموا والحمد لله رب العالمين .

قال : فصل : فأما من ذهب من المشبهة في الاستواء إلى ما روي عن مالك أنه سئل عن الاستواء فقال للسائل الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول كأنه أشار إلى الآية أنها من المتشابه فقوله (غير مجهول) يريد الاستواء الذي هو التنقل والصعود من سفل إلى علو .

قوله : (الكيف غير معقول) يريد كيفية هذا الاستواء الملفوظ ها هنا مجهول ، يريد نفي السؤال عن هذا . هكذا وجدت والله أعلم .

فيقال لمن ذهب هذا المذهب أخبرونا عن الاستواء المذكور ما معناه عندكم ؟ أهو على الحلول المعقول والتمكن المفهوم من الأمراء على الامارة ؟

فإن ذهبوا إلى هذا كفوا مئونتهم وكان النقض عليهم كهو على إخوانهم .

فإن قالوا إن الاستواء على غير الحلول والتمكن قلنا فعلى ماذا إذاً ؟

فإن قالوا لا نعدوا ما قال الله تعالى من ذلك ، ولا نقول على الحلول المعقول ولا غير ذلك من الاستيلاء والحفظ غير أنا نقول إن الله تعالى فعل في العرش فعلا يسمى به مستويا ، ولا نصف ذلك ولا نحده ، قلنا فنحن لا نجد للاستواء في لغة العرب معنى إلا ما ذكرنا من الاستواء والحفظ أو على معنى ما يعقل من الحلول والتمكن . فعلى أي هذين الأمرين تعزمون من قولكم ؟ وعلى أيهما تعتمدون ؟ فنحن لا ندعكم حتى تخرجوا بنا إلى أحد الوجهين : إما قول إخوانكم من أصحاب المعقول والتمكن فذلك أروح لكم وأفيد لمقالتكم من الإقامة على اللبسة والرضى بالشبهة أو ترجعوا إلى قولنا ضرورة وليس بين هذين الوجهين وجه تعتمدون عليه .

وكـذلـك يسألـون عن النظـر المـذكور في الآية التي استدلوا بها على صحـة الـرؤ يـة بزعمهم وغـير ذلـك من النزول الذي انتحلوه عشية عرفة والإتيان في ظلل من الغمام الذي زعموه ونحلوه ربهم .

فإن قالوا ليس علينا من البحث والتفتيش في هذا شيء قلنا بل يجب لله عليكم أن تصفـوه بصفـاته وتعزموا إليه بخلاف صفات خلقه وتدعوا ما وراء ذلــك من التشبيــه والتعطيــل ، ووقـوفكم بين ما بيَّن الله في كتـابـه. وأوضحـه الـرسـول عليـه السـلام من سنته وتكلمت به أئمة المسلمين من الصحـابـة والتـابعـين مع أنكم قد بحثتم وفتشتم وقلتم فأخطأتم وتجاوزتم السبيـل الأزهـر المقبول إلى المشكل المردود الأوعر المجهول حين زعمتم أن الله يرى بالأبصار جهرة وأنه على العرش بذاته دون ما سواه من الأمكنة ، وأنه ينزل عشية عرفة إلى السماء الدنيا فيباهي الملائكة بأهل عرفة وأنه ينزل في النصف من شعبان وأن له عينا ووجها ويدا وقبضة ويمينا وجنبا في جميع ما تجاسرتم عليـه . تعـالى الله عما تقـولـون وعـما عليـه تقولون علوا كبيرا والحمد لله رب العالمين انتهى كلامه رحمه الله .

جميع ما ذكره عن القوم لعله مذهب المتقدمين منهم .

وأمـا المتأخـرون منهم فمـذهبهم وجميـع ما أدى من الاستواء والعين والـوجـه واليـد وغـير ذلك مما ذكر مذهب المسلمين إلا في الرؤ ية - قبحهم الله - وأمـا غير ذلـك فقـد خالفـوا فيـه قدماءهم فلذلك قالوا في كتبهم فيما يتعلق بالاستـواء : طريقـة السلف أسلم يعنون لما فيها من التوقف وطريقة الخلف أعلم يعنون لما فيها من العلم حيث بينوا المراد به والله أعلم .

قولــه : (ارتفـع ذكـره وثنـاؤه على خلقـه) فيـه إشـارة إلى تأويـل (استـوى) بمعنى ارتفـع وإلى تقـديـر مضاف في الضمير المستتر وإلى أنه ليس المـراد من العـرش خصوصيته وإن خص بالذكر لأنه إنما خص بالذكر لشرفه وعظمته فإذا استولى عليه وقهره وغلبه وارتفع ذكره وثناؤه عليه فعلى غيره من الخلق من باب أولى .

قال في المـوجـز في قولـه عز وجـل (والله غالب على أمـره) هو كقـوله (الـرحمن على العـرش استـوى) وكقـولـه (وهـو القـاهـر فوق عباده) وهذه الكلمات الثـلاث متسـاويـة السبـك متقـاربة المعنى فإذا تأمل ذلك متأمل وجده على ما قلنا .

وذلـك أن قولـه (الـرحمن) مثل قوله (والله) ومثل قوله (وهو) وكذلك قولـه (على) مكـان قولـه (علا)، ومكان قوله (فوق) وكذلك قوله (استوى) مكان قوله (غالب) ومكان قوله (القاهر) وكذلك قوله (العرش) مكان قوله (أمره) ومكان قوله (عباده) فهذه الكلم الثلاث متشابهة في العبادة والإشارة فلا تجوزن ـ أيدك الله ـ بالذي فسرنا منها صفحا . توفق إن شاء الله .

قوله : (فذكر قوله) أي قول الراوي عن أناس ، والمناسب أن يقول فلذكر قولهم الخ ، فلذلك ارتعد ابن عمر فرقا وشفقا .

والفـرق بالتحـريـك الخـوف وهـو من فرق بالكسـر ومنه قوله تعالى (انهم قوم يفرقون) والشفق الحذر والكثير الاشفاق من أشفق .

وأما شفقت فأثبته ابن دريد وأنكره أهل اللغة كما قاله في الصحاح والمراد ـ والله أعلم ـ أنه يخاف ويحذر أنه ينزل عليهم من قبل الله تعالى نوع من العذاب لعظيم ما تكلموا به من الإفك والبهتان في حق الله . تعالى عما يقولون علوا كبيرا .

قوله : (يقول أمره وقدرته) يعني أن الفاعل في (استوى) على حذف مضاف وأن (على) حينئذ على معناها من الفوقية والاستعلاء ، ولا ضرر في ذلك .

وفي قوله (فوق بريته) إشارة إلى أن استواء أمره وقدرته على عرشه مع عظمته يستلزم الاستواء على سائر خلقه من باب أولى فلذلك ذكر البرية مكان العرش والله أعلم .

قال في الموجز ومتى ما ذكر أنه عال على العرش وظاهر عليه فقد أخبر أنه عال على كل شيء .

قوله : (وقد وضع عبد من عبيده إلى قوله فجعله قبلة للناس تكذيبا لقولهم) يعني والله أعلم أن الله عظم حجرا وهو مقام إبراهيم عليه السلام حيث جعله قبلة للناس يعني أنه قبلة لمن صلى داخل الكعبة فإنه يستقبل الباب ومن استقبله فقد استقبل المقام وقد نص الشيخ هود بن محكم رحمه الله في تفسير قوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) أن المقام قبلة الكعبة الخ ، فليراجع .

وقد عظمه الله تعالى حيث يقول (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فعل الله ذلك تعظيما له لأجل وقوف خليله عليه السلام عليه فلو فعل في الصخرة ما ذكره أهل الشام ـ قبحهم الله ـ لكانت أولى بالتعظيم وأحق من مقام إبراهيم بأن تجعل قبلة فلما عكس دل ذلك على تكذيبهم والله أعلم .

قوله : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) أي استوى أمره وقدرته إلى السماء .

قال في الموجز :

وأما قوله (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) فكيف يتهيأ الاستواء على الدخان إذا كان ذلك على ما تتوهمه المشبهة من الحلول ، وكذلك قوله (على العرش استوى) لو كان ذلك على ما يتوهمونه من الاستواء بعد الاعوجاج لكان ينبغي أن يكون الله جل جلاله في أول ما جلس على العرش لم يكن متمكنا فهو إذاً يعجز عن حسن الجلسة حتى يريد أن يتأتى له ويمكن لنفسه وما يخلو المتوهم لهذا والقائل به من أن يكون غبيا منقوصا أو معاندا عبثا . تعالى الله عن جميع ما قالوا علوا كبيرا .

وقال في شرح النونية : ويكون الاستواء بمعنى القصد ـ بالتدبير ـ إلى الشيء قال الله تعالى (ثم استوى إلى السماء) أي قصد إلى السماء بتدبيره وعجائب تقديره الخ . فعلى هذا لا يحتاج إلى التأويل الذي ذكره المصنف رحمه الله لأن قصده سبحانه وتعالى إلى الشيء بالتدبير صحيح كما هو ظاهر والله أعلم .

ما قيـل في الوجـه

قال جابر سئل ابن عباس عن قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام) قال ابن عباس كل شيء يفنى ويبقى الله وحده وكذلك قال الضحاك ومجاهد وأنس بن مالك .

قوله : (يعني كل شيء يفنى ويبقى الله وحده) قال في شرح النونية : وأما ما تعلقت به المشبهة في تأويل الوجه فحملوه على الجارحة دون الوجود في قوله عز وجل (ويبقى وجه ربك) وقوله (كل شيء هالك إلا وجهه) فينبغي على قياد قولهم أن يهلك معبودهم ويفنى دون وجهه على أن بعضهم زعم هذا فيما وجد فتعالى الشيء نفسه كقوله تعالى (ويبقى وجه ربك) (وكل شيء هالك إلا وجهه) أراد ويبقي ربك وكل شيء هالك إلا هو وكذلك قوله (إنما نطعمكم لوجه الله) أي لله .

وذهب بعضهم في قوله (كل شيء هالك إلا وجهه) قال : كل الأعمال تضمحل إلا ما التمس به وجه الله .

وكذلك قال بعضهم في قوله (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال : يراد به فثم توجيه الله أي تلقاء الكعبة والتوجه إلى الله .

وقال : الوجه صلة أي فثم وجه الله ، والوجه أيضا المنظور إليه من القوم يقال هذا من وجوه القوم أي من عظمائهم .

والوجه الجاه أيضا يقال لفلان في الناس وجه أي جاه ومكان قال الله تعالى (وكان عند الله وجيها) أي ذا قدر ومكانة .

والوجه الحيلة والسبيل إلى الشيء يقال كيف وجه هذا الأمر ؟ أي كيف الحيله إلى فعله .

والوجه الجارحة المركبة فإذا كان الوجه يتصرف على ما ذكرنا فكيف يسوغ تأويل المشبهة ـ قاتلهم الله أني يؤفكون ـ .

ما قيل في العين

وأما قوله : (ولتصنع على عيني) قال ابن عباس ولتربى بأمري قال الحسن ولتربى بعلمي وقال مجاهد والضحاك بعلمي ، وكذلك قوله (تجري بأعيننا) يعني بعلمنا وحفظنا فحفظ سفينة نوح عليه السلام من الطوفان ، وحفظ موسى عليه السلام من فرعون وقومه حتى بلغ الله به أن جعله رسولا مكلما فتلك الخاصة التي اختص الله بها موسى ، ولو كان قوله (ولتصنع على عيني) على ما قال الجاهلون من أنه يراه بعينه لما كان لموسى عليه السلام فضيلة لأنه يرى فرعون كما يرى موسى ولكنه أراد تصنع بحفظي وكلاءتي وحرزي حتى يبلغ عن الله ما أمر الله من رسالاته وأمره .

ذكر في شرح النونية للعين وجوها كثيرة وأنقلها باختصار .

قال : والعين من حروف الهجاء وتخرج على وجوه تكون عين الجارحة كعين الإنسان .

والعين الحاضر من الأشياء قال : وعينه كالكال الضمارة .

والعين الخيار من الأشياء يقال هذا عين إبلنا .

والعين الخاص من الناس والعين الجاسوس والعين الثقل في الميزان والعين الدينار والعين ما عن يمين قبلة العراق ويقال نشأت السماء من قبل العين .

والعين مطر يدوم أياما لا يقلع وعين الشيء نفسه يقال لا أقبل إلا درهمي بعينه .

ولا تجوز عبارة العين على الله تعالى . وأما النفس فقد قال الله تعالى (ويحذركم الله نفسه) أي إياه وقيل عقوبته .

والعين العقوبة يقال أصابتك عين من عيون الله ، والعين عين الشمس ، والعين الحفظ - إلى أن قال - ومنه قوله تعالى ولتصنع على عيني قيل عن ابن عباس معناه لتربى بكلاءتي وقال غيره بحفظي وعلمي .

وحكي عن المفضل قال : لتغذي وتربى بمرأى مني لا أكلك إلى غيري .

وكذلك قوله (تجري بأعيننا) وقوله (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)

كل هذا يعني به الحفظ والمشاهدة لأن الأشياء كلها بنظر الله وحفظه على الإحاطة بها لا على معنى الجارحة .

فإذا كانت العين تحتمل جميع ما ذكرنا فلم حملت المشبهة العين المذكورة أي في آى القرآن على الجارحة دون غيرها قاتلهم الله أني يؤفكون ؟ أولا يعلمون أن عين الجارحة لابد لها من وجه ولابد للوجه من رأس ، ولابد للرأس من بدن والبدن محدود مؤلف يحتاج إلى حدود ومؤلف . تعالى عن ذلك علوا كبيرا انتهى باختصار حذف غالب الشواهد .

وقال في محل آخر (فصل) : ومن ذلك قال الله عز وجل (تجري بأعيننا) أراد أن سفينة نوح صلوات الله عليه تجري بحفظنا أي تجري وهي منا بالمكان المحفوظ بالكلاءة والحفظ والرعاية يقال : إن فلانا بمرأى من الملك ومسمع إذا كان بحيث تحوطه عنايته وتكتنفه رعايته .

وزعم بعضهم أن قوله (تجرى بأعيننا) أن المراد بالأعين في هذه الآية الأعين التي انفجرت من الأرض وأضيفت إلى الله تعالى ملكا وهذا بعيد .

والقول الأول أسوغ ، ألا ترى إلى قوله تعالى (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) أي بحفظنا خلافا لقولهم هذا ، وكذلك قوله لموسى عليه السلام (ولتصنع على عيني) أي ولتربى بأمري قاله ابن عباس .

قال الحسن ومجاهد والضحاك ولتغذي بعلمي ، ولو كان تفسير هذا على ما تأولته المشبهة لم يكن بين موسى وفرعون فرق لأنه يراهما جميعا .

وكـذلـك تفسير القبضة في الآية الأولى لو كان على ما قالته المشبهة من الطي بالأصابع لكان تعالى لا يقدر على طي الأرض في تلك الحالة إذا كان مشتغلا بطي السموات . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وقـال البيضـاوي في قوله (ولتصنع على عيني) ولتربى ويحسن إليك وأنـا راعيـك وأرقبـك والعطف على جملة مضمرة مثل ليتعطف عليك ، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك .

وقـرىء ولتصنـع بكسـر الـلام وسكـونهـا والجزم على الأمر ولتصنع بالنصب وفتح التاء أي وليكون عملك على عين مني لئلا تخالف به عن أمري .

مـا قيــل فـي النفـس

وأما قوله (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) فقال ابن عباس تعلم ما في علمي ولا أعلم ما في علمك ، وجاء عنه من وجه آخر تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك إنك أنت علام الغيوب .

قوله (ولا أعلم ما في غيبك) زاد بعده في شرح النونية : فوجدت في

بعض الكتب أيضا (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك التي هي نفسي) وهذا لعمري سائغ لأن المدار على نفس الإنسان .

وقال البيضاوي : في معنى الآية تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنته ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك ، وقوله في نفسك للمشاكلة ، وقيل المراد بالنفس الذات . والظاهر من تفسير ابن عباس رضي الله عنه هو الأول والله أعلم .

ما قيل في اليد

وأما قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) قال ابن عباس يد الله فوق أيديهم كانت للقوم عند الله بيعة حسنة وكانت اليد من الله الجزاء والثناء أفضل من التي كانت لهم عند الله ، وقال الحسن يد الله النعمة عليهم أن هداهم للإيمان أفضل من قبولهم قال ابن عباس (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) أي بقدرتي وصنعي قال علي ابن أبي طالب لما خلقت أنا وكذلك مما عملت أيدينا انعاما يقول مما عملنا وقال الضحاك مثل ذلك ، وقال الحسن بأمري كقوله (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وكقوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) .

قوله (يد الله فوق أيديهم) قال البيضاوي في قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود ببيعته . يد الله فوق أيديهم حال أو استئناف مؤكد له على سبيل التخييل .

قولـه : (كـانت للقوم عند الله بيعة حسنة الخ) قال البغوي قال ابن عباس يد الله بالوفاء بما وعدهم من الخير فوق أيديهم .

ثم قال : وقال الكلبي : نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعـة ، وهـذا معنى قول الحسن يد الله بالنعمـة عليهم أن هداهم للإيمان الخ .

وبهذا جزم في شرح النونية : حيث قال وكذلك قول الله (يد الله فوق أيـديهم) أراد منـة الله عليهم أن هداهم فوق منتهم أن قبلوا الإيـمان لأنـه لا يذهب وهم أحد إلى حمل اليد في هذه الآيات على الجارحة الخ ، وقد تقدم الكلام على اليد بما فيه كفاية .

قوله : (أفضل من التي كانت لهم) أي أفضل من البيعة التي كانت لهم .

قوله : (لما خلقت بيدي) أي بقدرتي وصنعي .

قال في شرح النـونيـة : قال بعض المشبهـة لا وجـه لحمـل اليـدين ها هنا على القدرة إذ جملة المبتدعات مخترعة بالقدرة ففي الحمل على ذلك إبطال فائدة التخصيص لآدم عليه السلام .

قيـل له إن العقـل يقضي بأن الخلق لا يقـع إلا بالقـدرة فلا وجـه

لاعتقاد كون آدم عليه السلام بغير القدرة ، إنما لزم السجود اتباعا لأمر الله تعالى ثم لا يستحيل في العقل تكريم الله بعض العباد بالتخصيص بالذكر ونظائر ذلك في كتاب الله عز وجل كثيرة فإنه عز اسمه أضاف الكعبة إلى نفسه على الاختصاص لها بذلك وأضاف المؤمنين بصفة العبودية إلى نفسه ، وأضاف روح عيسى عليه السلام إلى نفسه والإضافة تنقسم إلى إضافة صفة وإضافة ملك وإضافة تشريف . وأما تفسير اليد فإنها تخرج في كلام العرب إلى وجوه الخ ، وقد تقدم نقل ذلك .

وقال البيضاوي في قوله (لما خلقت بيدي) خلقته بنفسي من غير توسط كأب وأم ، والتثنية لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل وقرىء على التوحيد - إلى أن قال - إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض مسمى وله مزيد اختصاص الخ .

ما قيل في الصمد

وأما قوله (الصمد) فإن أبي بن كعب قال : الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ليس له عدل ولا مثل ليس كمثله شيء . وسئل ابن مسعود عن الصمد فقال المصمود إليه في الحوائج . وقال الحسن هو صمد العباد يصمدون إليه في حوائجهم ودعائهم ومسألتهم ، وقال سعيد بن جبير المصمود إليه في الحوائج ، وقال سعيد ما وحد الله من زعم أنه لا جوف له هو أعظم من أن تقع الأوهام على صفته ، أو تدرك العقول كنه عظمته ولكن الصمد السيد . وقال عكرمة الصمد القاهر فوق عباده .

قوله : (لصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) فيه إشارة إلى أن هذه الجمل مبينة للأولى فلذلك ترك العاطف بينهما وإنما عطفت الثانية والثالثة على الأولى من هذه الثلاث للإشارة إلى أنها في حكم جملة واحدة مبينة لما قبلها .

قوله : (لم يلد) قال البيضاوي : لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى ما يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه .

ولعل الاقتصار على لفظ الماضي لوروده ردا على من قال (الملائكة بنات الله والمسيح بن الله) أو ليطابق قوله (ولم يولد) وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه أحد ، ولم يكن له كفوا أحد أي ولم يكن أحد يكافئه أي يماثله من صاحبة أو غيرها .

وكان أصله أن يؤخر الظرف لأنه صلة لـ(كفوا) لما كان المقصود نفى المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديما للأهم ، ويجوز أن يكون حالا من المستكن في (كفوا) أو خبرا ويكون كفوا حالا من أحد الخ .

قوله : (المصمود إليه في الحوائج) أي المقصود إليه .

قال البيضاوي : الصمد السيد المقصود إليه في الحوائج من صمده إذا قصده وهو الموصوف به على الإطلاق فإنه يستغنى عن غيره مطلقا وكل ما عداه محتاج إليه من جميع جهاته وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته .

وتكرير لفظ الله للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية وإخلاء الجملة عن العاطف لأنها كالمبينة للأولى والدليل عليها . وقد تقدم الكلام على هذا .

وأما قوله : (يوم يكشف عن ساق) قال عباد العوام روي عن عاصم بن كليب أنه قال : رأيت ابن عباس غضب غضبا شديدا لم أره غضب مثله قط فقال (إنكم لتقولون قولا عظيما) يعني التشبيه الذي ذكروا وإنما يعني يكشف من الأمر الشديد .

وقال سعيد في حديث عاصم بن كليب : لوعلمت من قائل هذا التشبيه لفعلت وفعلت .

وقال علي بن عاصم هو الحق فأعجبه قول سعيد وأنكر رواية الآخرين ، وقال ابن عباس عن الأمر الشديد أما سمعت قول الأول (قامت الحرب على ساق أي على شدة) ، وقال عكرمة ألا ترى أن الحرب إذا اشتدت قالوا قامت الحرب على ساق قال الشاعر :

قوم بني قيس إذا شمرت
حرب وأبدت ساقها لافحه

وقال الحسن وعكرمة يكشف عن الأمر الشديد قال وأخبرنا عمير بن محمد بن يعلي عن جبير عن الضحاك عن ابن مسعود وعن الليث

عن طاوس عن عبـد الله بن عمـرو بن العـاص أنهـما قالا يوشك أن يكون شيطـان كان لسليـمان بن داود عليـه السلام أوثقه في البحر أن يظهر للناس فيحـدثهم ويعلمهم التشبيـه يزينون أحاديثهم بأحاديث أهل الكتاب فلن يهدوكم وقد ضلوا إنما هو كذب يصدقونه أو صدق يكذبونه .

قوله : (فقال إنكم لتقولون قولا عظيما) يعني التشبيه الذي ذكروا ، وذلـك أنهم ذكـروا في كتبهم حديثـا صريحـا في التشبيـه لا يكـاد يثبت عن رسول الله ﷺ وقد ذكره في البخاري من طرق متعددة .

وكذلك البغوي عند تفسير قوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) بعد أن ذكـر ما هو التأويـل الحق حيث قال (يوم يكشف عن ساق) قيل عن أمر فظيع شديد .

قال ابن عباس هو أشد ساعة في القيامة ، وقال سعيد بن جبير (يوم يكشف عن ساق) عن شدة الأمر ، وقال ابن قتيبة : تقول العرب للرجل إذا وقـع في أمـر عظيم يحتـاج فيه إلى الجد ومقاساة الشدة (شمر عن ساقه) ويقـال إذا اشتـد الأمـر في الحـرب (كشفت الحـرب عن ساق) ثم شرع في حديث الرؤ ية والتشبيه بما يطول ذكره ومن جملته فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبـد الله من بر وفـاجـر أتـاهم رب العـالمـين في أدنى صورة من التي رأوه فيهـا قال : فماذا تنظـرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا افقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول : أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا مرتين أو ثلاثا حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها فيقولون نعم

فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كل ما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة وقال : أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون : اللهم سلم سلم الخ ما أطال فيه .

قوله : (وإنما يعني يكشف عن الأمر الشديد الخ) قال في شرح النونية : ومن ذلك قول الله عز وجل (يوم يكشف عن ساق) أراد عن الأمر الشديد لأن سياق الآية في الانهاء عن الأهوال يوم القيامة وصعوبة أحوالها وما يصير إلى المجرمين من إنكالها لأن العرب تقول إذا جد الأمر في الحرب استعرت الصدور بالغيظ ، وحدجت الأعين بالبغضاء ، وشمخت الأنوف ، والتحمت المصارع قيل (قامت الحرب عن ساق) وقال سعد بن مالك بن ضبيعة في قصيدته التي أولها :

يا بؤس للحرب التي وضعت
أراهط فاستراح
وكشفت لكم عن ساقها
وبدا من الشر البراح

وقال آخر :

أخو الحرب إن غضبت به الحرب عضها
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ومثل هذا كثير في أشعارهم لا يشكل على من سمعها بأن المراد بذلك الإخبار عن شدة الأمر والتحام المكروه ، فحملت المشبهة الساق في هذه الآية على الجارحة تجسيما قبحهم الله .

صخرة بيت المقدس

قال مرَّ ابن مسعود بشيخ يحدث عن التوراة فلما رآى ابن مسعود سكت فقال : وبم يحدثكم صاحبكم فقالوا ذكر أن الله لما خلق السموات والأرض صعد إلى السماء من بيت المقدس ووضع رجله على صخرة بيت المقدس فاسترجع ابن مسعود فقال اللهم لا كفر بعد إيمان يقولها مرارا فقال (ود الذين كفروا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) .

قوله : (ود الذين كفروا لوتكفرون كما كفروا) التلاوة (ودوا لو تكفرون الآية) إن كان مراده تلاوة الآية .

ما أظنه إلا ابليس تمثل في صورته . ثم قال فهل أنكرتم عليه وقلتم كما قال العبد الصالح إبراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين .

قوله : (ما أظنه إلا ابليس يمثل في صورته) تقدم نظير هذا في شرح النونية حكاية عن جابر بن زيد رحمه الله في قوله : إن الله خلق آدم على صورته حيث قال بعد كلام : إن الشيطان تمثل لهذا الرجل في صورة الحسن كذلك الشيطان يتمثل في صورة الفقهاء من الصحابة والتابعين يتحدث عنهم بالكذب ليضل الناس الخ .

يقـول الـزائـل المتنقل فاتهموا اليهود على دينكم وقال : (يأتي على الناس زمان يصلون فيه ويصومون ويحجون ولو رميت سهمك لم تصب إلا كافرا أو منافقا لأن الشرك أخفى من دبيب النمل على الصخرة السوداء في الليلة الظلماء . وذلك من إنكارهم ربهم بقلوبهم حيث وصفوه بالحدود والزوال) .

قولـه : (يقـول الـزائـل المتنقـل) قال البيضـاوي في قولـه (لا أحب الآفلين) فضـلا عن عبـادتهم فإن الانتقـال والاحتجـاب بالأستـار يقتضي الأماكن والحدوث وينافي الألوهية .

قال الـربيـع بن حبيب بلغني عن ابن مسعـود والضحاك بن مزاحم أنهـما قالا استـوى على العـرش استـوفى وعلى الأشيـاء كلهـا فخضعت ودانت ، وقد تقول العرب استوت لفلان دنياه أي أتته دنياه على ما يريد ، واستـوى بشـر على العراق والحجاز واستوى لنا الأمر ، واستوى فلان على مال فلان يريدون أنه احتوى عليه وحازه ونحو ذلك .

قولـه : (أي أتتـه دنياه على ما يريد) فسره في شرح النونية بقوله أي ساعدته ، قال : ومنه احذر الدنيا عند استوائها .

فإن سأل المسـترشـد عن تفسـير الآى المتشابهات قال : سأل سائل عن أهل التنبيه والفائدة عن إيضاح الآى المتشابهات والدلالة على معانيها من قول الله عز وجل (على العرش استوى ـ وجاء ربك والملك صفا صفا)

وقوله (يداه مبسوطتان) وقوله (لما خلقت يدي) وما أشبه ذلك من كتاب الله الـذي فسـرنـاه فيما مضى من كتابنا بالرواية عن رسول الله ﷺ والصحابة والتـابعـين بإحسـان : فقال السائل ما الدليل على صدق تفسيركم ، وما الشهـادة عليـه من الكتب واللغـة المعقـولة ، فإنما الله خاطبنا بما نعقل وإلا فليس للمخاطبة عندنا معنى الاستواء واليد والعين وما أشبه ذلك ، لا يجوز أن يكون إلا على ما نعقل قيل للسائل : إن جميع ماسألت عنه متشابه .

قولـه : (واستـوى بشر على العراق الخ) كأنه يشير إلى قول الشاعر في جعله الاستواء بمعنى القهر والغلبة حيث قال :

قد استـوى بشـر على الـعـراق
مـن غـير سـيـف ودم مهـراق
فالحمـد للمهيمـن الـرزاق

فإن سأل المسترشـد عن تفسـير الآى المتشـابهات ، لا يدرك علمه بظـاهـره ولا بنصه لأن النص واحد والمعاني متباينة فلابد من كشف معانيها وإيضاح سبلها وقد قال رسول الله ﷺ (ما من كلمة إلا ولها وجهان فاحملوا الكـلام على أحسن وجـوهـه) وقيـل لن يتفقـه الـرجـل حتى يرى للقرآن وجوها ، وقال الحسن : تعلم العربية وحسن العبارة وقيل : ليس من كلمة إلا ولهـا وجـه وقفـا وظهـر وبطن . وإنـما معنى ذلك عندنا قوله : لا يدرك علمه بظاهره ولا بنصه ، الظاهر ما احتمل أمرين أحدهما أظهر من الآخر .

كذا قيل ولكن الظاهر في الحقيقة هو الاحتمال الراجح مثاله الأسد في

قولـك (رأيت أسـدا) فإنه يحتمل الحيوان المفترس والرجل الشجاع ، لكنه ظاهـر في الحيـوان المفترس لأنه المعنى الحقيقي ولا قرينة تصرف عنه ، فإن استعمـل في المعنى المجـازي بقرينة كان مؤ ولا ويسمى ظاهرا بالدليل وهو من قبيل المجاز .

والنص ما دل على معنى قطعا ولا يحتمل غيره كقوله تعالى (فصيام ثلاثـة أيـام في الحـج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) فهذا لا يحتمل ما زاد على العشـرة فمعنى كلامـه رحمـه الله أن الآيـات المتشـابهات لا يفهم معنـاهـا بالظـاهـر ولا بالنص وإنـما يفهم بالتأويـل أعنى الذليل وهو قرينة الاستحـالـة ويسمى ظاهـرا بالدليل كما في قوله تعالى (والسماء بنيناه بأيد) فإن ظاهره جمع يد ويد الجارحة محالة في حق الله تعالى فصرفت إلى معنى القـوة بالـبرهـان العقلي ، ومثل هذا يقال في جميع ما تعلقت به المشبهة من الوجه والعين والاستواء وغير ذلك فإنه يصرف بالدليل العقلي إلى ما يليق به مما وردت به اللغة كما تقدم والله أعلم .

قوله : (لن يتفقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوها) الرواية في القناطر لن يتفقه أحدكم كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة .

ورد به قول من زعم أنـه لا يجوز التفسـير بالـرأي مطلقا وأنه لا يجوز تأويـل كلمات القـرآن على خلاف قول ابن عبـاس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر .

قال ـ رحمـه الله ـ فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقـرآن إلا ما ترجمـه

ظاهر التفسير فهو مصيب في الإخبار عن حد نفسه ولكنه مخطىء في رد كافة الخلق إلى درجته ، بل الأخبار والآثار تدل على أن معاني القرآن متسعة لأرباب الفهم فذكر منها ما يطول ذكره ثم قال :

فكل هذا يدل على أن في فهم القرآن مجالا متسعا وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك .

وأما نهيه عليه السلام عن تفسير القرآن بالرأي وقول أبي بكر رضي الله عنه (أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن أنا فسرت القرآن برأي) إلى غير ذلك مما ورد في الآثار والأخبار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي فإنه لا يخلو أن يكون المراد به الاقتصار على النقل المسموع دون الاستنباط والتفهم والمراد به أمر آخر فمحال قطعا أن يراد به أن يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه لوجوه :

أحدها : يشترط أن يكون مسموعا من النبي مسندا إليه . وذلك لا يوجد إلا في بعض القرآن . فأما تفسير ابن عباس وابن مسعود من قبل أنفسهم فلا ينبغي أن يقبل منهم ويقال هو تفسير بالرأي لأنهم لم يسمعوه من النبي عليه السلام وكذلك غيرهم من الصحابة والمفسرين .

الثاني : أن الفقهاء من الصحابة وغيرهم من المفسرين قد قال في تفسير الآيات بأقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فمحال أن تكون كلها من رسول الله ﷺ ولو صح في واحد لبطل الباقي ، فصح أن كل مفسر قال بما ظهر له .

والثـالث : أنـه دعـا لابن عباس فقال (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) فلو كان تفسيره مسموعا كالتنزيل فما معنى تخصيصه بذلك .

الـرابـع : أنـه تعـالى قال (لعلمـه الـذين يستنبطـونه منهم) فأثبت الاستنباط للعلماء وهو وراء السماع .

فثبت بما ذكـرنـا تنـاقض هذه الشبهـة التي أوردت ، وبطل اشتراط السماع في التفسير ، وجاز لكل عالم أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وعلمه .

وأما النهي فإنه يدل على وجهين .

أحـدهما : أن يكـون له في الشيء رأي وميل من هواه فيتأول القرآن على وفق هواه لتصبـح له بدعتهُ ، وهذا تارة يكون مع العلم أنه ليس المراد بالآيـة ذلـك الـرأي ولكن يلبس على خصمـه ، وتارة يكون مع الجهل إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى هواه ورأيه إلى أن قال :

الوجه الثاني : أن يتسارع إلى التفسير بظاهر العربية من غير سماع ولا نقـل فيـما يتعلق بغـريب القـرآن ومـا فيـه من الألفاظ المبهمة المبدلة ، والاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير ، فمن لم يحكم هذه المعاني وبـادر إلى استنبـاط ذلـك بظاهر العربية كثر غلطه ودخل في جملة من يفسر القـرآن بالـرأي ولابـد من سماع التفسـير أولا ليتقي به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم .

والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع فنون كثيرة قال الغزالي الخ فتمثل لجميع ذلك من القرآن بما يطول ذكره فليراجع والله أعلم .

الكلام المتشابه الذي يتفق لفظه ويختلف معناه فجوابنا في ذلك - وبالله التوفيق والعصمة - في قوله (الرحمن على العرش استوى) ما قال عبدا الله بن العباس وابن عمر والحسن ومجاهد أنه ارتفع ذكره وثناؤه ومجده وعظمته تعالى عما قال المندد أن له أشباها وأندادا ، وقال ابن عمر في حديث الصخرة فارتعد فرقا وشفقا حين وصف الله بالزوال والانتقال وقال هذا كلام اليهود أعداء الله وقد وصفنا أباطيلهم فيما مضى من كتابنا وجميع ما قالوا موجود في لغة العرب . استوى فلان على العراق أي استولى أمره وملكه ، ويقال استوى فلان على مال فلان أي احتوى عليه وحازه ، ويقال استوى فلان على سريره ومجلسه ، ويقال لمن كان مائلا فاعتدل قد استوى يريدون انتصابه بعد ميله واعتداله بعد عوجه ، ويقال استوى فلان وفلان اتفقا على الصفة والنعت فما كانت الكلمة محتملة المعاني وقد قال ﷺ (احملوا الكلام على أحسن وجوهه) قلنا لا يخلو قوله (على العرش استوى من أحد معنيين إماما قال ابن عباس وابن عمر والحسن ومجاهد من علو الذكر واستواء المجد والقهر أو يكون على ما قالت اليهود المشبهة لله بأوصاف خلقه إذ قالت لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على العرش ووضع أحد فخذيه على الآخر واستراح فكذبهم الله بقوله (ما مسنا من لغوب) وبقوله (ليس كمثله شيء وما أشبه ذلك من كتاب الله عز وجل فألزموه العجز والوهن والتعب والنصب قاتلهم أني يؤفكون .

لو جاز أن يكون قوله (على العرش استوى) على ما قال المشبهة أنه

على ما نعقل من استواء الرجل على سريره ومجلسه لجاز أن يكون قوله (ثم استوى إلى السماء) يعني بالاستواء والميل والعوج في ذلك ما يوجب عليه الميلان والاعوجاج تعالى الله عن ذلك وتقدس فإذا بطلت هذه الصفة في هذا التأويل لما فيه من النقص ثبت ما قال ابن مسعود وابن عمر وبطل ما قالت اليهود المشبهة .

ووجه آخر لو جاز أن يكون الاستواء على ما قال تعقل المشبهة من أنفسها ووجبت المماسة والحدود والنهاية في هذه الصفة إبطال قوله (ليس كمثله شيء) ولو جاز أن يكون الاستواء على ما تعقل المشبهة من أنفسها لجاز أن يكون قوله (ما يكون من نجوي ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) إنما يعني به فيما زعمت المشبهة على ما تعقل من كون الرجل مع الرجل وفي ذلك تثبيت التحديد والنهاية والانتقال وهذه صفة الخلق تعالى الله عن الصفة .

ولكنه على العرش ومعهم أين ما كانوا في وقت واحد بلا كيف ولا تحديد ولا وصف كما شاء على خلاف ما تعقل من أنفسها لكنه معهم بالتدبير والإحاطة والعلم لا يمثل ولا يوهم تعالى الله عما يتوهم الجاهلون .

ولو جاز لقائل أن يقول (وهو معكم أينما كنتم) أن علمه معنا أينما كنا وليس ذلك في نص الآية لجاز لمن خالفهم إنما يعني بقوله استوى على العرش إنما علمه مستو على العرش وإن لم يكن في الآية ، فلما لم يجز لقائل أن يقول ذلك ولم يتأوله لم يجز للمشبهة تأويلها .

ومن أين جاز له أن يتأول قوله (على العرش) على ما يعقل ولم يجز أن يتأول قوله (وهو معكم على ما يعقل) .

قوله : (الكلام المتشابه الذي يتفق لفظه ويختلف معناه) يعني كالكلام المشتمل على الاستواء مثلا فإن لفظه واحد بالنظر إلى الاستواء ومعناه مختلف ، وكذلك المشتمل على اليد والعين والقبضة ونحو ذلك فيحمل في كل موضع على ما يناسبه بحسب القرائن كما تقدم .

قوله : (ارتفع ذكره الخ) فعلى هذا يكون في الكلام مجازان أحدهما في الكلمة حيث استعمل الاستواء في الارتفاع إن لم يكن ذلك معناه لغة ، والثاني بالحذف أعني حذف المضاف إلى الضمير المستتر في استوى ، والقرينة في كل منهما الاستحالة في الحمل على الظاهر والله أعلم .

قوله : (وجميع ما قالوا) أي عبد الله بن عباس وابن عمر والحسن ومجاهد في تأويل الاستواء الخ .

قوله : (ويقال استوى فلان على سريره) جعل هذا المثال في شرح النونية من الاستواء بمعنى الاعتدال بعد الاعوجاج ومثل الاستواء بمعنى الاستقرار بقوله تعالى (واستوت على الجودي) أي استقرت .

قوله : (ولو جاز لقائل أن يقول الخ) مراده رحمه الله التسوية بين قوله (وهو معكم أين ما كنتم) وبين قوله (استوى على العرش) مجاراة للمشبهة

في أنه إن أجاز التأويل في قوله (وهو معكم أين ما كنتم) بالحمل على العلم والاحاطة والقدرة وإن لم يكن نصا في ذلك لما في الحمل على الظاهر من الشرك اللازم من التحديد جاز التأويل أيضا في الاستواء بحمله على العلم والقهر وغير ذلك مما يليق بالباري جل وعلا وإن لم يكن نصا في ذلك لما في الحمل على الظاهر من التحديد المستلزم للشرك .

وإن حملوا الاستواء على ما يعقل ولم يحملوه على العلم مثلا لزمهم القول بذلك في المعية فلا فرق بين الآيتين في التأويل على ما هو الحق الذي عليه المسلمون وبين الحمل على ما يعقل من الخلق وهو الباطل الذي عليه أهل التشبيه هذا هو المراد والله أعلم وإن كان في العبارة غموض .

في قوله : (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) وأما ما سألت عنه من قول الحواريين لعيسى صلوات الله عليه (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) وذكرت أن ذلك يدل على أن الله في السماء دون الأرض فدل ذلك على أنه ليس على العرش لأنهم سألوا إنزالها من السماء ولم يسألوه من العرش ولو كان ذلك يدل على أنه في السماء لكان قول بني إسرائيل لموسى (ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها الآية) يدل على أن الله في الأرض دون السماء ، لأن الإخراج من الأرض كالإنزال من السماء ولم يكن في قول الحواريين ما يدل على أنه في السماء دون الأرض والله تعالى المقدر للأشياء على ما أراد فمنها ما يقدره من السماء ومنها ما يقدره من الأرض ، فهو المنشىء لذلك والمدبر له جل جلاله وتقدست أسماؤه وتعالى ذكره .

ومعني مسألـة الحـواريـين من السـماء لأن ذلـك أدل للخلق وأعظم للإجـابـة وأوضـح للآيـة لأن ذلـك معني لا يقدر الخلق أن يدَّعوه لا ساحر ولا كاهن فأراد القوم أن يؤتي من ذلك مالا يقدر الخلق على ادعائه وليس في تدبير المنشىء من موضع ما يدل على أنه في ذلك الموضع دون غيره ولو جاز ذلـك لكـان قوم موسى عليـه السـلام أن سألـوه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلهـا (الآيـة) يدل على أنـه في الأرض دون السماء ولكان قوم صالح عليه السلام إذ سألوه أن يخرج لهم ناقة عشراء من صخرة يدل على أنه هنالك دون ما سواه لكن الله بمنه وفضله يدبر الأمر من حيث شاء بلا زوال وانتقال .

أقـول : لابـد من التأويل في الاستطاعة وإلا لكفر ، ولأن من شك في صفة من صفات الله فقد كفر .

وقد أشار البيضاوي إلى تأويلها قال : قيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة .

وقيـل المعنى (هـل يستطيـع ربـك) هل يجيبـك ، واستطاع بمعنى أطـاع كاستجـاب وأجـاب وقـرأ الكسـائي (هل يستطيع ربك) أي سؤال ربك ، والمعنى تسأله ذلك من غير صارف .

والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد الماء يميد إذا تحرك أو من ماده إذا أعطاه كأنها تميد من تقدم إليه إلى أن قال :

روي أنهـا نزلت صفـرة حمراء بين غمامتـين وهم ينظـرون إليها حتى

سقطت بين أيـديهم فبكى عيسى عليـه الصـلاة والسـلام وقـال : اللهم اجعلني من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام فتـوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنـديـل وقال (بسم الله خير الرازقين) فإذا سمكـة بلا فلوس ولا شوك تسيـل دسـما ، وعنـد رأسها ملح ، وعند ذنبها خل ، وحـولهـا من ألـوان البقول ما خلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحـد منهـا زيتـون ، وعلى الثـاني عسـل ، وعلى الثـالـث سمن ، وعلى الـرابـع جبن ، وعلى الخـامس قديـد ، فقـال شمعون : يا روح الله أمن طعـام الـدنيـا أم من طعـام الآخرة ؟ فقال ليس منهما ولكن اخترعه بقدرته كلوا ما سألتم واشكـروا يمـددكم الله ويـزيدكم من فضله فقالوا : يا روح الله لو أريتنـا من هذه الآيـة آيـة أخـرى فقـال يا سمكـة احي بإذن الله فاضطـربت ثم قال لها عودي كما كنت فعـادت مشـوية ثم طارت المائدة ثم عصوا بعدها فمسخوا .

وقيـل كانت تأتيهم أربعـين يوما غبا يجتمعون إليها الفقراء والأغنياء والصغـار والكبـار يأكلون حتي إذا أفاء الفيىء طارت وهم ينظرون في ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا بريء ولم يمرض أبدا ثم أوحى إلى عيسى عليـه الصـلاة والسـلام أن اجعـل مائـدتي في الفقـراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلا .

وقيل لما وعد الله سبحانه إنزالها بهذه الشريطة استعفوا وقالو لا نريد فلم تنزل .

وعن مجاهد أن هذا مثل ضربه الله تعالى لمقترحي المعجزات الخ .

قوله : (أن يخرج لهم ناقة عشراء من صخرة عشرا) بضم العين وفتح الشين والراء الممدوة واحد العشار .

قال في الصحاح : والعشار بالكسر جمع عشراء وهي الناقة التي أتت عليها من يوم أرسل عليها الفحل عشرة أشهر وزال عنها اسم المخاض ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وبعد ما تضع أيضا الخ .

وقصة هذه الناقة مع ثمود طويلة وقد ذكر البغوى من طرق وأوردها أو غالبها عبرة قال :

وأما قصة ثمود على ما ذكر محمد بن اسحاق ووهب وغيرهما أن عادا لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فرحلوا فيها وكثروا معناه ، كثر رجالهم وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حيى فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا في سعة من معاشهم فعتوا وأفسدوا فى الأرض وعبدوا غير الله تعالى فبعث الله إليهم صالحا وكانوا قوما عربا ، وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا وموضعا فبعثه إليهم غلاما شابا فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح الدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية مصداقا لما يقول فقال لهم : أي آية تريدون ؟ قالوا تخرج معنا إلى عيدنا ـ وكان لهم عيد يخرجون

فيـه بأصنـامهم في يوم معلوم من السنـة ـ فتـدعـو إلهـك ونـدعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعنـاك وإن استجيب لنـا اتبعتنـا ، فقال لهم صالح : نعم فخـرجـوا بأوثـانهم الى عيـدهم وخـرج صالـح معهم أوثـانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعوبه ثم قال خيدع ابن عمرو بن جواس ـ وهو يومئذ سيد ثمود ـ يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكـل البخت من الإبـل ـ فإن فعلت صدقنـاك وآمنـا بك فأخذ عليهم صالـح مواثيقهم لئن فعلت لتصـدقنني ولتـؤمنن قالـوا نعم فصلى صالـح ركعتـين فدعـا ربـه فتمخضت الصخـرة تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبـة فانصـدعت عن ناقـة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلـم ما بين جنبيهـا إلا الله عظـما وهم ينظـرون ثم نتجت سقبا مثلها في العظم فآمن به خيـدع بن عمـرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فنهـاهم جوّاب بن عمـرو بن لبيـد والحبـاب صاحب أوثـانهم وربـاب بن صمعـر وكـان كاهنهم وكـانـوا من أشـراف ثمود فلما خرجت الناقة قال لهم صالح هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء فكانت ترد الماء غبا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتفسح حتى تعج لهم فيحلبون ما شاءوا من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملأوا أوانيهم كلها ثم تصدر من غير الفج الذي منه وردت ولا تقدر على أن تصدر من حيث ترد يضيق عنها حتى إذا كان الغـد كان يومهم فيشـربـون ما شاءوا من المـاء ويـدخرون ما شاءوا ليوم الناقة فهم في ذلك في سعة ورغد ، وكانت الناقة تصيف إذا كان

الحر بظهر الوادي فتهرب منها المواشي أغنامهم وبقرهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الـوادي في حره وجـدبـه وتشتى ببطن الـوادي إذا كان الشتـاء فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للابتلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها إلى أن قال :

فانطلق قداد بن سالم ومصـــدع بن مهــرج فاستغـويـا غوات ثـمـود فاتبعتهم سبعـة نفـر وكـانـوا تسعـة رهـط فانطلق قداد ومصدع وأصحابهما فرصـدوا النـاقـة حين صدرت عن الماء كمن لها قداد في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أخرى فمرت على مصدع فرمى سهما فانتظم به عضلة ساقهـا ـ إلى أن قال ـ فشـد على النـاقة بالسيف فكشف عرقوبها فخـرت ورغت رغـاءة واحـدة تحذر سقبهـا ثم طعن في لبنها فنحرها وخرج أهـل البلد واقتسمـوا لحمهـا وطبخوه فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتي جبلا منيعا يقال له (صنوي) وقيل اسمه (قاره) وأتي صالح وقال له : أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنـا فقـال صالـح انظـروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفـع عنكم العـذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخـذوه فأوحى الله إلى الجبـل فتطاول في السماء حتى ما يناله الطير وجاء صالـح فلما رآه الفصيـل بكى حتى سالت دمـوعـه ثم رغى ثلاثا وانفجرت الصخـرة فدخلهـا فقـال صالح لكل رغوة أجل يوم فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .

وقـال ابن اسحـاق اتبـع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا

الناقة وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه دب بن مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جر برجليه فأنزله فألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزءون به ومتى ذلك يا صالح ؟ وما آية ذلك ؟ وكانوا يسمون الأيام فيهم الأحد أول ، والاثنين أهوز ، والثلاثاء ديار ، والأربعاء جبار ، والخميس يونس ، والجمعة العروبة ، والسبت بشار ، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح حين قالوا ذلك تصبحون غداة يوم يونس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم بشار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة هلم فلنقتل صالحا فإن كان صادقا فأعجلناه قبلنا وإن كان كاذبا قد كنا ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه أبدا فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقا فلم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكورهم وإناثهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه فخرج صالح هاربا منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم بنوا غنم فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل ويكنى بأبي هذب وهو مشرك فغيبه ولم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يا نبي الله إنهم

ليعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم قال نعم فدلهم عليه فأتوا أبا هذب فكلموه في ذلـك فقـال نعم عنـدي صالـح وليس لكم عليـه سبيل فأعرضوا وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون في وجـوههم فلما أمسـوا صاحـوا بأجمعهم قد مضي يوم من الأجـل فلما أصبحـوا اليـوم الثـاني إذا وجـوههم محمـرة كأنـما خضبت بالدماء فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسـودة كأنـما طليت بالقـار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب فلما كان ليلة الأحـد خرج صالـح من بين أظهـرهم ومن أسلم معه إلى الشام فنزل رملة فلسطـين فلما أصبـح تكفنـوا وتحنطـوا وألقـوا أنفسهم بالأرض يقلبون أبـصـارهـم إلـى السـماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العـذاب فلما اشتـد الضحى من يوم الأحـد أتتهم صيحـة من السـماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم في صدورهـم فلم يبـق منهم صغـير ولا كبـير إلا هلك كما قال الله تعـالى (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سلف وكـانت كافـرة شديـدة العـداوة لصـالـح فأطلق الله رجليها بعد ما عاينت العذاب فخرجت كأسرع ما يرى شيء قط حتى أتت فرحا وهو واد القرى فأخـبرتهم بما عاينتـه من العـذاب ومـا أصـاب ثمودا ثم استسقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت .

وذكر السدي في عقر الناقة وجها آخر الخ .

وفي قولـه (وقـدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) فإنما

يقول (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) وكذلك ذكر مجاهد والحسن فلا يجوز أن يكون ذلك على الزوال فإنه لو جاز أن يتوهم قدومه على ما يتوهم من قدوم الرجل إلى مكان لم يكن فيه وجوب أن يتوهم القدوم بالسعي أو بالمشي والركوب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قوله : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) قال البيضاوي : أي عمدنا إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا سلطانهم فقدم إلى أسبابها فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثرا .

والهباء غبار يرى في شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهو الغبار و (منثورا) صفته شبه به عملهم المحيط في حقارته وعدم نفعه ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمه أو تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوها .

أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر كقوله (كونوا قردة خاسئين) .

قوله (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) إنما هو على الزوال والانتقال .

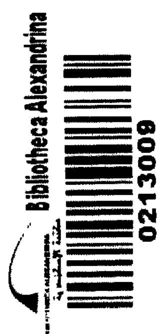
قوله : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) قال البغوي : معنى الإنزال ها هنا الإحداث والإنشاء كقوله (أنزلنا عليكم لباسا) .

وقيل إنه أنزل الماء الذي هو سبب نبات القطن الذي يكون منه اللباس ، وسبب النبات الذي تبقى به الأنعام .

وقيل أنزل لكم من الأنعام جعلها لكم نزلا ورزقا .

وقال البيضاوي : وأنزل لكم قضي أو قسم لكم فإن قضاياه وقسمته توصف بالنزول من السماء حيث كتب في اللوح وأخذت لكم بأسباب نازلة كأشعة الكواكب والأمطار .

(ثمانية أزواج) أي أصناف ذكرا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز .



طبع بالمطبعة الشرقية ومكتبتها ـ مطرح ـ سلطنة عمان